ليو تولستوي

آنا كارنينا

www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^

دار القلم
بيروت . لبنان

APPROVED

هذا الكتاب

على انه كل مرة حاول ان يفاتح زوجته بالامر كان يشعر كأن روح الشر التي تهيمن على مشاعرها قد انتقلت اليه هو ، وانه اضحى مثلها منافقا مرائيا ، ولولا ذلك لما غير الموضوع وخاض في حديث آخر غير الذي بدأ فيه ؟

وهكذا مر الوقت ... مر يوما اثر يوم .. ودارت عجلة الزمان .. وللرجل حائر في امره . والمرأة سادرة في هواها ، ماضية في طريقها .. لاتلوي على احد .. فإلى اين تقودها قدماها الى اين يفضي بها غرورها ، ومتى تستفيق ؟ هل تتراجع ؟ ام تقذف بنفسها في الاتون ؟

على مفرق طريقين . ألفت انا نفسها ..

الى اليمين طهر وعفة ونقاء ..

والى اليسار فحش ودنس ورجس ..

فإلى ايهما تتجه الغانية ...

انها على مفرق طريقين تقف ..

والقدر ينتظر .. وزوجها الملهوف ينتظر !

www.liilas.com/vb3 ARAYAHEENA

كانت عائلة « اوبلنسكي » مضطربة غاضت سعادتها ، وتلاشى استقرارها ، وحف بها الشقاء من كل جانب .

فالزوج حاد عن الصراط ، والزوجة اكتشفت ما نزع اليه قلب قرينها، فقد كلف المربية الحسناء التي كانت ترعى اولاده ، وهام بها ، وعاشرها معاشرة الازواج .

وشاع الحزن في قلب المراة المهيضة ، فشعرت بالمهانة ، وجهرت بعزمها على صد زوجها عنها ، والانفراد بعيشها ، وكأنها لم تنجب اولادا !

وانقضت ايام ثلاثة عمت خلالها الفوضى ، وثبت ان لا مندوحة للزوجين من الانفصال .

ولاذت الزوجة بغرفتها فلم تبرحها ، وهام الزوج على وجهه وجعل يقضي سحابة نهاره متنقلا من مكان الى مكان . فاذا ما قفل راجعا ، قضى ليلة في غرفة اخرى غير مخدعه .

وفي صباح اليوم الثالث لنشوب النزاع استيقظ الامير « ستيفان اوبلنسكي » ، كما اعتاد ان يستيقظ كل صباح ، فتثاءب وتمطى، واستعاد الى الذاكرة صورا من الحلم الذي الم به ، والاشباح التي طوفت بمخيلته، ثم تذكر فجاة انه لا ينام الى جانب زوجه بل على الاريكة الجلدية في مكتبه. فتململ في مكانه متضررا ، الا انه عاد فانطرح على وجهه ، وما عتم بعد قليل حتى دفن راسه في الوسادة ، وغاص في لجة الفكر ...

فتذكر تلك الليلة السوداء التي حولت حياته الى جحيم .. وصاح بصوت اليائس الولهان : « انها اصعب مراسا من كل امراة سواها ، ولن تغفر لي ! » .

عاد في تلك الليلة التعسة من ملعب التمثيل وهو يمشي بزهو ولا يكاد يطا الارض عجبا وسعادة .. ودلف الى البيت بخطاه الثابتة وبيده اجاصة كبيرة ...

وبحث عن زوجه فلم يجدها في الردهة ، فولج غرفة المائدة ، فلم

يلقها هناك ايضا .. وهجست نفسه اليس مدنبا هو ؟ الا يحس بما ينتظره ؟ الا يلمس موطن الخطر الماثل امامه ؟

حدس هو ما جرى ، ولما دخل مخدعها ، ايقن ان كهانته قد اصابت كبد الحقيقة ، وها هي زوجته تحمل في يدها ذلك الكتاب الملعون الذي اماط لها اللثام عن قصة الخيانة .

ووجب قلبه ، فتمعن في وجهها ، ولكنه لم يجد فيه الا الاصفرار وحزنا يكاد ينفجر .

ولكنه كان مرحا بطبيعته، لا يحمل الهم الا فينة، ولا يحزن الا هنيهة، ويضحك اذا المت به المصائب !

وقالت امراته بصوت صارم : « انت هنا ! انت ايها الانسان الغادر ؟ قل ، اجب ... ما هذا الكتاب ؟ » .

* * *

ففغر فاه ، وحملق اليها دون أن يجيب .. ثم ابتسم ابتسامة بلهاء، ونقل طرفه بين زوجه والكتاب الذي اظهرها على انحرافه وارتمائه في احضان المتعة المحرمة ، وجنوحه الى الفجور يختلسه في غفلة من زوجه ، ودون وازع من ضمير ، او حائز من شرف .

وابتسم ابتسامة بلهاء ، فكانت ابتسامته كلمة القضاء .. لقد حكم بها على نفسه فادانها وخطأها ، واكتفت زوجه واقتنعت .

وتنفس الصعداء وهو يفكر الآن بمصيبته ، وينحي على ابتسامته تلك باللائمة ، ويتساءل والحيرة مستحوذة على مشاعره ، عن انجع الطرق التي تثمد هذه العقبة فتلاشي الخصام وتزيل القطيعة .

وتساءل مليا .. ثم فكر .. ولكنه لم يهتد الى حل وقال يحدث نفسه « لقد هدمت صروح احلامي .. وكدرت لذة الحياة لي ولاولادي ، ولن يجدي معها الكلام .. ومهما جهدت في حل هذه العقدة فلن اجد لها حلا ، وستعتبر زوجتي كل قول اقوله ضلالا » .

* * *

كان ستيفان رجلا صادقا فيما بينه وبين نفسه ، ولهذا لم يكن في وسعه التغرير بهذه النفس وخدعها .

وكان في الرابعة والثلاثين من عمره ، وكانت زوجته في الثانية والثلاثين، وقد رزق منها سبعة اطفال مات منهم اثنان .

وغشيه من الهم وهو يضرب من الحيرة اخماسا لاسداس ما لم يبل مثله من قبل ، فقد فكر بأولاده ، وفكر بامراته ، وفكر بنفسه ! ولم يكن مبعث همه عدم ميله الى زوجته ، بل كان مثارة قدمه لاقدامه على الاقتران بها !

ولو تكهن ان خيانته ستحشي بشر وغدر ، لفكر مراراً قبل ان يقتحم الصعاب ، ولحرص كثيرا حتى لا ينكشف الستر !

بيد انه لم يتبع العقل ، ولعله كان يظن في زوجته القائمة ببيتها وولدها ما يصرفها عنه وعن مباذله ، وما يجعلها الا تكترث بفسقه .. وذهب به حسن الظن كل مذهب ، فكان يثق انها تتغاضى عنه حتى ينفع غليله ، فيظل الرجل المستسلم لها بصفتها ربة الدار ، المنصرف عنها بصفته تهوى الحسن والدلال !

واستوى جالسا ، وراح يحدث نفسه ويقول : « هذا مريع ! واني احس بالخبال .. اليس من السخف والافن ان يعشق الانسان مربية او خادمة ؟ ولكن .. ولكن .. اي مربية هي ؟

وافتر ثغره عن ابتسامة رضية ، وأغمض عينيه ، وحلق في عالم الاحلام ، كأنه يرى جسد المربية الغض ووجهها الناصع الناعم وعينيها المشرقتين الصافيتين ...

وهتف على حين غرة : « ابن المفر ، وما العمل ، حتى اصون نفسي من الانهيار ؟

وتحير يتلفت بمنة ويسرة ، ثم دق الجرس ، فهرع اليه خادمه « ماتفي » ـ ذلك الشيخ المخلق الودود ـ يحمل له بزته وحذاءه.. ويحمل ايضا له برقية وتبعه الحلاق داخلا وهو يشيل عدة الحلاقة .

ورنا اوبلنسكي الى خادمه مستطلعا ، وقال : « ما وراءك يا ماتفي ؟ امعك اوراق يجدر بي قراءتها ؟ »

وفض اوبلنسكي البرقية ، وما كاد يطلع على محتوياتها حتى هتف بارتياح : « اي ماتفي ، شكرا لله ان اختي قادمة في الغداة ـ ان اختي « انا كارنينا » قادمة لتمكث معنا ردحا من الزمن » .

وعاد الخادم يقول متسائلا : « الآتية وحدها ؟ »

فلم يتسن لستيفان ان يرد ، فقد كان الحلاق حينئذ يمرر الموس على ذقنه . ولكنه رفع اصبعه ، ففهم الخادم انها قادمة دون زوجها .

ولم يلبث ان قال : « وهل اجهز لها الغرفة العليا ؟ »
فاجابه ستيفان : « سل زوجتي (داريا الكسندروفنا) »
فقال الخادم في تعجب واضطراب : « اسالها ! »
« اجل ، وخذ لها البرقية »

ومضى الخادم يقدم رجلا ويؤخر اخرى الى حجرة المراة المهيضة الجانب وعكف ستيفان على ارتداء ملابسه .

ولما قفل الخادم راجعا ، بدا من تقطيبته وعبوسه انه عمل عملا لم يحكمه . ولما نطق قال بلسان متعلثم ينم عن حزنه : « لقد اعطيتها البرقية، فلم تعن بقراءتها ، بل قالت انها مرتحلة وان الحياة في المنزل لن تروق لها بعد اليوم » .

وكان الخادم رساه بثالثة الاثافي بكلماته تلك ، فاسى وحزن ، لم ابتسم كما يبتسم دائما في وجه الخطوب وقال محتارا : « لقد اخفق المسعى، فما العمل ؟ »

فصعد فيه الرجل بصره واجاب : «اولى بك ان تسلم المسالة للقدر فالزمان كفيل بحل اعقد المشكلات » .

وصمت ، وذهبت به افكاره كل مذهب . التفت الى خادمه الواجم المترقب . واذا هو يهم بالكلام ولجت عليه المكان الحاضنة « ما تريشا فليمونوفنا » وعليها ثوب واسع فضفاض .

مع ان ستيفان اطاع دواعي الحب وخفر عهد زواجه ، الا ان جميع اهل البيت وخدمه كانوا يعطفون عليه ويشعرون معه ويودون لو يختار هذه العقبة منتصرا . ودخلت الحاضنة وفي امائرها ما ينم عن هم . وانشات تقول وهي تكاد تنشلع :

« سيدي ! ارى ان تحاول .. حاول مرة اخرى .. اني اعوذ بك . فافعل، ما يخمد نار كربها، افعل ذلك ناشدتك الله من اجل بيتك واطفالك.. افعل ذلك حتى ينسري غمنا ! »

فاهتز الرجل من شدة الانفعال ، واجاب وهو ينكس راسه : « انها تابى مخاطبتي فضلا عن مقابلتي .. فما العمل ؟ ماذا اصنع ؟ »

قالت : « ما يحتمه عليك الواجب، لان التحرق على نار الحزن والندامة لا ينفع في مثل هذه الحالة .. »

قال : « انت ذلقة اللسان يا عزيزتي ، ماهرة في الاداء .. فاذهبي الان

وسأفعل اللازم ! » . وما لبث بعد ذهابها ان ضمخ نفسه بالطيب ، وسرح لحظة من النافذة هنيهة كالمفكر ، ثم دلف الى حجرة المائدة بخطوات ثابتة مرحة ، ووجه متالق يتضح بالبشر والاطمئنان !

ما كان ستيفان اوبلنسكي رجلا ذا وجهين ، وما كان منافقا مخادعا ، ولكنه كان يتبع بغريزته من ترجح كفته ويشتد ساعده .

فهو مواظب على قراءة صحيفة حزب الاحرار .. ولا يرجع ذلك الى مشايعته لمبادىء حزب دون حزب، بل لان كفة هذا الحزب هي الكفة الراجحة وصحيفته المنتشرة على اوسع نطاق .

* * *

وما كان لستيفان اوبلنسكي نظرة بارعة في عالم الفن والادب ، ولا راي حاكم في مجال السياسة ، لهذا اكتفى بان يكون تابعا لتلك الاغلبية القوية ، يتلون بحسب لونها ، تماما كما كان موقفه ازاء قبعته كلما قدمت وحال لونها . ومن يعلم ؟ لعل حالته الخاصة في بيته ، حفزته ايضا الى الميل مع الاحرار والى مشايعتهم !

ومن يدري ؟ لعل معيشته الخاصة ولهفته الى نيل الحرية والانطلاق من قيود الزوجية ، وهو الحافز له على التغني بفلسفتهم ! ومن يدري : لعل اعباء الديون الكثيرة التي رزح تحت ثقلها جعلته يعوج بقلبه ولبه الى ناحية الاحرار ! الم ينادِ هذا الحزب بضرورة تجديد النظام ، والعرف والقانون ، والسياسة ، والحياة برمتها ؟

الم ينادِ بضرورة ازالة شوائب الماضي ؟ وديونه ، اليست من اقذار الشوائب ؟!

الم يجهر حزب الاحرار بضرورة تعديل قانون الزواج ؟ فلم لا يملأ هذا المبدأ عينه قوة ، وهو من اشقى الازواج ؟

الم يسخر حزب الاحرار من الدين ، ويستهجن الصلاة والعبادة وهو طالما تبرم اضطراره للمكث فترة طويلة يستمع فيها الى موعظة حسنة ، ويصغي الى كلام منمق عن الدنيا والاخرة .. وما جدوى ذلك ؟

ثم اليس لحزب الاحرار تلك الروح المرحة الطيبة الفكهة التي تدع رجاله البارزين يطلقون النكتة دون خوف او مبالاة ؟ لقد كتب زعيم في الحزب ، في جريدة الحزب فقال : « انظروا الى رسم الامير « روك » ، ثم احكموا . داروين ، اليس هو على حق في نظريته ؟!»

والقى اوبلنسكي الجريدة من يده ووضع قبعته على راسه وتاهب ليغادر بيته !

ولكنه تلفت حوله محتارا ، وتريث متململا وتساءل : « ائمة امر نسيته ؟ اهناك ما يخلق بي تنفيذه ؟ »

وجاءه الجواب ـ وجه مقطب تسح من عينيه الدموع اطل عليه فضرب على جبهته بيده وعلم انه لم ينس الا زوجه .. اهم ما كان عليه ان يذكر .

انه واثق من ان شيئا لن يعيد المياه الى مجاريها ، او يربا الصدع او يلاشي غضب زوجته وياسها .

وتناهى اليه في تلك اللحظة اصوات صخب وضجيج ، فادرك ان اولاده يلعبون في الحديقة ، وايقن ان لا بد مما ليس منه بد ونقب في دماغه المضطرب عن مخرج لهذه المشكلة فسدت في وجهه المنافذ والابواب ، لكن ما ذنب الاولاد ؟ ما ذنب اطفاله ابرياء ؟

وهز راسه ولوح بيده ، ثم مشى الى مخدع زوجه بعد ان اشعل سيجارته .

* * *

وقفت داريا الكسندروفنا بين اكوام من الامتعة والملابس ، وهي متلفعة بثياب السفر . وكانت الافكار قد هجن همها وبرين وجهها ، وكان شعرها المدبس ينطق بذات نفسه عن ماض له مجيد ، وكان وجهها الشاحب النحيل يشير بما عانته صاحبته من مضض .

فلما ولج زوجها عليها الغرفة ، حاولت ان ترمقه بنظرة احتقار واستهجان ؟ ولكنها اخفقت في جهودها ، وافرورقت عيناها بالدموع فكرهت ان تستوقفها ، فأشاحت عن زوجها وهي تشعر بالخوف والاشفاق . كانت تخافه .. وكانت ترتجف فرقا كلما فكرت بهذه المقابلة المحتومة بعد انكشاف امره ..

وطالما وطنت النفس في الايام الثلاثة المنصرمة ان تغادر البيت ، ولطالما رتبت امرها وحزمت رايها وجمعت ملابسها وملابس اولادها وهي تزمع على الانفلات الى منزل امها والاقامة فيه ، ولكنها كانت تنهار وتتهافت ويغشاها من الشجن ما يفت في عضدها ويوهن عزيمتها . وما اكثر ما استلقت على الاريكة في كل مرة انتاب ارادتها التخاذل ، وتأوهت وزفرت ، ثم قالت تحدث نفسها :

« من المحال استمرار الحال على هذا المنوال.. يجب ان اذله واقهره، يجب ان انتقم منه !

وقد اتعبها فكرها ، فعولت على وضع حد لهذه العلاقة ، ولكن ، كيف تصل الى هدفها ، وهدفها كربه ممجوج ؟ كيف يطاوعها قلبها ، وقلبها رقيق مرهف الاحساس ؟.

فوق ذلك ، ماذا تفعل بالعادة ؟ لقد مضت سنون عليهما وهما زوجان سعيدان ، يعيشان تحت سقف واحد ، وتتقلبهما الايام تارة من التفاؤل الى التشاؤم ، وتارة اخرى تقفز بهما من حرقة الكرب وشدتها الى روح السرور والبهجة ؟!

انه زوجها رغم الحوائل كافة ، انه زوجها رغم ما خطر خاطرها من خيانته وغدره .. وهو والد اطفالها الخمسة ، ولو شاءت ان تقطن بيت امها ، فهل يتسنى لها اصطحاب اولادها جميعا ؟

ومع ذلك فما انفكت طيلة الوقت تستعد، وتعد الثياب وتجهز الامتعة. وتعيد الترتيب من اوله ، فهل تخدع مشاعرها ؟ وكانت تزعم البقاء ، وتنوي الرحيل في آن واحد ؟

واحست بزوجها يدخل ، فتغيبت يدها في خزانة الثياب ، وكأنها تريد منها شيئا لاستكمال الاهبة .

ووقف الرجل ، والتفتت هي اليه ، وعبرت نظرتها عن دهشة وتعجب وحيرة ، مع انها كانت تود ان تطالعه بوجه مربد ، وعينين صارمتين قاسيتين ، يفيض منهما الاحتقار والازدراء .

وقال بصوت خفيض لطيف امل هو ان يوصله الى نيل المراد :

« داريا .. »

واغض بطرفه محاولة منه الظهور بمظهر النادم ، وتاوه وكأنه يتحسر على نعيم ولى !

على ان حيويته لم يستطع ان يبدد من مظهرها ، ونشاطه عجز عن اخفائه ، والعبير الذي كان يفوح من ملابسه وشعره ، الا يدحض هذا ما حاول اظهاره ؟

وتفحصته زوجته وصعدت فيه نظرها ، فاحفظتها قوته وفتوته ، وكدرتها ملامحه المرحلة التي تخلق له الاصدقاء والمحبين وعجبت فيما بينها وبين نفسها من هذا الاشراق الذي لا يخبو .

احنت عليه ، ولعل سخطها كان الحافز اليه غيرتها ، ولعله كان نتاج الفارق بين نضرتها الذابلة ، وشبابه المتألق .

وقالت له بصوت سريع ، غير طبيعي : « الك حاجة ؟ اتريد شيئا ؟ »

فأجاب متلعثما : « أنا قادمة يا عزيزتي ، قادمة غدا » .

فهتفت محتدمة : « وهل يعنيني امرها ؟ دعها تأتي .. فهي اختك !»

« ولكن حري بك ان تمكثي ، ان تربها ، ان تحدثيها » ..

فصرخت دون ان تنظر اليه ، وكان صرختها كانت عن الم جسماني حاد « اذهب .. اذهب .. اذهب .. »

كان في وسع ستيفان ان يحتفظ بهدوئه حين يفكر بامراته ، وكان يأمل ان يصدق حدس ماتفي خادمه فترجع اليه راضية غافرة ، ويرجع هو الى جريدته هادئا مطمئنا ، ويستأنف شرب قهوته في دعة وسكون ، وينصت الى ضجة اولاده في حنان وابتسام .

ولكنه لما رأى وجهها المتعذب المتألم ، واستمع الى نبرة صوتها المستسلم للقدر ، احس بشيء يقف في حلقه حتى ليكاد يكتم نفسه .. كما ان العبرات لمعت في مقلتيه ، وكأنها توشك ان تسيل من عينيه .

وسمع نفسه بعد قليل يهتف متضرعا :

« داريا ناشدتك الله ان تشفقي ! انظري ! انظري ! »

فصفقت داريا باب الخزانة بعنف وواجهته بنظرة صارمة ، ولم تنبس بكلمة .

وأردف هو بنفس اللهجة : « ماذا أقول غير شيء واحد ؟ ماذا اقول سوى ابداء الندم واستجداء المغفرة ؟ » .

وانتظر هنيهة وعاد يقول : « تذكري .. تسع سنين قضيناها سويا .. الا تستطيع ان تشفع لزلة واحدة ؟ »

واطرقت المرأة الموزعة الفكر الى الارض ، وهي تتوقع بل ترجو من كل قلبها ان يقول شيئا يثبت به براءته .

ولكنه عوضا ان يتنصل اندفع يثبت التهمة بطريقة دامغة ، فقال :

« نزوة طارئة .. شهوة ساعة .. مس من جنون .. الا .. الا »

« اغرب عن وجهي ! »

« داريا ... »

« اذهب .. غادر الغرفة ، ولا تحدثني عن نزواتك وسقطاتك .. لا تحدثني عن مجونك وفسقك ...

ولحركت لتذهب ، ولكنها ترنحت في مكانها ، وكادت تسقط ، لولا اسراعها بالامساك بظهر الاريكة .

واجهش هو ، وكاد ان يذرف الدمع ، وانشا يقول مستعطفا : « داريا اولادك اكبادك .. داريا ! فكري فيهم .. ماذا اقترفوا حتى تعاقبيهم ؟ انهم ابرياء يا عزيزتي ، والمذنب هو انا ، فلا تقوضي مستقبلهم .. واني لعلي اتم استعداد للقيام بما تفرضين .. قولي افعل ، مري انفذ .. فانا الملام ، وليس غيري .. فسامحيني واصفحي لي ! » .

فقعدت على الاريكة وهي تلهث من الاعياء ، ولهثت نفسه وتولته موجة عارمة من الحزن والاشفاق ..

وبذلت الزوجة وسعها لتتكلم ، فلم تجد الى الكلام سبيلا ، فتململت في مكانها وتلفتت وتالمت .

وطاطا اوبلنسكي راسه شان المجرم المعترف ، ونكس طرفه كمن ينتظر الحكم النهائي ، وانتظر ..

وتناهى اليه اخيرا صوتها المتهدج تائرا وانفعالا :

« ستيف .. ومتى فكرت بالاطفال الا لتزجي وقتا قصيرا معهم في العبث واللعب ، اما انا ، فانا افكر فيهم بكرة وعشيا . انا ابغي خيرهم وساعمل على انقاذهم .. » .

وتذكرت ان فكرة ايذاء الاطفال قد عاقتها عن الذهاب .. واستعبرت عيناها . لقد ذكرت اسمه مصغرا ـ ستيف ـ ورنا هو اليها في شكر وعرفان ، وتحرك ليتناول يدها ، ولكنها انكمشت على نفسها نافرة واستنتلت :

« لا انقطع لحظة عن التفكير في اطفالي ، بودي لو افتديتهم بحياتي .. بيد اني لا ادري كيف السبيل الى انتشالهم من الوحدة التي طوحت بهم فيها .. اخلاصهم هو في انتزاعهم من ابيهم ، ام في ابقائهم مع اب فاسق اناني ؟! اخبرني ، هل بعد الذي جرى امل في البقاء معا ؟ اتظن استئناف تلك الحياة امر محتمل ، هل يمكن هذا ، قل ، هل يمكن ، بعد كل ما بدا من ترديك في حمأة الرذيلة ؟

وجعل الرجل يبلع ريقه في حيرة وارتباك ، وقد انقبض واعرض عن زوجه اعراض المثقل بشعور الخزي .. وقال وهو يتجه بنظره الى الحائط : « فما العمل ؟ ماذا استطيع الآن ان اعمل ؟ »

وانحنت صعدته ، وغض بنظره .

فزمجرت مهتاجة : « يا للرجل الكريه ! يا للزوج المقيت ! وما عبراتك الا ستارا للؤمك وخبثك ! انك لم تحبني قط ، بل كنت منصرفا عني الى شؤونك الخاصة وتظاهرك بالحب ، الا ناحية اخرى من نواحي خستك ! انت غريب عني .. غريب .. غريب ! »

وغصت ، واحتقن الدم في وجهها ما اصعب الكلمة ! ما اصعب الكلمة تقولها لرجل عاشرته وعاشت في كنفه وانجبت منه اطفالها !

ودهش ستيفان لهذه الثورة الجامحة التي واجهته بها ، ولم يفهم كيف اثار اشفاقه غضبها وحنقها ـ لقد وجدت فيه شفقة عليها لا حبا .. وجدت رثاء لا عشقا . وتاجى نفسه والاسى يحز في صدره :

« انها تزدريني ، ويا ليتها تفعل بل انها تمقتني مقتا عظيما ! » وطفق يردد بصوت القائط المستسلم : « هذا مريع ! مريع ! »

وبكى في تلك اللحظة طفل في الغرفة المجاورة ، وربما يكون قد سقط الى الارض ، واصاخت داريا ، ولانت نظرتها ورقت اساريرها ، وتحفزت ثم نهضت مسرعة الى الباب .

واشرق وجه اوبلنسكي ، ورأى في هذا التبدل المفاجيء نوعا من الامل في عودة المياه الى مجاريها ، وقال يحدث نفسه :

« انها أم ، وهي تحب الاولاد ـ اولادي انا كيف تقتلوني ؟ »

وسارع يقول قبل ان تخرج :

« لي كلمة يا داريا ، كلمة فحسب » .

فحدجته بنظرة صارمة متوعدة وصاحت :

« اياك .. اياك .. لا تتبعني والا دعوت الخدم لاعرفهم حقيقة نفسك ، واطلعهم على نذالتك ! »

وخرجت وصفقت الباب وراءها بعنف .

وتنفس ستيفان الصعداء وغمغم باسما :

« وقال ماتفي خادمي الامين ان الزمان كفيل بحل اعقد المشكلات ، فكيف ؟ وقال انها سترجع من تلقاء نفسها ، فكيف ؟ لا امل في ذلك ، بلى ، لا امل .. اواه ، كيف صاحت ، لا شك ان الخدم سمعوها وهي تصرخ بملء فيها وتقول ـ ايها النذل .. هذا مريع مريع جدا ! »

وما عتم ان خرج من الحجرة ، فاستدعى ماتفي وقال :

« عليك يا مانفي ان تعد غرفة الضيوف لاقامة شقيقتي انا ، فلا تنس ذلك ، انها قادمة اليوم » .

قال : « لا تخش يا سيدي ، فساحسب لكل شيء حسابه » .

والقى ستيفان معطفه على منكبيه ، ودلف خارجا .

وتبعه الخادم العجوز وساله وهو يهم بركوب العربة :

« وهل تزمع العودة لتناول الطعام ؟ »

« قد افعل ، فخذ هذا المبلغ ـ واعطاه عشر روبيات لنفقة البيت وكن مقتصدا ! » .

« كعادتي دوما ! »

واغلق الخادم باب العربة ورجع ادراجه .

وكانت داريا في تلك الاثناء قد تدبرت امر الطفل الباكي ، وعلمت من صوت العربة ان زوجها غادر البيت ، فرجعت الى مخدعها . وكان المخدع ملجاها الذي تلوذ به هربا من متاعب البيت والاولاد حتى الخدم كانوا يسببون لها آلاما كثيرة .

واصابها خوف طاغ ـ لقد ذهب على الا يعود ؟ هل عزم بعد ان يئس منها أن يفصم العرى ويقطع الوشائج ؟ « ولكن لو سلمت جدلا بانه سيرجع ويقيم هنا واقيم انا ايضا ، فهل يمكن ان ننسى الماضي ؟ اواه ! يا الهي ، يا الهي ! » .

وظفرت الدموع من عينيها ومضت في نجواها : « لقد احببته ولا ازل احبه ، بل ان حبي له تضاعف الآن ... »

وقطعت عليها حبل فكرها خادمتها « ماترينا فيلمونوفنا » وهي تفتح الباب وتقول : « دعيني ارسل في طلب اخي ، ففي استطاعته تجهيز بعض الاطعمة للاولاد ، وبذلك نجنبهم قضاء النهار طاوين ساغبين » . فقالت : « اصبت يا ماترينا ، فابعثي في طلبه .. ولكن ، هل جئت بالحليب ؟ »

وغاب عن بالها انها غاضبة ، فانهمكت في اعمالها ، واقبلت على تصريف شؤون بيتها واولادها .

* * *

كان ستيفان اوبلنسكي بالرغم من الكسل الذي عراه في الصغر ، قد شغل منصبا ساميا في موسكو . وما كان توفيقه في حياته تلك الا بفضل زوج

شقيقته أنا ويدعى اليكسي كارنين ، وكان قطبا من اقطاب الحكومة في ذلك الحين .

وما كان ستيفان ليقصر عن الظفر بمثل هذا المنصب لو لم يعنه اليكسي في ذلك ، فثمة مئات غير اليكسي كانوا على تمام الاهبة ليقدموا له المساعدة اللازمة .

فنصف اهالي موسكو وبطرسبرج كانوا من ذوي قرابته . واعني بالنصف ، جميع الطبقة المترفة التي تضع يدها على مقاليد الامور ، وتهيمن على شؤون الدولة لهذا كان خليقا به ان لا يشقى في الحصول على ما ينبغي شريطة ان لا يشرئب بعنقه الى اعلى .. اي عليه ان يقنع بالذي ظفر به .

وكان ستيفان عند حسن ظن الجميع ، فهو مسالم بطبعه ، وينفر من المشاحنات ، ويحرص على تجنب ما يريب ، حتى وفق بحسن اخلاقه الى استلال كل حقد ينوب رئيسا او مرؤوسا .

كان يصدف عن المجادلة ، ويبتعد جهده عن المناقشة ، ويتكلم بلسان خاضع وصوت لطيف .. ويضحك في وجه كل انسان ، ويعفو ويصفح مهما كانت الاساءة بالغة ، ثم انه كان شابا ، مرحا ، يوحي بريق عينيه ببياض قلبه .

حتى ان كل صديق كان يقابله بتحية حارة ، فيقول : هذا انت يا ستيفا » . ويبتسم الصديق ابتسامة مخلصة ويربت على ظهره متوددا متحببا . واستطاع ابان الاعوام الثلاثة التي قضاها في الوظيفة ان يوطد مركزه في قلوب الجميع ، وان يدعم مستقبله بطريقة فعالة .. فهو يغضي حتى لا يجلب المضرة للغير والقدر لنفسه .. وهو يتواضع حتى لا يتضاعف كرهه الغطري من التعالي والعجرفة .. وهو يحب الجميع ويحب نفسه ..

كان اوبلنسكي كما قلنا يحيا حياة سطحية ، كان يحيا بجسمه مع زوجته ، وقلبه فارغ من الحياة . فلما وقعت الواقعة ، ومضى في ذلك الصباح المشؤوم الى مقر عمله ، كان شارد اللب زائغ البصر يضرب اخماسا باسداس ، كمن يظهر شيئا ويريد غيره .

فلما دخل مكتبه حياه الجميع ورحبوا به . ثم دخل عليه شاب كان اشدهم ظرفا ، فمثل بين يديه وعرض عليه مختلف الاوراق .

وانصت اوبلنسكي او تظاهر بالانصات ، ولكنه لم يفقه ما يقوله الشاب ، بل مضى يهجس في مصيبته ، ثم ناجى نفسه باسما :

« او استطيع ان اعمل ؟ او اطلع هؤلاء الشبان على جريرة رئيسهم ، واستطاعوا ان يروه وهو يقف في مذلة امام زوجته لكان موقفهم مني غير موقفهم ، ونظرتهم الي غير نظرتهم »

ومضت الساعة ، ثم دخل عليه في ساعة الظهر شاب مديد منتصب يدل مظهره على القوة والعزم ، ينبي سيماه بالصراحة والحزم .
وما كاد ستيفان يشعر بمقدم الرجل حتى انتصب واقفا ومد له يده مصافحا ، وقال له : « على الرحب ، على الرحب ، متى قدمت ؟ »
فاجابه الشاب : « منذ يسير وها انذا آتي اليك ؟ » .
وصمت فينة ثم اتم :

« ولي عندك مآرب ، فهل لديك فسحة من الوقت لتسمع ما اقول ؟ » .
وكان هذا الشاب ، يدعى ليفين وهو اقرب اصدقاء ستيفان الى قلبه. فقد تبادل الشابان الحب وهما طفلان ، ولما ترعرعا وشبا عن الطوق ما حض الواحد منهما الآخر الود والصفاء . وعمل ستيفان في الحكومة ، اما صديقه ليفين ، فقد فر هاربا من موسكو ، واتجع الريف حيث عاش هانئا سعيدا مرتاحا من مشاكل المدينة ومتاعبها .

ولما استتب بالشاب المقام عاد ستيفان يقول بلهجة تشف عن طيبته وصراحته : « انني سعيد برؤيتك يا صديقي ، فأين كنت ؟ وما الذي حبسك عنا ؟ » .
فاجاب ليفين : « كنت في الريف كما تعلم ، اما مشاعري فقد كانت في موسكو ! »

« سنتناول طعام الغداء اليوم » .
« بودي لو قدرت ، وما سوف اقوله لك ، لا يستغرق بثه اكثر من دقائق » .

« قل ما تشاء بايجاز ، ثم باسهاب حول مائدة العشاء »
فتململ ليفين متحرجا ، ثم تضرج وجهه حياء ، والجم لسانه .. ولكنه استجمع قواه بعد جهد ، وقال وهو يطرق :
« اردت ان اجتمع اليك لاخبرك اني .. اني ! .. »
وصمت كان القول ارتج عليه ، وما عتم ان اردف يقول :
« لن اكثر القول فيما لا منفعة فيه ، فماذا تستطيع ان تزف الي من اخبار الامير شرباتسكي وعائلته . قل كل شيء ! »

فضحك اوبلنسكي ضحكة المرح ، وكأنه نسي مشكلته المستعصية وقال :

« انهم على خير ما يرام » .

واستعرض في ذهنه صورة كاترين ابنة الامير وشقيقة داريا زوجته ، وفكر في تعلق ليفين بها وتدلهه بحبها .

وصعد في صديقه بصره ، ثم بش ثانية وقال بوجه طلق :

« ان شئت رؤيتها ، فما عليك الا ان تؤم حلبة التزلج في حديقة الحيوانات .. فهناك تجدها ، هناك تلقى كاترين كل يوم قبل الاصيل ، بين الثالثة والخامسة ! »

فاستشعر ليفين الانشراح ، وشعت عيناه بنور الحبور ، ولكنه تنبه الى عيني صديقه المترقبتين ، فتضرج وجهه ، وايقن ان شوقه قد فضحه .

ولكنه انشأ يقول وهو يغالب حياءه : « وسألقاك هناك اذن في الحلبة .. اليس كذلك ؟ »

قال : « اجل ، اجل .. وسنتناول طعام العشاء معا فيما بعد »

وانسرى هم ليفين ، وتلاشى اضطرابه ، واقبل على صديقه يصافحه ويشكر له صنيعه . وما ابطأ ان انصرف لا يلوي على احد ، وقد انحى على نفسه باللائمة ، وعذلها على ترددها وخورها وحيائها ... وعنف تلك النفس الخائرة على فقدانها معاني الشجاعة ، والا لكان ابتدر صديقه اوبلنسكي بالواقع ، وقال : « ما جئت الى موسكو الا لها ، وما جشمت مشاق السفر الا لاكحل عيني بمرآى كاترين ، فما قولك ؟ » .

كانت عائلتا « شرباتسكي » و « ليفين » من العائلات القديمة المعروفة في موسكو ، وكان بينهما من اواصر القربى والصداقة الوشيجة ما جرى مجرى المثل . وقد توثقت عرى المحبة والالفة بين ليفين الشاب ونيقولا شرباتسكي ، شقيق داريا شقيق الحسناء كاترين التي افتتن بها ليفين .

والعجيب في الامر ان ليفين تعثر قلبه في هوى داريا قبل زواجها ثم لم يلبث ان تحول الى شقيقتها .

وطفق من بعد يتردد على بيت العائلة ، وهو يحاول ان يحوز مغنما ، ولم يزل الم لها من ظلها كلما ام موسكو ، حتى ايقن الجميع انه لا بد متقدم الى اولياء امرها لخطبتها ، وانه لن يلبث طويلا حتى يطلب يدها .

ولكنه وقد لزمها شهرين ، وراقبها عن كثب ، وسبر غورها واصغى

لحديثها راعه ما رآه من سمو خلقها ، وحصافة تفكيرها ، والتزامها جادة الشرف والاستقامة .

ولما من الله عليه بتقوية نفسه ، أفاق من غيبوبته التي رماه فيها الحب وعجب كيف داخل حسه وتفكيره ان كاترين لن تحبه قط ، ولن تقبل به زوجا كما ان افراد عائلته سيرفضون طلبه ويردونه خائبا . اليس هو شاب ينتمي بعمله الى طبقة الفلاحين ، اليس هو شاب منسي ، لا تتعرف عليه اندية موسكو الليلية الا يعني بالسأمة ، فيربيها ويتعهدها ويتاجر بها : فأين هو اذن من كاترين ؟ واين مكانته المرموقة في الحكومة ؟

فما ان قفل راجعا الى موسكو حتى هاج الحنين بلبه ، وثارت كوامن شوقه وحنينه ، وعزم وقد دنفته هذه التباريح ان يستطلع محبوبته، ولكنه راى اهليها في شخصيته ، وليفعل الله ما يراه امرا مقضيا ، ليقضي عليه بالذي يراه . وقرر ان يتقدم من ابويها فيطلب يدها ، مغن يعلم قد يكرمان وفادته ، ويستجيبان الى طلبه ، فيحققان بذلك سعادة قلبه !

فاذا رفضا ، واذا رفضت ؟

ويلاه ! ماذا هو صانع ان رفضوا ؟

وطرد من راسه هذه الافكار ، وفوض أمره الى الله !

* * *

استقل ليفين العربة في الساعة الرابعة ، وترجل منها في مكان بعيد عن حلبة التزلج ، ثم مشى اليها بخطوات بطيئة مترددة ، حتى لا يهدم بحياله وتردده ما سعى اليه للمرة الاخيرة ، وحتى لا يندب . المستقبل نفسه التي أضاءت بجبنها منية قلبه وهناءة روحه .. وقد يقيه الله ، ان اقدم ، مرارة الخيبة ، فينجيه من العثرات ، ويوصله الى شاطىء السلامة .

وقال وهو يشرف على الحلبة : « ويك يا نفس ، لا تراعي ، وازدري الخوف كما ازدريت من قبل زخرف الحياة !

وضعفت ثقته بنفسه ساعة ظهر الناس لبصره .

وايقن من لمحات فكره واضطرابات احساسه ان حبيبة قلبه موجودة لا محالة .

فمن ، من يوصله الى الامام متغلبا على حياله وفزعه .

وما هي الا دقيقة حتى بدت له كاترين، وتراءت كأنها وردة بين حشائش

وكل شيء سطع حولها ! وكانت كالابتسامة التي اضفت النور على من يحيط بها .

« فهل يمكنني ان اسير اليها ! هل اجرؤ على الاقتراب منها ؟ » جعل ليفين يناجي نفسه .. وخيل اليه ان المكان الذي احتلته ما هو الا محراب مقدس لا يرقى اليه احد .. واستحوذ عليه الهلع ، وانثنى يزمع الرجوع من حيث اتى ولكنه تغلب على خوره ووهن عزيمته ، وتذكر وهو يبتسم ابتسامة فائرة ان غيره يحوم حولها رغم ضيائها وبهائها وروائها ! ومشى من بعيد ، مشى لدقائق عديدة يرتو ولا يدنو ، ويختلس النظر ولا يتقدم !

وفي مثل ذلك اليوم من كل اسبوع كان يؤم حلبة التزلج خليط من الناس . كان منهم ابطال اللعب على الثلج ، وكان منهم المبتدئون . وكان منهم الباحثون عن الشهوة .. ورمق ليفين حبيبة قلبه ، وتفرس في القوم الآخرين ، وايقن ساعتذاك انه يحبهم جميعا ، لانهم يحيطون بها احاطة الهالة بالقمر .

وبينما هو منصرف الى هواجسه وافكاره ، اذ بقائل يهتف :

« هذا هو بطل روسيا الاول في التزلج ! فمتى قدمت يا ليفين ، وكيف ؟ لم نسمع بقدومك ؟ »

وكان المتكلم يدعى « نيكولاي شرباتسكي » وهو ابن عم كاترين .

واقتربت كاترين في حذر كانها تخاف السقوط ، ووجف قلب ليفين ، وطفق يتامل صامتا في هذا الحسن الرائع .. ثم صعد طرفه الى عينيها اللتين تنطقان دوما بالطيبة والاباء والصدق .

وقالت بصوتها الحنون الهادىء :

« ومتى قدمت موسكو ؟ واعطته يدها ، واستنتلت وهو يقدم لها منديلها الذي سقط منها : « لك شكري وامتناني » .

قال : انا ؟ لم آت .. الا .. البارحة .. اعني اليوم .. وكنت انوي زيارتك ! » وكانه تذكر انه كان عازما على الاجتماع اليها ، فتضرج وجهه حياء !

وتالقت شفتاها بابتسامة ساحرة خالبة ، فمادت الارض تحت قدميه ، ولكنها انقذته فقالت :

« انا جد مسرورة بمجيئك ! »

فقال : « لم اكن اعلم انك ماهرة في التزلج ؟ »

فتمعنت في وجهه ، وكأنها تروم سبر غوره وما لبثت ان اجابت :
« ثناء علي ، له قيمته ، فكل امرىء يعرف انك امهر من تزلج في موسكو » .

فقال : « لقد استهوتني هذه الرياضة ، وملكت لبي ، لهذا عزمت منذ زمن على التفرغ لها والتمرس فيها » .

فاجابت ضاحكة : « كل ما يستهويك تصر على نقله كما ارى ، فهلم ، ضع في رجليك عدة التزلج ولنلعب معا » .

وفكر ليفين نتزلج معا ! أنا وهي ! هل اصدق سمعي !
وما عتم أن ذهب الى مكان استبدال الملابس . فرحب الخدم وجاؤوا اليه بما اراد ، وساعدوه على الاستعداد . ثم خرج الى الحلبة ، فدنا من كاترين بخضوع العبد ورقته . ولكن ابتسامتها شددت قلبه وعزيمته ، فامسك يدها وانساب معها على الثلج ببطء ثم بسرعة متزايدة .

وبرعت عينا الحسناء وجعلت تضغط على يده وتقول : « معك استطيع ان ابلد غيري ، فأنت حقا من امهر من تزلج . أما تراني كيف انساب دون وجل ؟ »
فاجاب : « وانا اشعر بالثقة وانت بجانبي ! »

وقد اثرت هذه الكلمات على الصلة التي تربط بينهما ، فهي ما كادت تسمعها وتفهمها حتى قطبت حاجبيها ، وفقد وجهها تلك المسحة الواضحة من الصداقة . ورأى ليفين ذلك ، فايقن انها تفكر ، فقال مترددا : « ائمة من يزعجك ! هل هناك ما يقلق بالك؟ » .
فاجابت بشيء من الجفاء :
« لا ، لا شيء البتة ! »
وصمتت ثم استنتلت :
« وهل تزمع المكث في موسكو طويلا ؟ »
فاجاب :
« لا ادري ! »
« وكيف لا تدري ؟ بين لي ما تقول ! »
« لا ادري متى ارحل ، لان ، رحيلي ، مسألة لا يبت فيها قبل التثبت من امرك !

واجفل .. وعجب لاقدامه على الافصاح عما يخالجه من مآرب واوطار ...

فلما سمعت الحسناء ذلك ملت فيه نظرة متاملة متفحصة ، وكأنها اجمعت امرها على تغيير الموضوع فقالت وهي تشير بيدها :

« هذه امي قادمة ، الم تراها »

وذعر الفتى ومد يده في شرود فصافح المراة الكهلة ، وحنى لها راسه، وهو لا يعلم ان كان قد جنى من تهوره خبرا ، وان كان اجدر به لو انعم النظر قبل ان يصنع ما صنعه حتى ترضى محبوبته ، فتقر لرضاها عينه وارتفع صوت الام يقول :

« ما ارى فيك الا الاجتهاد في الابتعاد والانزواء ، وليس لك في نفوسنا يا سيدي الا الشوق والاخلاص ! »

فاحنى راسه ثانية ..

واردفت وهي تنثني الى ابنتها : « علم يا كاترين ، فقد حان وقت الذهاب »

ثم عادت تحدث ليفين بلهجتها الجافة :

« واننا يا عزيزي نستقبل الضيف في يوم الخميس من كل اسبوع »

فقال : « يوم الخميس ! اليوم ... »

قالت : اجل اليوم ، واعلم اننا نسر بمجيئك ، ان طاب لك المجيء !»

وفكرت كاترين في امها وكلامها المقتضب ، فاشفقت على الشاب ، وقالت في دعة :

« ولن تسول لك نفسك ان تمتنع عنا ، فالى الملتقى اذن في بيتنا »

وهمت بالمضي مع امها ، الا ان ستيفان اوبلنسكي وصل في تلك اللحظة ، فتريثت الام وطلبت اليه ان يحدثها عن ابنتها زوجته .

فلم يجد الرجل بدا من كتمان ما شجن بينه وبينها ، وزعم لها انها على خير ما يرام وليس لها حاجة الى مزيد من سعادة وهناء .

وانبسطت اسارير المراة لما بلغها هذا القول ، فرمقت زوج ابنتها بنظرة الاعجاب والشكر ، وذهبت مع ابنتها مولية وجهها شطر البيت .

واتبعها ستيفان بعينيه ، فلما غابا عن بصره تابط ساعد صديقه ليفين وقال :

« لقد سمعت كلاما لم اصدق فيه كثيرا او قليلا .. »

وضحك مقهقها واردف :

« هيا بنا .. هيا بنا .. فلك علي حق الصديق ، ولي عليك حق الاطلاع على ما جرى وما سوف يجري !

* * *

ومشيا صامتين ، ثم استقلا العربة الى مطعم فخم ، ولجآه وانتبذا ركنا منعزلا منه .

ولاحظ ليفين وهما يدلفان الى المكان ان وجه صديقه ينم عن اضطراب فحدثته نفسه ان يستفسر منه عما يشغل به ، ولكنه ارجأ ذلك ، وجلس مع صديقه وطلبا من النادل ان يأتيهما بكاسين من الخمر . ثم ما عتما ان طلبا الطعام .

« هل تزمع الليلة الذهاب الى منزل كاترين شرباتسكي ؟ »

فاجاب ليفين : « اجل ، اني ذاهب ، مع انه تراءى لي ان الاميرة الام قابلتني بوجه منقبض ، ودعتني الى زيارتها »

« لا تعجل في الحكم ، فتلك عادتها ، تقطيب مزمن ، وانا الآخر انوي زيارة القوم ، الا اني سآتي متأخرا بعض الشيء .. والآن اخبرني ، كيف تسول لك نفسك مبارحة موسكو في المرة الاخيرة ، فما اكثر ما سالني عنك الاصدقاء ، وخاصة اسرة شرباتسكي .. وكنت اتهرب من الجواب لحيرتي فيما يكون الجواب ! انت نسيج وحدك في اطوارك واعمالك وافعالك ؟ »

« لا انكر ما جبلت عليه يا صديقي .. وعودتي الفجائية اليوم لابلغ دليل على شذوذي .. لقد عدت ، عدت من اجل .. »

فقاطعه اوبلنسكي : « لكم اغبطك على حظك المشرق ايها الصديق ! » وحدق الى عينيه .

« لماذا ؟ »

فقال اوبلنسكي ضاحكا :

« اعرف الجواد الاصيل من خطواته ..

واستطرد : « والفرصة متاحة لك فاقدم ؟ »

« وانت ، اولت فرصتك في الحياة ؟ »

« كلا ، بيد ان المستقبل لك والحاضر لي .. الحاضر ـ ماذا اقول ؟ قد تقع اعجوبة » .

« ماذا تعني ! اوضح ! »

« احيانا تنعكس الريح على حين غرة .. على اني لا ارغب في التحدث عن نفسي ، ولو اردت لما تسنى لي رسم صورة صادقة عن الحالة .. والآن اخبرني ما جاء بك الى موسكو ؟ »

فحدد الفتى طرفه في وجه اوبلنسكي واجاب :

« ألم تحزر منذ دقائق ؟ لقد اصاب حدسك ! »

« لا انكر اني علمت من الوهلة الاولى ماربك هنا ، بيد اني لم اتكلم ، لانك الغريق الذي يخلق به ان يستهل الكلام .

فاضطرب ليفين ، وصعد الدم الى راسه وقال :

« فما قولك اذن ؟ وكيف تنظر الى المسالة ؟ »

فجرع ستيفان اوبلنسكي ماتبقى في كاسه واجاب :

« هذا جل ما اتمناه ، اتمنى ان تبلغ وطرك »

فنظر اليه ليفين نظرة من غشية الامل والالم وقال متسائلا :

« اتمحضني كاترين الصدق ؟ اتبادلني المحبة ! »

« اني لك ما حض كل اخاء يا صاح ، فاطمئن الى : واعلم اني بامرك عليم ! »

« وهل يستوي لي الامر ؟ »

« لا تتطاير ، فكل شيء جائز في الدنيا »

« لا تتعلق بخيوط الاوهام ، بل اخبرني صراحة ، هل تظن اني لن ارجع بخفي حنين ! هل ترجح القبول ؟ لشد ما اخاف الرفض » .

« ترهات ... »

« كلا ، كلا .. بل ان الرفض يضيرني ، وهو كذلك يحمل الاذى لها » .

« ولم ذاك ؟ وهل تضار الفتاة متى كثر الراغبون في زواجها ؟ »

قد ينطبق ذلك على سائر الفتيات ، اما هي .. فلا .. لا ..

وابتسم ستيفان .. وقرأ افكار ليفين ، وايقن ان العاشق المتيم يقسم فتيات العالم الى قسمين : القسم الاول ، جميع الفتيات الاهما ، وهن متصفات بالضعف البشري ، والخور ، والقسم الثاني : هي وحدها ، القوية !

واستطرد ليفين يقول :

« واعلم ان المسألة ، هي مسألة حياة او موت بالنسبة لي . ولم يسبق ان بحت بسري لاحد قبل اليوم ، الا لك وحدك ، نحن ضدان في الطبع والعادة الا اني موقن بانك تحبني وتفهمني ولهذا تراني كلفا بك واناشدك الله ان تصدقني القول ، كن صريحا معي ! »

فقال اوبلنسكي ضاحكا : الم اكاشفك بما اراه واعتقده ؟ وازيدك الآن فالبتك ان زوجتي امراة مدهشة . ولها القدرة على التكهن بما تأتي به الايام ، انها ترجم بالغيب وخاصة فيما يمت الى امور الزواج .. وهي تظاهرك الآن وتتحمس لك » .

« اوضح ، اوضح .. »

« انها تميل اليك ، كاترين ستكون لا محالة زوجتك »

فانبسطت اسارير ليفين ، ولكنه كتم ما داخله وصاح بصوت متهدج منفعل :

« هذا ما تقوله ؟ انني دائما جهرت برايي فيها ـ في زوجتك ـ انها امراة رائعة مثالية » .

ونهض واقفا ، وجعل يذرع ذلك الركن جيئة وذهابا ويقول :

« واعلم ان ما اشعر به ليس حبا ، انه قوة خارقة استولت على مشاعري ، واحاسيسي ، وارادتي .. وقد اختفيت من موسكو ظنا مني بان ما اتطلع اليه هو الثريا . وخلفتني الذكرى حليف عراك ممض .

* * *

واغرورقت عينا ليفين بالدموع ، فقطع حديثه حتى يكفكفها ثم جلس ثانية ازاء صديقه واستغرق في الفكر .

وتململ اوبلنسكي في مقعده ، وقال بصوت هادىء رصين :

« ولا بد من ان تطلع على جميع الامور يا ليفين : فهل لك سابق معرفة بالشاب « فرونسكي ؟ »

« كلا ، لا اعرف ، فمن هو ؟ ولم السؤال ! »

« لان في نفسه حاجة .. لانه طالب زواج .. بصره وقلبه مطمحهما كاترين » .

واستحال وجه ليفين في مثل لمح البصر من النضرة والدعة ، الى الامتقاع والاحتدام والتوعد حتى ان ستيفان بهت مما راى ، وسارع يقول: « وهو نجل الكونت « ايفان فرونسكي » ـ فتى غرائق يشده مرآة الناظرين

وهو كابيه جواد لا ضهي له في بطرسبرج ، وقد تقابلنا في « تفير » . ونفوذه لا يقارنه نفوذ في البلاد ..وتقدمه في مضمار السياسة والمراتب العليا امر لا يشك فيه انسان ! »

فخفق قلب ليفين ولكنه لم يحر جوابا ، بل اخلد الى الصمت مفكرا .

واستمر ستيفان اوبلنسكي يقول :

« وجاء عقب رحيلك الى موسكو ، ففتنته الغادة واستولت على لبه. وهو الآن غارق في حبها ، وانت تعرف ان امها ... »

فقاطعه ليفين : « كلا لا اعرف شيئا ! »

لا تسلم امرك لليأس ، فما كان لي محيص عن كشف النقاب عن جميع ما اعرف ، حتى تكون على بينة من امرك ، فتتصرف تصرف العارف الملم . وانا ان اردت ان تسمع مني رايي ، اعتقد يقينا ان كفتك هي الراجحة ... »

واتم اوبلنسكي :

« وازجي اليك النصح في المبادرة الى اتمام الامر ، الليلة.. الليلة..»

« شكرا .. لا اريد ان ازيد ، حتى لا تصعد صورة الشراب الى راسي . هلا اخبرتني عن نفسك شيئا ؟ تكلم ايها الصديق ، قل لي اخبارك » .

فلم يكترث اوبلنسكي بكلماته التي اراد منها تغيير دفة الحديث ، بل انشا يقول :

« اجل ، انصحك بالتقدم الى امها في طلب يدها دون ان تؤجل المسالة الى الغد ! »

فقال : « الا تاتي الينا في الربيع للتمتع بمباهج الريف ومزاولة الصيد الذي حبستك عنه شواغلك ؟ » .

ولا شك انه ندم كثيرا على اطلاع ستيفان اوبلنسكي على سره ، وخيل اليه الزهو ان كرامته قد جرحها وجود منافس له في حب كاترين .

وفطن ستيفان الى ما دار في خلد صديقه من عوامل الندامة ، فتبسم وقال :

« وسوف آتي في احد الايام ، غير ان النساء يا عزيزي هي المحور الذي تدور حوله الدنيا بأسرها ، وعقدي في الوقت الحاضر كثيرة ، والسبب في كارثتي هي المراة .. »

واشعل ستيفان سيجارة واستطرد يقول :

« هب انك رجل متزوج ، تحب زوجتك ، ولكن امراة اخرى تستولي على قلبك » ..

فعارضه ليفين قائلا :

« اصفح لي ان اعترضت عليك ـ فاني لا استطيع ان استوعب ما قلت الان » .

فبرقت عيناي ستيفان اوبلنسكي اكثر من المعتاد وقال :

« ان زوجتك تتقدم في العمر ، انها تفقد رونقها ، وتخلف فتنتها ورائها ، بينما تحتفظ انت بحيويتك ورغبتك وشهوتك .. وقبل ان يسمح لك الوقت بالالتفات الى الخلف ، تشعر بانه يتعذر عليك مبادلة زوجتك الحب ، وعلى حين بغتة يتغلغل الحب من جهة ما الى قلبك .. وتلم المصيبة ! » .

و تنفس ستيفان الصعداء من شدة الكرب واستطرد : « لقد قضي عليك اذن متى وقعت ، فما العمل ؟ » .

فقال ليفين بابتسامة عابسة :

« لا تسرق الخبز ! »

فاستغرب ستيفان ضاحكا وكانه نسي مصيبته ، وقال :

« لا تلجئني يا ليفين الى مبادلتك بدعابة ، فالموقف يستوجب الروية هناك امراتان ، احداهما تطالب فقط بحقوقها ، وهذه الحقوق هي حبك الذي لا تستطيع ان تتبرع به لاي كان والاخرى تضحي كل شيء من اجلك ، ولا تطلب منك شيئا فماذا يا ترى تفعل ؟ ان في هذا الامر ماساة » .

« لو عبئت براي ، فاني اقول صراحة ان لا وجود لهذه الماساة ، ان الحب بحسب وجهة نظري .. الحب المتفرع الى فرعين الذي يضعه افلاطون كمحك الرجل لا يفهم فرعيه احد ، بل هناك فريق يفهم هذا وفريق يفهم ذاك .. اما اولئك الذين لا يعترفون بالحب الافلاطوني المجرد ، فليس لهم ان يتكلموا عن الماساة ووجود الماساة لانه لا يعوزهم اكثر من بضع كلمات يقولونها في مجال الترضية والاسترضاء ، كان يقولوا للمراة المنكودة :

« لك منا ابلغ شكرنا ، فقد يسرت لنا متعة ولذة وشهوة ! » .

« وكذلك لا ينطوي الحب الافلاطوني على الماساة ، لانه حب نقي ، طاهر خال من الشوائب ، ومثل هذا الاحساس المصفى لا يمكن للماساة ان تتغلغل اليه ، او تترعرع فيه ! » .

واسترسل الاثنان في الفكر ، ولا ريب انهما بالرغم من الصداقة الوثيقة العرى التي تربط بينهما ، شعرا بالابتعاد والتنائي ، بل خيل الى كل منهما ان الاخر غريب لم يره من قبل وانه ذو مطامح ومطامع وميول .

ولم يجدا مندوحة في نهاية الامر ، وقد ضاقا ذرعا بالصمت الا ان يبرحا المكان ابقاء على ما ربط بينهما من الفة .

* * *

لا يختلف اثنان في ان كاترين شربانسكي زهرة اكتمل طالعها وسطع عبيرها ..

وما كانت امها لتصدق ، لولا وقوفها من المجتمع عن كثب ، ما لاقته كريمتها من اعجاب في الوسط الراقي ، فما من شاب في موسكو الا وزاره طيفها مرارا .

وسرعان ما برز الى الامام شابان من خيرة الشباب ، هما ليفين الشاب القوي الجاد ، والكونت فرونسكي المترف الانيق .

ولم يكن ليفين من رهط اللهو ، بل كان طالب مصاهرة .. فما كاد يظهر رغبته في تردده على بيت كاترين ، حتى فطن ابواها الى اكتمال انوثتها ونضوج جمالها ، وحتى آلى كل منهما ان يبحث عن اكرم صهر ، لتسدوم بذلك سعادتها !

الا ان رغبتها تشعبت ، وامر زواجها من الرجل الافضل اثار بينهما عاصفة من الشجار والمشاحنة .. فالاب يميل كل الميل الى ليفين ، ويرى فيه مثال الرجل الصالح الكريم .. والام .. هي الام .. وقبل ان تكون كذلك ، هي امرأة .. ومن عادة المرأة ان لا تستقيم على امر ، بل من شانها ان تماطل وتسوف وتتردد .

فكرة تقول : ان كاترين طفلة لم تبلغ طور الشباب ، واخرى تزعم ان ليفين محتار في امره ، يقدم ثم يحجم ، وان كاترين لم تظهر نحوه اي حب

وقد جابهت زوجها اخيرا برفضها ، واخبرته صراحة ان اخر زوج تتمناه لابنتها هو ليفين !

ودرى ليفين بما شجر من خلاف بين الزوجين بسببه ، فارتحل عن موسكو وكان رحيله البشير بزوال الغمامة التي ظللت سماء البيت السعيد ردحا من الوقت ولم تكتم الام فرحتها .

ولما بزغ نجم الشاب فرونسكي في موسكو ، وغدا مطمح انظار الحسان

تضاعف ارتياح الام الى ذهاب ليفين ، وجعلت تحتفي بفرونسكي وتظهر له الشيء الكثير من ضروب المودة .

فمن الذي يجرؤ على مقارنة بينه وبين ليفين ؟

كان ليفين خشنا ينفر من الناس ، ويبتعد طاقته عن المجتمع .. كان يعني بسائمته اكثر من عنايته بالناس . وكانت حظائر الخنازير ادعى لهنائه وراحته من ردهات الاستقبال !

ثم ، هل عزم على امر ، هل تقدم طالبا يد كاترين ؟ كلا . لم يفعل شيئا من هذا القبيل ، مع انه غشي منزلها اسابيعا واسابيع .. لقد تردد كثيرا ، وكانه يضمن عليهم بهذا الشرف ، وكانه يعتبر نفسه اعلى مرتبة منهم .. وكانه لا يريد ان يفهم واجبه الذي يفرضه عليه العرف والعادة .

وعلى حين فجاة يلوذ باذيال الهرب ـ يفر من المدينة ، لخوف غشيه من كاترين وعائلتها .

وعلى نقيضه كان فرونسكي ـ فهو في رايها الشاب السعيد الذي رزقه الله من العقل افضل الحظ . وبلغ الرتبة القصوى بافعاله وخصاله ! وقد انطبعت في ذهنها صورة رائعة له كزوج لابنتها . وهو فوق هذا ضابط رفيع في البلاط ، ومستقبله في المجال العسكري يبشر بكل تقدم .. وحدث ولا حرج عن حسن طلعته واناقة مظهره .. وهذا ما ترغب فيه المراة وتتوق اليه !

ولما فرغت مما ارادت من تكوين الراي ، بدات تنظر اليه نظرها الى صهرها وتظهر كثيرا من ضروب الحفاوة والسرور ، لما جاء زائرا ، فتحيطه بعنايتها ، وتمهد له سبيل الخلوة بابنتها .. وقد وقعت كاترين في قلبه موقعا حسنا فهو لا يفارقها كلما اجتمعا في حفل ، وهو لا يراقص سواها ، وهو ينظر اليها نظره الى سيدة محترمة جديرة بالتقدير والتبجيل ، خليقة ان يتخذها الانسان له خليلة .

واستبشرت الام ساعة لمح لها الشاب برغبته . ولم يقل لها مباشرة انه يهوى ابنتها ويود لو بنى عليها ، بل قال من الكلام ما فهمت من فحواه انه يصبو الى تحقيق هذه الامنية .

فقد انتهز فرصة انشغاله بالحديث مع الفتاة ، فقال لها بانه لا ينقض راي والدته ، بل يستشيرها في كل صغيرة وكبيرة ، وان والدته ، آتية عن قريب الى موسكو ، وسياخذ رايها في امر على جانب عظيم من الخطورة !

اليس هذا من قبيل التلميح ؟ الا يعني بكلماته انه تواق الى مباحثة امه في امر زواجه من كاترين ؟ !

ولم تحدث كاترين مغزى كلماته ، بل انها نقلت عبارته لامها ، فما كان منها الا ان مدحته واطرت شمائله وصفاته .

ولهذا ، فلما رجع ليفين الى موسكو حتى تولى الام قلق وانزعاج ، وآلت ان تحول بينه وبين كريمتها ، حتى ولو قدر ان يجمع لها بين شرف الدنيا والاخرة !

وقد جرى الحديث التالي بين الام والابنة اثناء اوبتهما من حلبة التزلج ! قالت الام متسائلة : « ومتى عاد ليفين ؟ هل تثبت من امره ؟ » .

انه جاء موسكو اليوم يا اماه .

« ثمة شيء اود ان اطلعك عليه .. »

فقاطعتها الفتاة ووجهها يتضرج حياء : « اماه ، ارجوك ان لا تقولي شيئا ، فانا اعرف كل شيء ! » .

كانت رغبتها متفقة مع رغبة امها ، المنها . وقالت الام : « وددت ان اقول ان بعث الامل .. »

« ارجوك ، ناشدتك الله ان لا تفعلي ، فالتكلم في هذا الامر يكربني ! » .

« لا تراعي يا حبيبتي ، لا تبكي ، فلن اتكلم مع انك طالما اكدت ان لا يكون بيننا سر مكتوم » .

« كلا ، لن يحول بيني وبين قلبك امر يا اماه ، ولكني لا اعلم ماذا اقول ، ولو شئت الحديث لجهلت من اين ابدا ، ولو خيرت بين امرين لاحترت ولم اختر ! » .

انها صادقة . وابتسمت الامير الام وهي ترمق ابنتها بنظرة المحبة والاعزاز وتفكر فيما هي مقدمة عليه من زواج ، داعية الله فيما بينها وبين نفسها ان يشمد امامها طريق السعادة والسلام .

* * *

بعد العشاء وفي الفترة التي سبقت الحفلة الساهرة كان شعور كاترين اشبه بشعور الجندي المقبل على المعركة . وايقنت ان مستقبلها سيقرر في تلك الليلة متى التقيا ـ متى التقى الشابان ـ فالتقاؤهما في صعيد واحد هو كما ايقنت نقطة التحول في حياتها ..

وارتعشت من الهلع ، وانشأت تفكر في كل منهما على حدة وتقابل بين الندين .

واثار ليفين حنانها وعطفها ، فهو صديق قديم ، صديق مخلص حميم وان لم يتماد الشعور نحوه فيخترق نطاق الشفقة والرثاء ، والتأسف على شيء لا تكهن حقيقته .

اما فرونسكي فقد علق قلبها بغموضه ، ولعل وراءه وحسن ديباجته خلقا في مخيلتها البكر نوعا من الاعتقاد الراسخ بأنه قادر على اسعادها ، فهو كما تراءى لها قد اجتمعت فيه خصلتان حميدتان ــ الجمال والكمال ــ وبهاتين الخصلتين يستطيع ان يركن الى حياة رضية رغيدة .

وصعدت في السلالم الى الطابق الثاني لاستبدال ملابسها استعدادا للحفلة . فلما نظرت الى نفسها في المرآة ، رأت السرور مستحوذ عليها ، انها في احسن حالاتها ، مطمئنة الى قوتها وارادتها ــ وهي في مسيس الحاجة الى العزيمة التي تخرج سالمة القلب والاحساس من معركة الليلة المعركة الفاصلة بالنسبة لها ولمستقبلها !

وما كادت تهبط الدرج في السابعة والنصف حتى اعلن الحاجب قدوم ليفين . ولم يكن في القاعة احد سواها ، ولم يكن لها ندحة من استقباله .

وما كان لها صديقة محضتها ثقتها ، واصطفتها لمشورتها ، ولهذا اتجهت نحو الضيف ، ثم وقفت مترددة في منتصف الطريق ، وقد آلمها ما شعرت به ــ آلمها ان تقرر مشاعرها الخفية ان الشاب المقبل نحوها ان يفوز منها بطائل .

ونظرت اليه بعينين متضرعتين ، ولكنه لم يفقه لغة اللحاظ بل مد لها يده مصافحا ، وقال :

« المعذرة ان بكرت في الحضور ، ولكني لم اجد ما يشغلني عن الشوق . . » .

وتلفت حوله في قلق ، ثم اردف : « واني وايم الحق تمنيت ان اجدك وحيدة ، ولست في شك من انك ستصغين الى ما اقول حتى النهاية . . » .

وتململ في مكانه قلقا مضطربا . وقالت كاترين بصوت متهدج :

« لن تلبث امي ان تأتي يا سيدي ! » .

وتضرج وجهها ، واطرق هو برأسه . وقال بعد جهد :

« واعلمي ان مقامي في موسكو يطول او يقصر تبعا لموقفك » .

وسرت قشعريرة باردة في جسمه كيف تجاسر على النطق بهـــذه الكلمات !

وغضت كاترين من طرفها ، واختلجت اهدابها في انفعال وحيرة .

واردف بعد ان استعاد رباطة جاشه :

« اجل اود ان اقول .. باني .. ان اسالك عن شخصي لو تقدمت اليك بطلب الزواج ! هل تقبلين بي ؟ هل توافقين ؟ » .

وظهر عليه فجاة وجوم من اشتد همه ولكنه ظهر عليه ايضا الارتياح لما قام به واداه ، وما عليه الان سوى انتظار الجواب ، فاما القبول واما الرفض . فان اجابت بالقبول طابت نفسه ، وان ردته خائبا داخله من الشقاء ما ينتزعه انتزاعا من موسكو !

والجم لسان كاترين ووجم قلبها ، وداخلها من الذعر ما شل حركتها وكبل ارادتها .

وطغى عليها على حين غرة شعور عجيب من الاعجاب والسرور والزهو .. ثم رفعت اليه طرفها مخضلا ، فاذا بوجه فرونسكي يحجب وجه ليفين عن ناظريها واذا بخياله الجميل يرنو اليها متسائلا واذا بها تتمتم بجذع : « لا .. لا .. » .

وجمجم المسكين دون ان ينظر نحوها : « ان الفشل ماخوذ دائما بفشله ، ان عاثر الحظ لا يخطئه الاخفاق ... وهذا كان منتظرا » .

واحنى هامته باحترام ، وتحول عنها وهو يجرر وراء ساقيه المرتعشتين اذيال الخيبة ، لكأنه كان يتحامل على نفسه حذر الانهيار !

ولكن دخول الام في تلك الهيئة ، واقترابها منه ، جعله يتريث مستمهلا ويتماسك متجلدا . وصعدت الام عينيها في الشابين متوجسة ، ولكنها ما عتمت ان انبسطت اساريرها ـ فاماثر الفتى تدل على انه لم يحظ من ابنتها بطائل ، وتقاطيع الفتاة تشير الى انها لم تقض له من مآربه وطرا .

ولقد استجابت لها كريمتها واتخذت من مثالية فرونسكي نبراسه تسترشده ! وها هي تضع حدا لاحلام ليفين ، وتفهمه صراحة انها لن تكون له .. فنعم الابنة ابنتها !

وسرعان ما بشت له حين حياها ، وطلبت اليه بلطف ان يجلس ، ثم اقبلت عليه تسأله عن حاله ، وتستوضحه امور القرية ، وما يفعله هناك ، وما يقوم به من نشاط .

واقتضب ليفين اجوبته ، وان حاول جاهدا ان لايكون جافا في مقالته.
وما مضى من الزمن ساعة حتى توافد المدعـوون والمدعـوات ، وفي مقدمتهم النبيلة « الكونتس نوردسون » .

وهذه المراة ، نصف بين النساء ، وهي نحيلة ، قيمئة ، حادة الطبع ومتوترة الاعصاب كلفت بكاترين وآثرتها بحبها ، حتى ان شوقها الى ضمان المستقبل الزاهر لها فاق شوق امها . وكانت تشايع فرونسكي وتحقد على ليفين « لهذا كرّهت كاترين بالاخير ، حتى نفر قلب الفتاة وخشيت الاقتراب منه ناهيك عن الاقتران به . ولولا ما حظره الادب عليها من معاملة النـاس بالقسوة والشدة لما تورعت كاترين عن مجابهة ليفين بما لا يحب في حلبـة التزلج ! لقد اثرت عليها هذه المراة تاثيرا كبيرا ، ولا غرو ، فالمراة متـى مقتت كادت واوقعت .. وقد مقتت هذه المراة ليفين ، فالت ان تقهره .. وطالما رددت :

« اعجب بنا من ندين لا نجتمع ، هو يكرهني وانا ابادله البغض ، واجد فيما يعتمل في صدرنا من نزع الكريهة والوجود كثيرا من المتعة واللهو » .
اما ليفين ، فلم يكن يمقتها ، بل كان يحتقرها ، واحتقاره لها كـان لغرور ركب رأسها فأعماها عن حقيقتها وحقيقة سواها من الخلق .

فما كادت تبصر به في تلك الليلة حتى طابت لها الشحناء ، فهاجمته متجهمة وهي تصافحه ، وقالت :

« أراك رجعت الى « بابل » بعد ان هجرتها ونأيت عنها . فماذا حداك على الرجوع ؟ ماذا حفزك الى طرق ابواب « بابل الفاسدة » ـ وكان ليفين يشبه موسكو ومباذلها ببابل وفسقها فهل تغيرت بابل هل اصلح من شأنها المصلحون ؟ أم هل تدنيت انت حتى اصبحت في مستوى اهلها الفاسدين ؟!» .
وكان ليفين فيما مضى قد فند آراء هذه المراة الدعية ، وظاهر اهـل الريف ، فلما جابهته الكونتس بهذه الكلمات علم انها تحاول النيل منه على رؤوس الاشهاد ، فلم يزد على ان قال :

« لعا يملؤني زهوا ان كلامي راسخ في مخيلتك يا سيدتي » .
واعرض عنها ، كانه لا يرغب في متابعة الكلام . واسترعى انتباهه في تلك اللحظة ضابط وسيم انيق يدلف الى القاعة بخطوات متزنة قوية .
وانباه حسه ان الشاب هو منافسه في كاترين . وايقن من ذلك عندما قابلته كاترين بوجه طلق ، واقبلت عليه تحييه وترحب به . وقارن بين

مقابلتها له ومقابلتها للضابط ، وادرك ان كاترين تحب فرونسكي ، وان أمله قد انطفأ شعلته الى الابد .

وتاهب ليذهب ، وتحرك من مكانه حتى يهرب من الجنة التي انقلبت في مثل غمضة عين وفتحتها الى سعير متلظي النيران . ولكنه عاد فكتم ما في نفسه وعزم على اطالة مكثه ، ولو على مضض ، حتى يشاهد ما يجري عن كثب وحتى يلم باحوال نده ويعرف المزيد من امره ..

واذا هاجت الاحزان في قلب امرىء ، واضحى الانسان احيانا خسيسا لا يرى الا السيئات والنقائص ، اماالفضائل فتصبح كالقذى في عينه كلما لمسها في غيره .

بيد ان ليفين كان من طينة اسمى ، فهو لا يرغب في التعرف على مواطن الضعف فحسب ، بل يود من صميم فؤاده ان يتحسس مكامن القوة في انسان غيره ، مهما تنافر في المزاج والطبع والهدف .

وحار ليفين في امره فالاشفاق يثبط عزيمته ، والشوق الى من خيبت رجاءه ينشط ذهنه .

وقد نظر بتمعن الى غريمه ، فالفاه شابا كامل الرجولة لا ينقصه منها منظر ولا ارادة .. والقى في روعه ان هذا الفتى لا يميل كغيره من ابناء الطبقة المترفة الى تكلف ما ليس فيه ، فهو يتكلم مع الجميع بلهجة واحدة وابتسامة واحدة ، وهو يضافح الجميع بطريقة واحدة .

وتوغر صدر ليفين وهو يرى هاتين الفضائل ، الا انه لم يمقت غريمه بل استمر يراقبه بانتباه .. وقد رآه يقبل على الاميرة المضيفة فيصافحها بحرارة ثم يعطف على كاترين ابنتها فيبادلها بعض الحديث ، ويضحك هو وتضحك هي ، وتختلس نفس ليفين ! وجلس فرونسكي في مقعد خال ، دون ان يتلفت الى ليفين او يشعر بوجوده الا ان المضيفة تنبهت فجاة الى ما يجب عليها عمله فاسرعت تقول :

« لقد سها عن بالي تقديمكما الى بعضكما البعض » .. واومأت الى ليفين ، واستتلت : « الكونت فرونسكي » « الكونت ليفين ! » .

وانتصب فرونسكي واقفا ، وحدا ليفين حذوه ، وتصافح الشابان ، واحنيا راسيهما قليلا . ثم قال فرونسكي ووجهه يطفح بشرا :

« كنا سنجتمع في هذا المنزل على مائدة الاميرة ، بيد ان رحيلك المفاجيء في ذلك الحين حبس عنا نفحة رؤياك ! » .

فقال ليفين : « وهذا من بواعث اسفي ، الا اني اضطررت يومذاك الى السفر .

قال : « وردت ولا شك ارضك في الريف يوم ظعنت عن موسكو ، واخال كل شيء في الحياة مملا مضجرا ، هذا اذا مكث الانسان واقام بصورة دائمة ، وخاصة في فصلي الشتاء ، يوم يهبط القر وتتساقط الثلوج » .

قال : « ان للسعادة مهابا مختلفة ، وسعادة القربة في العمل والدأب ومن يعمل هناك لا يداخله السأم » .

قال : « ولا اخيفك اني احب الحياة الحرية في القرية الساكنة الهادئة المتحررة من القيود » .

وحانت من الكونتس نوردسون لفتة ، وسنحت لها فرصة القول فراحت تخاطب فرونسكي : « وهل تسول لك نفسك المكث في الحقل ؟ هل تستطيع ان تبقى هنا يا كونت فرونسكي لا تبرح ولا تريم ؟ » .

فأجابها الشاب وهو يهاجمها بطرف مستطلع : « هذا سؤال يستعصي الجواب عليه ؟ فما نزلت في الريف الا لماما ، وكلما قصدته زائرا ، والممت به عاملا ، اقمت ردحا قصيرا .. واصدقك اني لم اعرف مذاق الريف في روسيا ، ولم اتعلق به الا بعدما قضيت في « نيس » شتاء العام الماضي .. هناك استطعت ان اقارن وهناك استطعت ان ارى الحقيقة واعلم ان ربغنا جنة نعيم ؟ » .

قال : « نيس مدينة صغيرة موحشة ، ولا تقر العين بملازمتها زمنا طويلا . واصدقك ان ربغنا امتع منها وابهج من سواها من المدن ، كنابولي مثلا .

وازدلفت كاترين في تلك الاثناء الى المكان الذي وقف فيه ليفين ، ونظرت الى وجهه المنقبض ، والتقت العيون فجاة ، فبرز من عينيه اسى بالغ ، ونطق لسان عينيها فقال :

« الا اصفح .. اغفر .. لقد تحققت الامال فلا تزجر ، ولا تنقم . » .

واجابها ليفين ، اجابها باللحظ ايضا فقال :

« الا تبا ! لقد جر علي حبك الغصص ، وكرهني الحيـــاة .. فانا ابغضك ، وانا امقت نفسي ، وانا اكره الدنيا قاطبة ! » .

وتشعبت الاحاديث وتفرعت ، وطفق القوم يتبادلون الكلام من الحفلات الراقصة ، والصيد والقنص ، ثم عرجوا على الحفلة الساهرة التي يزمع

ان يحييها آل شرباتسكي بعد ايام قليلة لا تتجاوز الاسبوع .
واغتنم ليفين انشغال الضيف عنه بأحاديثهم ، وتسلل خارجا بعد ان استأذن ربة الدار بالذهاب !

* * *

ولما ولى قطع كبير من الليل انفردت كاترين بامها فاطلعتها على ما كان بينهم وبين ليفين . ولم تكن الحسناء مغتبطة او مبتئسة ، بل ان احساسها كان يضطرم بنار الانفعال ، فهي تسمع لاول مرة في حياتها عرضا للزواج ، وممن ؟ من شاب تتمناه اجمل الغيد — من ليفين النبيل الثري .
ولما لاذت بفراشها جفاها الكرى فجعلت مضجعها هاجسة بما يعتمل في صدرها ، وقد لاحقها وجه ليفين ، فهي لا تغمض عينيها الا لتراه ماثلا في مخيلتها ، وهي لا تفتح تينك العينين الجميلتين الا ليظهر لها وجهه الحزين القانط . .
واجتاحتها موجة عارمة من الحزن ، وانهمرت الدموع من مآقيها غزيرة بيد انها ذكرت بالشاب الاخر الذي ضحت بليفين من اجله فاشرق وجهها فجاة بنور السعادة ، وجفت مدامعها ، وطفقت تتخيله بقامته المشوقة ووجهه الجميل ونبرته النافذة القوية .
وطغى عليها في هذه الهداة سرور عظيم ولكنها شعرت في قرارتها ان سرورها هذا يشوبه الم غامض وكأنه السم في الدسم .

* * *

في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي ، استقل فرونسكي عربته من محطة السكة الحديد ليكون في استقبال والدته وكان اوبلنسكي اول رجل صادفه هناك . وكان الاخير ينتظر مقدم شقيقته في القطار نفسه .
فلما رآه اوبلنسكي هتف قائلا : « من تراك تنتظر يا كونت ؟ » .
فاجابه فرونسكي والابتسامة لا تفارق فمه :
« امي . . انها قادمة من بطرسبرج ، وستصل اليوم في قطار الصباح » .
« لقد بحثت عنك البارحة ، فالى اين ذهبت عقب مغادرتك منزل آل شرباتسكي ؟ » .
« توجهت الى البيت ، لاني لم اطمع في المزيد . . فقد صدفت هناك ما

ملأ قلبي وحسي قناعة ورضا ، حتى لم اشعر بالميل الى مواصلة ما انقطع من متعة من مكان آخر » .

« هذا جميل .. » وابتسم كما ابتسم في وجه ليفين ساعة اطلعه على كلفه بكاترين ، وما لبث ان صعد فيه طرفه وابتدره بنفس الكلمات التي قالها لليفين :

« اعرف الجواد الاصيل من خطواته .. والعاشق اعرفه من عينيه ولسانه » .

ولمعت عينا فرونسكي وافتر ثغره ، وما ابطأ ان قال بلهجة تشف عن طيبة قلبه وسلامة طويته . « اشكر لك صراحتك ، فانت كريم ، انت حميم ، قريب الى القلوب » ...

واستلى كأنه يتعمد في امر آخر :

« ومن من الناس تنتظر في هذه الساعة ؟ » .

« اني في انتظار مليحة بين النساء ؟ » .

فشده فرونسكي وتساءل قائلا : « تستقبل امراة ! ومن هي يا ترى ؟ » .

فضحك اوبلنسكي حتى بانت نواذجه واجاب :

« الريث ، الريث يا صديقي ، فالمراة التي انتظر هي شقيقتي « انا » .

« انا كارنينا ؟ » .

« اجل . الك بها سابق معرفة ؟ » .

فقال فرونسكي وهو يحاول ان يستعيد الى الذاكرة امرا غامضا يتعلق بهذه المراة : « قد اعرفها ، لا اذكر ، قد اعرفها ! » .

« على انك تعرف من غير شك ، زوجها « اليكسيس كارنين » ومن لا يعرف الرجل ؟ انه اشهر من ان يعرف » .

« اصبت ، كلنا يعرفه ، وقد سمعت به ، ورايت وجهه ، وهو لا غرو رجل له مكانته الرفيعة ، كما انه حائز على احترام الناس وتقديرهم » .

« ما دمنا قد خضنا في حديث الناس ، فهل قابلت الليلة البارحة صديقي ليفين ؟ » .

« قدمنا الى بعضنا البعض ، بيد انه ما ابطأ ان غادر الحفلة خلسة في ساعة مبكرة » .

« انه نعم الصديق ، وهو فوق ذلك اديب اريب ، واخالك توافقني على نظرتي اليه ، ورايي فيه » .

« لم اكوّن عنه رايا بعد ، غير انه كما تراءى لي ، ينأى بجانبه عن المجتمع ، ويزود عن الناس ، ولايكاد يخالطهم حتى يعلمهم ! ثم انه عصبي المزاج ، يحتدم غضبه سريعا ، وينزو به الانفعال ، اليس كذلك ؟ » .

فتفرس اوبلنسكي في الشاب متفحصا وما لبث ان قال :

« قد يكون ذلك ، وقد تكون مخطئا فيما ذهبت اليه من راي .. وفي ذهني عنه راي اخر ، ولا شك قط في انه كان البارحة على مفترق طرق ، وان سعادته وشقاءه كان كل منهما في كفة ميزان .. لقد لعب القدر لعبته ، ولست ادري حتى الان ماذا اصاب ليفين من خير القدر او شره ! » .

فالتفت اليه فرونسكي ، وحدجه بنظرة حادة مستشفة وقال دون تحرج :

« افصح عما يخامرك .. اكاد ليفين من الصابين الى بلوغ وطر الزواج من كاترين ؟ وهل عول البارحة على طلب يدها ؟ » .

قال : « قد تكون مصيبا ، وانصرافه قبل سواه دليل دامغ على اخفاق مسعاه .. يا للمسكين ! انه متيم بها مولع بحبها ، ولا جرم ان خيبته كانت طعنة نجلاء اخترقت سويداءه .. اني ارثي له ! » .

فقال فرونسكي بصوت متهدج :

« انه اقدم على اعظم خطب ، فكاترين تستأهل زوجا لخيرا منه .. ولكن ما لي اسرع في الحكم ومعرفتي به سطحية لم تزد على التحية وتبادل بضع كلمات ؟ ان القطار مقبل من بعيد ولن يلبث حتى يلج المحطة » .

ومزق الفضاء في تلك الفينة صفير شديد ، وهدرت الالة ، واهتزت الارض تحت عجلاتها ، ودلف القطار الى المحطة مستأنيا وهو ينفخ دخانه كالمتعب ، وقد علا القاطرة بعض الجليد ، كما كلل راس السائق ومعاونه وجعل المسافرين يترجلون زرافات ووحدانا ، وطفق فرونسكي يتأمل فيهم وهو موزع الفكر ، ولا شك ان فكره كان منصبا في تلك اللحظة على الحسناء الفاتنة التي سلبت لبه وملكت قلبه .

ونسي امه ، وغاب عن باله انها قادمة من موسكو ، وداخله سرور غامض ، هو نتاج شعوره بنشوة الظفر دون ليفين بفتاة احلامه . على ان هذا السرور قد يكون مرده الى امر آخر ـ الى سر مكنون لم يتمخض عنه الغيب بعد !

ونبهه الى نفسه صوت ضابط من ضباط الحرس يخاطبه قائلا :

« كلفتني والدتك ان انبهك الى وجودها في تلك المركبة يا سيدي .

وارجعته كلمات الضابط الى عالم الحقيقة . ففكر بأمه ، ولكنه لم يشعر بالشوق اليها ، فهو في قرارته يحترمها ! وهو دون ان يعترف بذلك لم يكن يمحضها الحب ، مع انه في الظاهر ، وبين الملأ ، وامام نفسه ، كان يحترمها اعظم الاحترام ، ويلبي طلباتها بسرعة ، ويصدع بأمرها ، على انه كلما زاد احترامه لها في تصرفاته واعماله ، قل احترامه لها وحبه لشخصها كامه ، في اعماق قلبه !

واوما الشاب للضابط شاكرا واتجه نحو المركبة ، ولكنه تريث لدى الباب ، حتى يفسح المجال لسيدة كانت تهم بالهبوط .

وادرك للوهلة الاولى ان هذه السيدة تنتمي الى علية القوم ، وانها من الصفوة المختارة ، فالنعمة بادية على ملامحها تنم عن رخاء وترف وذوق سليم .

واحنى لها راسه وتمتم بكلمة اسف ، ثم رفع ساقه ليصعد ، ولكن حافزا غامضا ارغمه على الالتفات ـ لا لانها كانت فاتنة جدا ، ولا لانها كانت ذات بهاء ورواء ، بل لان شيئا فيها كان يلوب رقة وعاطفة مشبوبة !

ولما التفت ، التفتت .. ورست عيناها الدعجاوان المستعتان اللتان تظللهما اهداب سود طويلة ، على وجهه بنظره ناعمة دافئة ، ثم انثنت الى ناحية اخرى بحركة خفيفة كانها تبحث عن انسان اخر .

وولج فرونسكي المركبة ، فنظرت اليه امه وزوت ما بين عينيها . وعادت فتأملت فيه ، ثم ابتسمت قليلا بشفتيها الرقيقتين .

وكانت الام امراة هزيلة ناضبة ، سوداء العينين يزين اذنيها قرطان لامعان ، ويحلي اصبعها خاتم كبير ، فلما دنا منها مدت له يدا معروقة فلثمها ، ثم رفعت راسه وقبلته في وجنته وقالت :

« هل وصلتك برقيتي ؟ اهانيء انت بمعيشتك ، شكرا لله ! » .

فجلس الابن في جوار والدته وقال : « عسى ان لا تكون مشقة السفر قد نالت منك كثيرا يا اماه ؟ » .

ولم يحفل ردها على كلماته ، بل اصاخ لصوت امراة انبعث من الخارج ، وتراءى له هذا الصوت الفتي المتماوج هو صوت الغادة الفاتنة التي قابلها منذ لحظات على مدخل المركبة .

وكانت صاحبة الصوت تقول في شيء من الحدة : « لا اجاريك في ما

ذهبت اليه من راي يا عزيزي ، ولا اقرك على هذا المبدأ الذي اتخذته مذهبا ! » .

فاجابها صوت آخر ، صوت رجل : « هذه وجهة نظر امرىء من بطرسبرج » .

قالت : « لا ، بل وجهة نظر كل انثى ! » .

« دعيني الثم يدك ! » .

« اذهب محفوظا يا ايفان بتروفتش وان صدفت اخي في طريقك فوجهه الي لاني في انتظاره منذ حين » . ورجعت الغادة ثانية الى المركبة .

فهشت الكونتس الكهلة لها وبشت ، وقالت متسائلة :

« الم تجدي اخاك يا عزيزتي ؟ » .

في تلك اللحظة ادرك فرونسكي ان السيدة الجميلة هي « انا كارنينا » فانبرى يقول وهو ينتصب واقفا :

« رايت اخاك ، فهو هنا . على اني مدين لك باعتذار ، فانا لم اتعرف عليك عندما اعترضت سبيلك صدفة ، ولا شك انك لم تتذكريني ايضا » .

واحنى هامته باحترام . فقالت وثغرها يضيء ببسمة فاتنة :

« كان علي ان اعرفك قبل ان تعرفني انت ، لاننا قضينا ساعات ونحن نتكلم عنك ، فوالدتك متعلقة بك كثيرا ! ولكن .. اين اخي ؟ اين هو ؟ » .

وقالت الام العجوز : « عجل يا اليكسي .. اذهب وابحث عنه ولا ترجع دونه » . وقفز فرونسكي مترجلا ورفع عقيرته ينادي :

« اوبلنسكي .. ! هنا . هنا .. » .

اما انا كارنينا فانها لم تنتظر مجيء اخيها ، بل غادرت المركبة ، ومشت مرتفعة الراس . وما كادت تبصر اخاها قادما نحوها ، حتى اسرعت اليه فلفت يدها اليسرى حول عنقه بحركة رشيقة اذهلت فرونسكي وقبلته في وجهه » .

ولم يستطع فرونسكي ان يحول ناظريه عنها ، بل شخص الى وجهها في ذهول واعجاب ، وابتسم ابتسامة عريضة تطفح بالبشر والسعادة .

بيد انه تذكر امه ، فانثنى راجعا اليها .

وقالت الام : « انها رائعة اليس كذلك؟ لقد رجاني زوجها ان الازمها ، وكانت مزاملتي لها في السفر سعادة ، فانا لم اشعر بالملل طيلة المسافة التي قطعناها » .

وانقطعت عن الكلام وحدجته بنظرة ذات معان ، واستطردت باللسان الفرنسي : « قيل عنك انك ظفرت بفتاة تنتمي الى فضليات العائلات ، فان صح هذا ، فليهبك الظفر بامنية طالما طلبتها لك » .

فقاطعها بصوت اجش :

« ماذا تقصدين بكلامك يا اماه ، انني لا افهم حرفا مما تقولين » !

وعادت انا كارنينا في تلك اللحظة لتودع الكونتس ، وما كادت تصل وتجلس حتى ابتدرت المرأة قائلة : « لقد اجتمع الشمل اخيرا ، فالتقيت ابنك ، والتقيت اخي ، وذلك بعد ان فرغت جعبتانا من الحديث » .

فقالت العجوز بلهجة الصدق والصراحة :

« كلا .. كلا .. فانا استطيع ان اجوب الامصار والاقطار دون ان يطرا على مشاعري من قربك وحديثك السام .. فانت من النساء اللواتي يفيض منكن الحبور ، حتى يصبح الصمت في صحبتكن للديذا ، والكلام الذ ! واوصيك يا عزيزتي ان تتجملي بالصبر فلا يرمضك بعدك عن ولدك ، فالفراق سنة ، ولا بد ان تروضي نفسك ومشاعرك عليه » .

ورفعت انا كرنينا راسها وهي لا تزال تبتسم ، وتحولت الكونتس الى ابنها وقالت موضحة : « ان انا كرنينا أم ، ولها طفل في الثامنة لم يسبق لها ان غادرته وحيدا في بطرسبرج ، ولهذا تجدها منزعجةاشد الانزعاج » .

وقالت انا كرنينا وهي ترمق فرونسكي بعينين ضاحكتين وكانها تخصه بابتسامتها : « اجل ، كنت انا والكونتس نتجاذب الحديث طيلة الوقتالذي امضيناه معا .. كنا نتكلم ، انا عن ابني ، وهي عن ابنها .. » .

ورنت اليه مداعبة ، وفطن هو الى موطن الدعابة من حديثها ونظرتها فقال : « واخشى ما اخشاه ان تكوني قد ضجرت مما طرق سمعك ! » .

ويبدو انها لم تشا ان تسترسل في مثل هذا الكلام فقد التفتت الى الكونتس وقالت : « ذريني اشكرك ، فانت مرافقة كريمة ، ولا يسعني الا الاعراب عن اسفي لانتهاء الرحلة بمثل هذه السرعة ، فالى اللقاء .. » .

فقالت الكونتس : « ترافقك السلامة يا عزيزتي ، دعيني اقبل محياك الحسن .. انني هرمة لا اعرف المواربة ، بل الج البيوت من ابوابها ...ولا اغالي ان جهرت برايي في سحرك ، فلسحرك سلطان عظيم ، وقد ذهلت عن نفسي طيلة اجتماعي اليك ، وكان شغفي بك كثيرا ، وكلفي بمحاسنك ومناقبك اكثر واشد » .

واعتقدت انا كرنينا ان المراة تعبر عن خلجاتها الحقة ، فتضرج وجهها حياء وجذلا ، ثم انحنت قليلا وادنت خدها من فم الكونتس ، فقبلتها هذه برفق .

ثم انتصبت فمدت يدها الى فرونسكي ، فلثمها الفتى وشعر بالغبطة. وداهمته فرحة .

وما عتمت ان غادرت مركبة القطار بحيوية وقوة ، فكانت في مشيتها كانها لا تكاد تطا الارض تيها وزهوا !

وجمجمت الام بصوت مهموس : « رائعة ! انها رائعة » .

وكان هذا ما راود فكر ابنها ايضا .. وقد تتبع الحسناء بنظره ، حتى رآها تقبل على شقيقها فتضع يدها في يده ، وتنهمك معه في حديث خطير ، حديث لا يتعلق به هو ـ بفرونسكي ـ بل شخص اخر ، او بشيء اخر ...

واستدار الى امه وابتدرها قائلا : « كل شيء على ما يرام كما ارى يا اماه » .

وعلقت تحدثه عما يعنيها من امور دنياها عن حفيدها الذي جعلها تمكث كل هذا الزمان في بطرسبرج ، واللفتة الكريمة التي تلطف بها القيصر على اكبر ابنائها . ثم نهض الشاب فتابط ذراع امه وقال :

« هلمي يا اماه ، لقد خفت الزحمة ، وانفض الجمع » .

وحملت الخادمة حقيبة صغيرة وحمل الخادم مع رجل اخر بقية الامتعة .

ولكنهما ابتعدا قليلا حتى شاهدا عددا من الرجال يهرولون في ذعر واضطراب . وكان من جملتهم ناظر المحطة الذي تطق وجهه بالهلع الشديد.

ولا شك ان امرا غير عادي قد وقع . وبدات الجموع التي غادرت القطار ترجع ادراجها . وتعالى اللغط ، وسمعت هذه الكلمات تتلقفها الاذان، وتتساءل بها الالسن :

« ماذا ؟ .. ماذا ؟ اين ؟ كيف ؟ . لقد لاقى حتفه ، مات ! .. » .

ورجع ستيفان اوبلنسكي وشقيقته فيمن رجع من الناس ، وقد بان الخوف على ملامحهما .

ولاذت السيدتان بالمركبة ، بينما لحق فرونسكي وستيفان بالجمع لاستجلاء حقيقة الامر . ولم يلبثا ان علما ان حارسا اعماه السكر ، فلم

يشعر باقتراب القطار قبل ان يمزق جسده شر تمزيق .
وقبل ان يرجع الرجلان اطلعت السيدتان على تفاصيل الحادثة .
وكان الشابان قد شاهدا الجثة الممزقة . فلما اجتمعا بالسيدتين ، قال اوبلنسكي وهو يكاد ينشج بالبكاء :
« اواه يا انا ! يا له من منظر مرعب ! انه حادث مريع » .
اما فرونسكي فقد لاذ بالصمت . وكان وجهه الجميل مقطبا بعض الشيء ، الا ان الهدوء لم يفارقه لحظة . وتابع اوبلنسكي يقول :
« ويا لمنظر زوجته وهي تنحط على الاشلاء ! لقد كانت تعول وما ارهب صوتها وهي تندب زوجها : ويقال ان عائلته كبيرة .. كبيرة .. » .
فالتفت انا كارنينا تقول بصوت يختلج تأثرا :
« الا يستطيع المرء ان يسدي خدمة ما لهذه المرزوءة ؟ » .
ورماها فرونسكي بنظرة خاطفة ، ثم غادر العربة وهو يقول :
« لن البث ان اقفل راجعا يا اماه ! » .

فلما عاد يمسي بقوامه البديع ، كان ستيفان اوبلنسكي قد نسي المأساة ، وطفق يجاذب اخته انا حديثا طليا ، ويصف لها المتعة التي يلاقيها المرء في ملاهي موسكو ومسارحها وانديتها . ثم عكف يشيد بمهارة مطربة حديثة ما برح اهل موسكو ينتظرونها منذ حين .

وقطع الرجل حديثه بعد قليل ، وتحرك القوم ، ثم ساروا مبتعدين. وقد مشى فرونسكي مع امه في المقدمة ، ووراءهما مشت انا كارنينا وشقيقها وما كادوا يقتربون من الباب الضخم حتى ادركهم ناظر المحطة وخاطب فرونسكي قائلا :
« لقد منحت مساعدي مئتي « روبل » ، فهلا قلت لمصلحة من هذا المال ؟ » .

فهز فرونسكي منكبيه واجاب : « للارملة .. وما حاجتك الى السؤال لمن اعطيت المال ؟ اما تعرف ؟ » .

ونظر حوله ، واستطرد : « لم اظن قط انهم عديمو الفهم والادراك ! »
وهتف اوبلنسكي متعجبا : « هل تبرعت بهذا المبلغ ؟ » .
وضغط على يد شقيقته واضاف :
« جميل منك ان تفعل هذا .. انت رائع .. » . ومضى فرونسكي وامه في سبيلهما : وتريث اوبلنسكي وشقيقته ريثما تلحق بهما الخادمة .

وكان القادمون والرائحون لا يزالون يتحدثون عن الكارثة التي دهمت الحارس .

وقد قال رجل منهم على مسمع من الاخرين :

وما ابشعها من ميتة ! يقولون ان القطار شطره شطرين .

فرد عليه اخر :

« بل انها على ما اظن ، اسهل ميتة ـ فقد لفظ انفاسه في لمحة خاطفة » .

وقال ثالث متسائلا :

« وكيف لا يتخذون ما يلزم من احتياطات ؟ » .

ووقفت عربة ، واستقلتها انا كارنينا . ولما هم شقيقها ستيفان بالصعود الى جانبها تعجب مما رآه منطبعا على اساريرها ، وافزعته دمعة ترقرقت في مآقيها !

فسألها متوجسا : « الا اني تشاءمت ماذا حدث ! » .

« تشاؤمك لا يعول عليه .. لقد وصلت سالمة ، وهذا بيت القصيد . ولن تحدثي الحقيقة لو حاولت الاطلاع على مقدار ما اعلقه على وجودك من آمال جسام » .

قالت : « وهل تعرف فرونسكي منذ زمن بعيد ؟ »

« اجل ، ونأمل ان يبني في القريب العاجل على كارنين » .

« احقا تقول ؟ هل حدثني عنك ، عن امورك ، عن مشاكلك .. هاك رسالتك ، وقد اسرعت بالمجيء عقب اطلاعي على محتوياتها .. فما الخطب؟ ماذا جرى بينك وبين زوجك ؟

وطفق ستيفان اوبلنسكي يسرد على مسامع شقيقته ما جرى له ، دون ان يخفي شيئا .. وكان يتكلم بصراحة وطلاقة ، وكان الحديث لا يهمه وكأنه لا يعنيه ! ووصلا اخيرا ، فنزجل من العربة واعان اخته على الهبوط ، ما عتم ان ضغط على يدها متوددا ومضى في سبيله الى مكان عمله .

* * *

عندما دخلت انا ، كانت داريا الزوجة المهيضة الجناح المكسورة الخاطر ، تجلس في غرفة الاستقبال الصغيرة قريبا من طفلها الذي كان صورة صادقة لابيه وكانت تلقنه درسا في الفرنسية . ولما عيل صبرها قطعت الزر ووضعته في جيبها وهي تقول للغلام محتدمة : « انتبه .. انتبه .. لا تعبث بيدك » .

وكانت الاحزان قد سحقتها ، ومع ذلك فانه لم يغرب عن بالها ان انا كرنينا قادمة وانها زوجة رجل مرموق تحترمه بطرسبرج بأسرها .. ثم ، ما ذنب انا حتى تهجر الدار في الوقت الذي تلم بها زائرة ؟ وما جريرتها وقد اقترف اخوها تلك الحماقة الكبرى ؟

وانشأت تحدث نفسها وتقول : « انها خير امرأة ولم الق منها سوى اللطف والرقة والعطف السابغ » .

لا شك انها لم ترتح اثناء اقامتها مع انا كرنينا في بطرسبرج الى الوتيرة التي كانت حياة الزوجين تسير عليها فالتكلف كان الظاهرة البارزة التي سادت ذلك البيت ، بيد ان هذا لا يعنيها في كثير او قليل ، وطفقت تناجي نفسها : « سأستقبلها احسن استقبال ، واتمنى على الله ان لا تسعى الى تسرية همي .. فجميع عبارات العزاء مما يدخل في معالي الصفح ، والغفران ، والهدي المسيحي ، لن تشفع له . لقد فكرت في كل شيء ولن يجدي هذا ، لن يجدي ! » .

وسمعت خفق نعال لدى الباب فالتفتت مستطلعة ، وعبرت تقاطيعها الذابلة عن حبور مباغت .. وعجلت بالنهوض من مكانها وهرعت الى شقيقة زوجها فاحتضنتها وعانقتها . وتبادلت المرأتان كلمات الشوق وعبرت كل منهما عن سرورها بلقيا الاخرى بدمعة تدحرجت على خد كل منهما .

واستدعت الام اطفالها ، فقبلتهم انا ثم صرفتهم . ولما انفردت المرأتان مع بعضهما البعض قالت انا : « داريا ، لقد اطلعني اخي على كل شيء » .

فنظرت اليها داريا ببرود وترقب ، وانتظرت ان تنهال عليها انا بعبارات التعزية ، الا ان الزائرة اكتفت بأن قالت :

« عزيزتي داريا ، لا ارغب في تخفيف الخطب باثارة شفقتك عليه وعلى اولادك ، فهذا مستحيل . والذي ارغب في بثه لك ، هو اني في غاية الاسى ، وان حزني عميق يمس حبه الشغاف ! » .

ولمعت الدموع من وراء اهدابها السوداء الكثيفة واقتربت من زوج شقيقها وتناولت يدها .. ولم تنكمش داريا او تتردد ، الا ان وجهها لم يفقد تلك النظرة الجامدة القاسية . وما عتمت ان قالت : « ان مؤاساتي على ما جرى امر عسير ، فقد صاغ كل شيء وخبا الامل » .

ورفعت تقاطيعها بغتة ، ورفعت انا يد المراة الوالهة الى فمها فلثمتها وهي تتمتم : « فما العمل اذن ، ما العمل ! وكيف يتصرف الانسان في هذا الموقف العصيب ، فكري يا عزيزتي ، واشحذي بصيرتك » .

قالت لقد انتهى كل شيء ، وليس هناك ما يربأ الصدع. اني لا استطيع ان اقصيه بسبب الاطفال ، ومع ذلك فليس في وسعي العيش معه تحت سقف واحد ، فهذا ضرب من المحال ، ولن يسبب لي سوى الالم والعذاب مما يهون ازاءه كل مصاب .

« ولكنه : كما ايقنت مما رايت في مقام مجاذبة بين الاسى والندم ! » وهل هو من اولئك الذين يستشعرون الشجن ؟ هل يندم ، هل يبكته الضمير ؟

« اجل ، اني اعرفه . كلانا يعرفه . انه طيب القلب وان كان متشامخا .. الا ان تشامخه انقلب الان الى مذلة .. والذي اثر علي كثيرا .. « وهنا حدست انا ماذا يؤثر كثيرا في داريا » . انه يتعذب لامرين للاولاد ، ولانه ، وهو المحب ـ اجل ، المحب الذي يفتديك بروحه ، قد آلمك وطعنك في الصميم ، في مهجتك ! ولا يفتا المسكين يردد : « كلا ، كلا .. انها لن تصفح ، لن تصفح .. » .

والقت داريا نظرة حالمة على شقيقة زوجها ، قالت : « ان موقفه فظيع ، وهو ولا غرو يتالم اكثر مني لانه مذنب . ولكن ، كيف يتسنى لي العفو ؟ كيف اصبح زوجته مرة اخرى . بعدها .. بعد تلك المراة المقبوحة؟!

وخنقتها العبارات فكفت عن الكلام . واحنوتها انا وقالت :

« كنت له دائما شيئا مقدسا ، ولا زلت ذلك الشيء المقدس ، اما فريته الاخيرة فلم تكن خيانة ارتكبها القلب .. » .

« ولو اعاد الكرة ؟ » .

« لن يعود الى ما ارتكب ثانية ، لن يفعل ما فعله ، ثقي مما اقول » .
« ولكن ، لو تعرضت انت لمثل ما تعرضت انا له ، فهل كنت تصفحين ؟» .
« لا ادري .. بل ادري فانا اعلو » .

ولا شك انها قالت ذلك بحافز من شعور باطني غامض .. شعور غامض بدأ القدر يتمخض عنه منذ وطأت قدماها ارض موسكو !

واستتلت : اجل ، استطيع أن اعفو ، أستطيع أن اعفو ، واستطيع أن ازاول حياتي كان شيئا لم يحدث ابدا ! » .

وقالت داريا : « اجل .. يجب اذا صفح الانسان ان ينسى الاساءة برمتها . هلمي الآن الى غرفتك» وقبلتها ومضت تقول : « لشد ما انا مغتبطة بمجيئك يا عزيزتي انا فقدومك سهل الامور ، وهون وقع الكارثة على قلبي واحساسي ، فشكرا لك !! » .

استطلعت انا كرنينا طلع زوجة اخيها ، وخبرت حقيقتها .. وكانت انا امراة ماهرة حنكها الدهر قبل الاوان ، وعلمها من الدروس والعبر ما لم يعلمه سواها من النساء . فلما تناهى اليها ان اخاها افرط في الخيانة ، بادرت الى اعادة المياه الى مجاريها بين الزوج وزوجته في ساعة واحدة .

وقد انفتا كرب زوج اخيها فسرت الابتسامة الوادعة مسراها العادي في اسارير وجهها . واطمأنت انا لما فعلته ، واهتز قلبها طربا لما ادته لاخيها ، وقضت النهار بطوله مع داريا والاولاد ، ولم تشا ان تقابل اي زائر مشتاق جاء لمقابلتها والترحيب بقدومها .

وما وافى المساء حتى كتبت لاخيها رقعة صغيرة ، تطلب اليه فيها الا يتأخر من المجيء ، وتقول :
« لقد نجح المسعى والحمد لله .. عرج علينا حتى نتناول طعام العشاء معا » .

وهذا ما جرى فقد جاء اوبلنسكي خفيفا مبتهجا ، وهو لا يصدق ما قراه في رقعة شقيقته . ولكنه ايقن من صحتها ساعة راى الهدوء مخيما على المنزل .

واكل الثلاثة طعامهم سويا ، وتجاذبوا الوانا مستملحة من الحديث ، وتبادل اوبلنسكي وزوجته الابتسام لاول مرة منذ ايام ، وان كان ابتسامهما لا ينم عن راحة الفكر وهدوء البال . ولكن فكرة الانفصال استبعدت تماما .. وهكذا نجحت انا كرنينا في مسعاها ، وابقيت على البيت الذي كان يتداعى للسقوط والانهيار .

وجاءت كاترين بعد العشاء مباشرة بداعي شوقها لشقيقتها ، ولكنها ما جاءت في الحقيقة الا لرؤية انا كرنينا لما سمعته عن جمالها وفتنتها ، ولما قيل عن ذكائها ولباقتها .

ولم يغب عن كاترين التأثير الحسن الذي خلفته زيارتها في قلب الضيفة الحسناء ، فقد قرأت في عينيها عبارات الاعجاب والاطراء ، كما انها - أي كاترين - لم تنكر ان انا كرنينا آية من ابداع الله في تكوينه ، وانها تفوق بحسنها ما سمعته من اقوال الناس .

وكانت انا كرنينا قد الأنت القول لكاترين ، فبدت لها نسيج وحدها في دماثتها التي تناقض رياء النساء ، وفي رونق اسلوبها . ثم في روائها الذي اظهرها بمظهر ابنة العشرين ، لا بمظهر امرأة لها ولد في الثامنة !

وايقنت كاترين مما رأته ولحظته ان المرأة الساحرة هذه صريحة صراحة متناهية لا تخفي شيئا ، ولا تبطن امرا ، وتبين سواه . ولكنها تعيش في دنيا خاصة بها ، دنيا لا تشرك فيها احدا ، ولا تستقبل في رحابها انسانا آخر . . واعترفت كاترين بعجزها عن سبر غور هذه النفس الصريحة كل الصراحة ، الغامضة جميع الغموض .

ولم تر كاترين من الفطنة ان تمعن في التأمل والتفكر ، حتى لا تنشر ما تضمره ، خشية ان تكون انا عنها فكرة سيئة !

وذهب داريا الى حجرتها بعد العشاء ، فنهضت انا الى اخيها الذي كان يشعل سيجارة ، وقالت وهي تشير من طرف خفي الى مخدع زوجه .

وعادت انا الى الاريكة التي كانت تجلس عليها ، فأحاط بها الاطفال . وكانوا قد تعلقوا بها ، كانت انا قريبة الى قلوب الصغار لما تضفيه عليهم من لطفها ورقتها . وخاطبت كاترين بعد قليل :

« ومتى تقيمون حفلتكم الثانية يا عزيزتي ؟ » .

« في الاسبوع القادم . وستكون حفلة رائعة من تلك الحفلات الراقصة التي يجد فيها المرء متعته .

فأجابتها انا بشيء كثير من التهكم :

« وهل هناك حفلات لا يجد المرء فيها دائما ما يرغب فيه من متعة ؟! » .

« اجل ، هوذا امر عجيب ، فثمة حفلات ينشرح لها صدرك في كل

حين ، ولمة حفلات اخرى في بيوت معينة تشعرين فيها بالضجر والسأم .. افلم تلاحظي هذه الظاهرة ؟ » .

« كلا يا عزيزتي ، فبالنسبة لي الان لا يوجد حفلة يستطيع الانسان ان يلقي فيها ما ينسيه كآبة الحياة ؟ » .

ورات كاترين في عينيها تلك الدنيا الغامضة المغلقة في وجهها .

واستتلت انا : « بالنسبة لي هناك حفلة مضجرة واخرى اقل ضجرا !

« وماذا يجعلك تشعرين بالسأم ؟ » .

« ولم لا اشعر به ؟ » وادركت انا بغريزتها ما ستقوله كاترين . وقد اصابت في كهانتها ، اذ ان كاترين راحت تقول :

« لانك دائما تتجلين في ثوب باه من الحسن لا تضاهيك في جماله غادة اخرى ! » .

وكانت انا ماهرة في التمثيل « قادرة على صبغ محياها متى شاءت بخضاب الخجل .. وقد تضرج وجهها ساعة طرقت سمعها كلمات كاترين ، واجابت وهي تغضي قليلا :

« كلامك فيه غلو تمليه المجاملة يا عزيزتي ، ولو افترضنا ان فيما تقولينه الصدق والصواب ، فما تاثير هذه الحقيقة ؟ » .

« وهل تاتين الى الحفلة ؟ » ، « يبدو لي ان لا ندحة لي عن المجيء » .

« يطيب لي مجيئك ، واصدقك اني اتشوق الابصار الى مشاهدتك ترفلين في ثوب سهرة بنفسجي ! » .

« ولم ذلك ؟ لم تطلبين الثوب البنفسجي ؟ ! اني ادري لماذا تلحين علي بالمجيء فانت تتوقعين الكثير ، وتودين من صميم قلبك ان ياتي الجميع لمشاركتك في انجاح الحفلة » . وكيف حدست ذلك ؟ انت على حق ! » .

لشد ما اغبطك على هذه الفترة الهنيئة من حياتك يا عزيزتي ، وانى لاذكر ذلك الوهيج الازرق الشبيه بالضبابة الذي يرفرف جو سويسرا ، تلك الضبابة التي تشمل كل شيء في ذلك الطور السعيد عندما تكون الطفولة في مرحلتها الاخيرة ، ومن خلال تلك الحفلة المرحة المنشرحة ، يبرز درب يضيق شيئا فشيئا ، وما الذ الساعة التي تدخلين فيها الى قاعة الحفلة المتألقة بالانوار ، المودائة بالغيد .. فمن ؟ من لم يمر في هذا الدرب ؟ من ؟ » .

وابتسمت كاترين ، وحددت في انا طرفا متاملا ، وجعلت تستعيد حوادث الماضي القريب وتفكر وتتامل :

فكيف ؟ كيف بلت انا ما وصفت ؟ ما اشد شوقي الى الاطلاع على قصة حياتها ، على غرامها !

ورات امامها « اليكسيس كارنين » زوج انا ، بوجهه المتجهم الدهيم، وذهلت قليلا عن نفسها والوجه المقطب ماثل لناظريها .. فهل رسا مركب احلامها على هذا الشاطىء ؟ هل انتهت حياتها الزوجية باصطدامها بهذا الانسان المادي ؟ وما عتمت انا ان قالت وهي تومض بعينيها :

« لقد انهي الى ستيفان بما كان من امر فرونسكي ، ولا يسعني الا تهنئتك ، فاني قابلت الشاب في المحطة » .

فتضرج محيا كارين وقالت متسائلة : « وماذا اخبرك ستيفان ، ماذا قال ؟ » .

« كل شيء ، ومن دواعي سروري يا عزيزتي ان تمتزجي وتندمجي بهذا الفتى .. لقد قضيت ساعات طويلة مع امه ، وهي امراة لا يروق لها الا التحدث عن ابنها » . « وهل قالت لك شيئا ؟ » .

« اشياء كثيرة ، وكلها مديح واطراء .. وعلى سبيل المثال ، قالت انه عرض على اخيه جميع ثروته ، وانقذ امراة من الغرق وهو حدث .. وانق انا انه بطل ! » .

وما قالت انا هذه الكلمات عندما تذكرت تبرعه بالمئتي روبل عندما سقط الحارس صريعا تحت عجلات القطار !

غير انها لم تات على ذكر المئتي روبل ولسبب ما كانت تشعر بالانفعال كلما فكرت بهذه اللفتة التي بدرت منه ، وتراءى لها ان لها علاقة ، او بالاحرى سيكون لها علاقة بالموضوع كله .. ولكنها شعرت ان هذا الامر يجب الا يكون ! والتفتت الى كارين فجاة وقالت :

« احمد الله ، ان ستيفان اطال المكث في مخدع داريا » .

ونهضت من مكانها وجعلت تداعب الاطفال وتلاعبهم .

وصاح احدهم : « اريد ان اقبلك قبل الاخرين .. » .

وهتف اخر : « بل انا الاول ! » .

وصاحت هي والبشر يرسم على محياها الوسيم لونا رائعا :

« قبلوني كلكم .. كلكم . . في آن واحد ! » .

واندفعت نحوهم تعانقهم .

خرجت داريا من غرفتها لتتناول الشاي مع الكبار . ولم يصحبها ستيفان ، ولعله غادر مخدع زوجه من الباب الاخر !

وما كادت تجلس مع انا وكاترين حتى قالت موجهة حديثها الى الاولى :

« اخاف ان يؤذيك البرد في الغرفة العليا ، ولهذا ارى ان تنتقلي الى الطابق الارضي » . فاجابتها انا وهي تحدجها بنظرة متفرسة متفحصة :

« ارجو ان لا تقلقي من اجلي » . بل يجب ان تبدلي غرفتك .

« ثقي اني اجد الراحة والمتعة في اي مكان انام فيه يا عزيزتي » .

ووصل ستيفان في تلك الاثناء ، فقال متسائلا :

« ماذا جرى ؟ وعما تتكلمان ؟ » . وادركت كاترين وانا من لهجته ان المياه عادت الى مجاريها بين الزوجين . وقالت زوجته ردا على سؤاله :

« اريد ان انقل امتعة انا الى الطابق الارضي ، ولكن لا يوجد من يرتب امور النوافذ غيري ! » .

وهجست انا فيما بينها وبين نفسها وجعلت تقول : « الله وحده يعلم ان خلص القلبان من الضغائن ، الله يعلم ان تصالحا وتصافيا ! » .

وقال ستيفان وهو ينظر الى زوجته ثم ينقل طرفه بين السيدتين الاخرتين :

« هذا هراء ! ان داريا دائما تستيقظ الصعاب .. على اني اطوع امرك فافعلي ما تشائين ! » .

وانممت انا مناجاتها والابتسامة تداعب شفتيها :

« اجل .. اجل .. لقد اتفقا وتوافقا ـ والصلح كامل ، كامل . شكرا لله ! .. » . وظلت داريا طيلة ساعات المساء توجه الى زوجها الحديث بنفس اللهجة الساخرة التي درجت منذ زمن على مخاطبته بها ..

اما هو ـ الزوج المذنب الذي صفحت عنه امرأته ـ فقد طغى عليه السرور ، ثم نسي بعد قليل انه خان زوجته فاستحق العقاب ، نسي كل شيء ، ورجع كما كان ـ ستيفان اوبلنسكي الذي لا تفارق الابتسامة فمه.

وطرق الباب ودقت الساعة معلنة انتصاف التاسعة .

وفتح الباب ، وبدا للجميع وجه فرونسكي ، فشعرت انا بمزيج متناقض من السرور والفزع ، أما كاترين فقد شعرت بالسعادة ، وخيل اليها ان الشاب مر عليها في بيتها ، فلما لم يجدها جاء وراءها وانتحل هذا العذر فقد قال لستيفان : « في اية ساعة تقيم المأدبة للضيف العظيم الذي تنتظر مجيئه غدا ؟ » واكتفى فلم يدخل .. وتخضب وجه كاترين واطرقت

براسها خجلا وحياء ! وابى فرونسكي ان يدخل ، ورجع من حيث أتى . وتبادل الجميع نظرات التعجب والتساؤل ، ولم تلبث عيونهم ان تحولت الى مجمع للرسوم كانت انا قد بدات تتامل فيه . فهل هناك ما يثير الريب في زيارة يقوم بها شاب في مثل هذا المزيع ؟ ثم لماذا لم يدخل ؟ ليس هناك ما يثير الريب والشكوك ، الا ان الامر بدا مذهلا لهم جميعا لماذا اكتفى بالسؤال؟ الم يكن في استطاعته ارجاء سؤاله الى الغد ؟

اما انا فقد اعتبرت عمله نزقا وطيشا .

انفقت كاترين كثيرا من وقتها وهي تتزين وتتهندم وتستعد للحفلة الساهرة التي سيتقرر فيها مستقبلها ، فيذاع انناءها خبر خطبتها للكونت الشاب فرونسكي ، او على الاقل يبت في هذا الامر نهائيا ، وتترك التفاصيل لتاريخ آخر .

واخذت تتامل في المرآة وتنظر الى خلقها القويم ، وحسنها الخالص حتى اذا ما رضيت عن نفسها ، خرجت من حجرتها تميس دلالا ، ودلفت الى الردهة الفسيحة التي اقيمت فيها السهرة ـ وكانت الموسيقى تصدح بانغامها ، فيتردد الصدى في ارجاء المنزل الذي ساد اهليه في ذلك اليوم شعور بالتفاؤل والبشر .

واخذ طرفها الساجي وجه انا كرنينا الجميل ، فاذهلها ما رانه من سحرها ، لقد بدت الغادة في ابهى حلة وابدع زينة .

لقد طلبت اليها ان تتلفع بثوب بنفسجي ينم عن الورد ، ولكنها شذهت مما رانه من انسجام اللون الاسود مع المرآة الفاتنة .. اهناك في موسكو وبطرسبرج من يضاهيها ؟ كلا .. كلا ..

وادركت بطل رايها في ان الرداء هو عماد المراة ومقوم جمالها ، فالمراة الجميلة جميلة مهما لبست ومهما ارتدت ، ولن يزيدها اللباس الحسن الا اناقة ..

وما كان ثوب انا في الحقيقة الا اطار اسود يعانق المثال البديع ، فلا يكسب المثال ، كما ان القمر لا يكسب من الهالة !

كانت انا كرنينا ساعتذاك تتوسط فريقا من المدعوين والمدعوات ، وكانت في اناقتها المبسطة اروع من كل امراة سواها في اناقتها المعقدة !

ودنت كاترين منها ، فتناهى اليها حديث متبادل بينها وبين معلم الرقص « كورسونسكي » . فوقفت ثم تحركت ، فابتدرتها انا بابتسامة

رقيقة وادعة ، ثم صعدت في قامتها عينا فاحصة ، ولم تلبث ان هزت راسها وكأنها تقول : « اهنئك على ذوقك واغبطك » ..

وفهمت كاترين ما قالته عينا أنا ، فتضرج وجهها وقالت وهي تدنو منها :

« ليهنأ قدك وانسجامك ، فانت تخطرين في المكان وكأنك ترقصين رقصة الفن الخالدة ! » واتبرى معلم الرقص يقول متحمسا :

« واصدقك يا سيدتي انها خير من تعلم الرقص على يدي ! فهلم يا انا ، هلمي نرقص ، فالموسيقى تعزف لنا اعذب لحن سمعته اذناي ! » .

فقالت انا : « اعتذر اليك ، فالرقص لا يروق لي دائما » .

قال : « غير اننا الليلة في حفلة مرح ورقص ومتعة ، فكيف يطاوعك قلبك على التمنع والاعتذار ؟ » .

وبدا فرونسكي قادما نحوها ، فالتفتت الى معلمها بسرعة وقالت :

« اصبت .. اصبت .. فهيا نرقص » .

ودارت مع كورسونسكي خفيفة بارعة وابتعدت عن فرونسكي الذي القى عليها التحية ، فلم تحفلها ولم ترد عليها ، وكأنها ماوعتها !

* * *

لم يفت كاترين تجاهل انا لوجود فرونسكي وانصرافها عن تحيته ، وكأنها تتهرب منه لسبب .. وتساءلت والدهش مستول عليها :

« عجبا لم افضت عنه فلم ترد التحية بمثلها ؟ » .

وقطع عليها حبل تفكيرها صوت فرونسكي وهو يصف لها اسفه لعدم تمكنه من المجيء الى بيتها زائرا في الايام القليلة الماضية .

واصاخت كاترين السمع لما كان يقول ، ولكنها لم تنقطع طيلة الوقت عن تتبع حركة انا الماهرة وهي تدور في حلبة الرقص خفيفة رشيقة واثقة .

وطال انتظارها ، واخذت تتململ ألما وقنوطا فلماذا لا يدعوها الشاب للرقص ؟ الا يعرف الرقص ؟ أم هو راغب عنها نافر منها ؟

وبينما هي موغلة في فكر حزين كسيف ، فطن فرونسكي الى قصوره واهماله فسارع متندما :

تبا لي ! كيف نسيت في غمرة الحديث ان اطلب اليك مشاركتي الرقص .

ثم احاطها بذراعيه واختلط بالراقصين ..

ورنت اليه كاترين بعينين متلهفتين تشبان بما يعتمل في صدرها من آيات الحب .

وقد اثقلت عليها هذه النظرة فيما بعد ، وكانت كلما تذكرتها ، يطغى عليها شعور بالخجل والحياء ، لانها كانت نداء هتفت به عيناها ، فلم يجد له في صدر الفتى وقلبه صدى ولا جوابا .

* * *

ورقصت كاترين مرارا مع فرونسكي ، فنقعت غليلها من قربه وروت ظماها من حديثه ، فقد تشاجنا وتبادلا الكلام لكنه عندما سالها عن ليفين، لم تعرف ماذا تقول .. ونظر فرونسكي اليها فراى وجهها الجميل يتخضب بلون الاضطراب . . غير انه كان اضطرابا من نوع آخر ، كان اضطراب فتاة تنتظر مفاجاة ، وتتوقع ان يفاتحها الحبيب بحبه ويبثها لواعج قلبه .

بيد ان فرونسكي تجنب حديث الحب والغرام ، فلم يضمها هذا التجاهل ، بل ايقنت انه لن يبطيء ان يقول لها ما في قلبه ، ساعة يحين ميعاد الرقصة التي يتهافت عليها الكل ، رقصة المازوكا العظيمة .. انه ولا شك سيغتنم فرصة احتضانه لها في تلك الرقصة ليطارحها غرامه ، ويفاتحها بما يطمع فيه ثم يطلب يدها ..

ومع انه سها عن باله ان يذكرها بان رقصة المازوكا المنتظرة هي له دون سواه ، الا انها لم تقلق ، فهي واثقة كل الوثوق من انه لن يراقص غيرها متى ازفت الساعة .. وعلى ذلك ، فقد ردت خمس رجال طلبوا اليها مراقصتهم . بكلمة واحدة : « المعذرة .. لقد سبقكم غيركم ! » .

وصدف بينما كانت تراقص شابا مملا ، وتدور معه في الحلبة ان اقتربت من آنا .. وكانت الاخيرة تراقص فرونسكي .. فشدها ما رات ـ ماذا رات ؟ رات آنا مضطربة الخدين ، براقة العينين .. رات فيها امائر الظفر ، وعلامات النصر .. رات فيها ما اكد لها ان آنا ثملة منتشية بخمرة سعادتها ـ وكانت كاترين تختبر هذا الشعور العجيب ، شعور النصر ـ ورات ايضا ذلك الضوء الخفاق الذي ينبثق متاججا من ناظريها ، والابتسامة التي تنم من حبور وانفعال .

« من ؟ .. » تساءلت كاترين !

« كلا ، ليس تهافت القوم عليها ، هو الذي اسكرها وافعم قلبها بهجة .. كلا ، بل انه حبها لامريء واحد فحسب .. لامريء واحد ...

وهذا الواحد .. هل يمكن ذلك ؟ هل يمكن ! » مضت تناجي نفسها وهي منشغلة عن رفيقها .

انه يلازمها كظلها ، وها هو يكلمها بصوت منخفض ، وها هي تبتسم له كلما همس في اذنها .

وتراءى لكاترين ان انا تبذل وسعا لكي تخفي هذه العلامات ولكن المشاعر كانت اقوى من الارادة ، فطفرت الى وجهها .

ونظرت الى فرونسكي .. وفكرت : « وهو ؟ .. » وما راته مرتسما في مرآة وجه انا ، راته منعكسا على قسماته وامائره .

فماذا اصابه ؟ ماذا اصاب شخصيته ، حتى بدا خاضعا مستسلما ؟ انه يكاد يخر على الارض ساجدا كلما رنا الى وجهها .. وان عينيه القويتين خبت وقدتهما ، وغدتا تنظران الى انا في استجداء وابتهال وخوف !

كانا يتهامسان وكأنهما يتناجيان ..

والغريب في الامر انها لم يتحدثا الا عن امور تافهة . بيد ان هذه الامور التي خاضها في حديثها كانت تجذبهما جذبا الى ذلك الاتجاه الفكري الذي اوغلت فيه كاترين ـ الى الاعتقاد عن يقين بان كل كلمة مهما كانت تافهة ستقرر مصيرهما .. هذا ما كان يشعر به كل منهما ، وهذا ما تمخضت عنه مشاعر كاترين .

وذنب كل شيء ـ الحفلة ، بل الدنيا بأسرها ذات غمامة قاتمة في اعماق كاترين . ولكن الفتاة الابية احتفظت بجلدها واصطبارها بفضل نشأتها الصارمة القديمة في بيت ابويها .

ولكن نوعا من الفزع الهب فؤادها قبيل الشروع في رقصة المازوكا .. لقد ردت خمسة شبان ، وها هي تقف وحيدة حائرة . فهل تلوذ بفراشها ؟ هل تزعم انها مريضة ؟ واخيرا لجأت الى ركن منفرد ، فتهالكت على كرسي هناك وهي تلهث من التعب والوصب .

يا للطعنة النجلاء التي سددها فارس احلامها الى مهجتها !

على ان للنفس دوما منفذا من اليأس وقد ناجت نفسها ، فعلقت تقول :

« امصيبة انا في كهانتي ؟ ام ان تسرعي صور لي الامور على غير حقيقتها ؟ قد اكون مخطئة ، وقد يكون بينهما ما بين صديقين عاديين من الامور التافهة اليسيرة » .

ولكنها راحت بعد دقائق تستعرض في مخيلتها ما وقع عليه طرفها ، فأيقنت والغصة ترمضها ان علاقة فرونسكو بآنا هي أكثر من مجرد صداقة بريئة ، بل انها علاقة تطورت بسرعة البرق ، فاضحت عاطفة متبادلة تجيش بأمل ، وتتمخض عن اشياء واشياء !

وبينما هي في هذه النجوى الكئيبة اذ طرق سمعها صوت امرأة يخاطبها ويقول : « عجبا يا كاترين ! أتنفردين والكل في فرحة الرقصة الكبرى ! » .

وانثنت كاترين برأسها المثقل ، فابصرت امامها الكونتس نوردسون ، ورأتها ترنو اليها متفكرة .

وتحاملت على نفسها فنظرت صامتة مستطلعة ، وبادرتها المرأة تقول : « ترى ما الذي عاقك عن الرقص ؟ وهل تكرهين هذه الرقصة بالذات ! » .

فشهقت الفتاة ، واجابت بصوت تخنقه العبرات :

« كلا .. كلا .. اني لا احبها ! » .

قالت : « اما هو ـ فرونسكي ـ فاني سمعته باذني يلحف عليها ان تخصصها له .. وقد تمنعت انا وطلبت اليه ان يراقصك ، الا انه استهجن عنادها ، وما زال بها حتى اقنعها ! » .

فأطرقت كاترين ، ونكست عينيها ، وقالت بصوت خافت :

« لا احفله ، فليرقص مع من يشاء ! » .

لقد اخبرتها المرأة المهذارة بحقيقة ما جرى ، فرأت ان تتمالك صوابها لئلا تشهر نفسها وتجعل للناس في شخصها مغمزا وهزأة .

ولزمت الصمت ، فلم ترد على المرأة بكلام اخر ، وجعلت تفكر برجل ثان ـ برجل ردته منذ ايام خائبا يجرر وراءه اذيال الفشل ـ ومن يعلم ؟ لقد كانت ميالة الى هذا الرجل .. كانت تميل الى ليفين ، بيد ان فرونسكي الجذاب الأنيق المهندم برز الى الميدان فحجب عنها الرؤية ، وجعلها تضيع الفرصة !

لقد خفر العهد دون ان ينطق .. وهل من الضروري ان يعمد الانسان الى الكلام ينطق به لسانه متى وشت برغبته عيناه ونظرته ؟ لقد صارحها فرونسكي برغبته ، وها هو ذا يحيد عنها بعد اجتماعه بآنا !

وقالت تحدث نفسها : « ان الذي قوله واحد لا يختلف ، هو الله ، وليجر ما هو مقدر ، وليكن ما يكون .. » .

ودنا كورسونسكي في تلك اللحظة ، وكان على موعد مع الكونتس بوردسون للرقص . بيد ان المراة اعتذرت له عن ذلك ، فما كان منه الا ان تحول الى كاترين ورجاها ان ترافقه الى حلبة الرقص .

وسرت كاترين ، فقد رات في ذلك خلاصا لها من مازق حرج اوقعها فيها فرونسكي ، ومن المراة المتطفلة التي يستاثر بلبها الفضول .

ورقصت كاترين كانها تمثال او كانها آلة . ولكنها لم تكن مضطرة الى الكلام ـ وهذا من حسن حظها ـ فرفيقها في شغل عن الكلام بقيادة دفة الرقص . وكانت ترقص عن كثب من انا وفرونسكي . وكان الاثنان يجلسان في مكان واحد كلما انتهى دورهما ، وكانت تراهما ينهضان ليستانفا الرقص كلما حانت الدقيقة التي يتحتم عليها النهوض بها !

كانت كل لحظة تمر عليها تزيدها يقينا من اثم الاثنين .. وكانت هذه اللحظات بمثابة الساعات الطويلة المضنية !

كانا يسبحان في افق خاص بهما . يظنان كل الظن انهما وحيدان ، ناهيك عن نظرة فرونسكي ـ فاين شدتها ! لقد حل محلها نظرة حيرة واضطراب ..

وخيل لكاترين ان قوة قاهرة تجذب عينيها الى وجه انا .. فاستحوذت عليها رعشة عظيمة لما رات .. وما رات كان ثوبا بسيطا . الا انه اضفى على صاحبته من الفتنة والسحر ما يذهل كل ناظر ومتامل .. كانت فاتنة بذراعيها المستديرتين اللتين يزينهما اسواران براقان ، كانت فاتنة بجيدها الرخص الذي يحليه عقد من اللؤلؤ ، كانت فاتنة بضفيرتها المتروكة على سجيتها ، كانت فاتنة بلفتتها ، وحركتها ، ونظرتها ، وبسمتها ، وكانت فاتنة بقدميها الصغيرتين ، ويديها ووجهها !

الا ان في روعتها تلك كمن شيء رهيب ، شيء يمتاز بالقسوة المخيفة . انها الروعة الباطشة .

ولما تبادل الراقصون والراقصات المواقع ، ودنا منها فرونسكي . كانت كاترين امراة غيرها ، كانت تختلف في كل شيء ، حتى في هيأتها ومنظرها .. ولكي يقول هو شيئا فلا يبدو بمظهر الشذوذ ، قال لها ولبه شارد وقلبه موزع :

« انها حفلة رائعة ، لم اشاهد لها مثيلا ! » واجابت هي : « اصبت! » ولما لبت نداء انا مع امراة اخرى ، ودنت منها في وسط الحلقة وهي

لا تخفي امتعاضها ، ورنت اليها متأملة ، وابتسمت وهي تطرق براسها وتضغط على يدها . الا انها ما كادت تلمح نظرة اليأس التي اجابت كاترين بها على ابتسامتها حتى اشاعت عليها ، وشرعت تبادل الحديث مع المراة الاخرى وهي تضحك ضحكا متواصلا . وقالت كاترين تحدث نفسها : « اجل ان فيها شيئا مريبا ، ان فيها شيطانا مريدا ، ولكنه شيطان فاتن قاهر ! » وانتهى الرقص ، فذهب البعض وبقي البعض وتفرق من بقي في انحاء القاعة .

ووقفت انا كارنينا مع رب البيت . وكانت تعرب له عن رغبتها في الذهاب . الا ان الح عليها ان تمكث فتشاركهم في تناول طعام العشاء .

وايقن الرجل انها ذاهبة بالرغم من ابتسامتها اللطيفة .

واستانفت انا تقول : « علي ان اذهب لاني رقصت الليلة اكثر مما رقصت في سنة كاملة ! »

والتفتت الى فرونسكي الواقف قريبا منها وعقبت بعد هنيهة : « بخلق بي ان اهجع واستريح قبل ركوب متن السفر بعد ساعات » فارتعش فرونسكي وانبرح يقول منفعلا :

« وهل انت مزمعة على مبارحة موسكو غدا ؟ » قالت : « هذا ما انويه » .

وحدجته بنظرة تنم عن تعجبها لجرانه في طرح الاسئلة .

ولم تمكث انا بل استاذنت ومضت في سبيلها ، الى بيت شقيقها .

* * *

وانا كارنينا امراة الفتنة والجمال ما كذبت في صباح اليوم التالي الحفلة الساهرة الا ان ابرقت لزوجها في بطرسبرج تنبئه بقدومها .

وكان القطار المسافر الى بطرسبرج يغادر محطة موسكو في السابعةمن مساء كل يوم ، وقد قضت انا النهار بطوله في بيت اخيها ، ثم تناولتالطعام مع زوجة اخيها . بيد ان الزوجة والاولاد راوا فيها اليوم ما لم يروه من قبل . وقد عجبت داريا لما شاب حركة هيائها من تبدل ولكنها نسيت هذه الظاهرة انشغال بالها في التاهب للسفر ، والى انفعالها لوشك مغادرة اخيها واولاده الذين كلفت بهم كلفا شديدا ، كما خيل اليها .

واخيرا عندما تململت القاطرة ، ونفخت ما في جوفها من نار وبخار ، ودعت انا اخاها وتهالكت على المقعد الوثير وهي تتمتم قائلة : « انتهى كل شيء ، والحمد لله على نعمائه ! »

ودنت من النافذة ، وجعلت تلوح لشقيقها مودعة ، ثم عادت تخاطب نفسها وتقول :

« الف شكر لله ، سارى غدا « سيرج » و « اليكسيس كارنين » ، وستعود حياتي الى مجراها الطبيعي ، فتوضع الامور في نصابها ، وبستريح الضمير ، وتقر العين . « وما لبثت ان فتحتحقيبة السفر الحمراء وتناولت من داخلها وسادة ناعمة صغيرة وضعتها على ركبتها ، وغطاء دثرت به قدميها » والى جانبها كانت امراة كسيحة تغط في نومها بينهما امراتان تتجاذبان اطراف الحديث .

ولما ايقنت ان حديثهما لا يثير انتباهها بل يسبب ضجرها ، اخرجت من حقيبتها كتابا انكليزيا ومقطعا للورق ، ثم طلبت من خادمتها ان تنير المصباح وتعلقه وراء ظهرها .

ولم تستطع في اول الامر ان تسترسل في القراءة ، فقد كانت الضجة واللغط شديدين لدرجة تعذر معها على انا ان تركز افكارها في المعاني .

وانساب القطار في سيره السريع فاستحوذ من انتباهها ندف الثلج المتلاطم بزجاج النافذة ، وانصتت اخيرا لما كان يقال عن العاصفة الثلجية الهوجاء التي تزار غضبى في الخارج .

ومضى الوقت وانا لا تقرأ ، والاسباب التي تبعد بينها وبين الكتاب واحدة لا تتبدل . وعزمت في النهاية على ما عجزت عنه طويلا ، فاقبلت على الكتاب تتصفحه ففهمت كلامه ، ولكنها كانت تطالع كارهة .

فهي حينما قرات ان بطلة القصة كانت تمرض رجلا سقيما ، ودت لو كانت تتحرك بهدوء في غرفة رجل برحت به العلة .. وهي حينما قرات عن عضو في البرلمان يلقي خطبه مستفيضة ، هفت نفسها الى الاقتداء به في القاء الخطبة .. وهي حينما قرات عن غادة اذهلت الناس بجراتها ، خيل اليها انها في نفسها تلك الحسناء الجسورة .. ولكنها لا تفعل شيئا . ولن تسنح لها فرصة للقيام باي عمل .

وعلى انها لم تفهم المعنى « ولا فهمت المبنى » ورات نفسها مسوقة الى التفكير بموسكو ، وبالحفلة الساهرة .. وبفرونسكي ..

وشاهدت الشاب الوسيم ، وابصرت عينيه .. ولمحت في تينك العينين المنهومتين دعوة وتوسلا واستعطافا !

واطرقت والعرق البارد يتفصد به جبينها .. وعجبت وتولاها الشدة ـ اتخجل ! ولم تخجل ؟ ومم تخجل ؟.

والح عليها هذا الشعور حتى فقدت معه كل صبر التمسته من الارادة، وانشأت آخرا تحاور نفسها حتى تقنعها :

ماذا دهاني ؟ وهل انا سريعة الوهم ؟ ؟ هل اخاف منه ؟ وما معنى الشعور بتانيب الضمير ؟ اجرى بيني وبينه امر ما ؟ وهل يمكن ان يجري ؟ كلا .. كلا ..

واضاءت فمها بلومة استخفاف ، وهزت راسها كانها تنفض من ذهنها ما الح عليها ، وعادت الى كتابها تقلب صفحاته ، وتحاول عبثا ان تقرأ كلماته . واحسب فجاة انه يجب عليه هو الآخر ان يخجل من نفسه ..

ولكنها عادت تتساءل عن السبب ، وهل صنع ما يوجب الخجل ؟ وهل اقترف ذنبا ، او اتى منكرا ؟ وهزت راسها بانفعال وغضب والقت الكتاب من يدها ..

وتوقف القطار فنهضت انا واشارت الى خادمتها ان تناولها قبعتها ومعطفها ، وهمت بالباب ففتحته وهي تقول : « اريد ان استنشق الهواء الطلق ، فالهواء كريه في الداخل ، وهو مشبع بالروائح » .

.. وتعاركت قليلا مع العاصفة وهي تخرج ، وسرتها المعركة ، فاندفعت غير آبهة لبرد او مكترثة بريح .

وكان الرجال يهرولون في حركة سريعة دائبة ، وهم يتبادلون الحديث ويضحكون . ورجعت بعد دقائق الى المركبة فوضعت قدمها على درجتها وهمت بالصعود ، ولكن رجلا يرتدي معطفا عسكريا مر في تلك الفينة تحت مصباح الافريز ، فرمته بنظرة متفرسة ، وايقنت والدهشة تعقل لسانها انه فرونسكي . ومال الفتى نحوها رافعا بيده قبعته عن رأسه ، وقال وهو ينحني : هل هناك ما استطيع اداؤه لك يا سيدتي ؟ »

فرنت اليه طويلا ، وخيل اليها رغم الظلمة المحيطة بها انها تتبين جيدا نظرة عينيه ، وتعبير وجهه .. وكانت تلك النظرة تتحدث من تلقاء نفسها عن حبه وهيامه ، بل عن تقديسه لها ! وكانت قسماته وامائره تشي كلها بخضوعه التام وتسليمه المطلق ! ما اكثر المرات التي اكدت فيها لنفسها ان ما بينها وبين فرونسكي لا يتعدى ما بينها وبين سائر الرجال الذين تعرف، وانها لن تسمح لنفسها ابدا ان تشغل راسها بالتفكير فيه .. الا انها ما كادت تلمحه الان حتى دهمها شعور عارم بالمسرة والغبطة . ولم تكن في حاجة لتتساءل عن سبب مجيئه ، فهي واثقة من انه شعر بوجوب الذهاب الى حيث تذهب هي .

وما عتمت ان قالت وهي تقطب : « لم اعلم انك مسافر كذلك ، فلم جئت ؟ وماذا جعلك تغادر موسكو ؟ »

وبرقت السعادة في عينيها كومضة من نار ، وشع وجهها حتى لكان هالة من هناء تتكون حوله . واجاب الفتى بجاش رابط : « تسالينني عن السبب ؟ اما تعلمين اني جئت لكي الازمك ؟ اما تدرين ان لا حيلة لي في ذلك ؟ »

واردف وهو يقول بصوت مهموس ذليل : « اصفحي عني ، ولا تغضبي لقولي ، فما قلت الا الصدق ! »

لقد تكلم بمذلة العاشق ، ولكن صوته كان يحمل في طياته الكثير من العناد والاصرار .. بل المزيد من العزم .

وقالت اخيرا وهي تقاوم معركة نشبت في داخلها : « هذا خطأ ، لقد اخطأت كثيرا ، وارجوك ، بل اضرع اليك ان تنسى ما قلت كما اني سانساه انا » . قال : « دون هذا حرق القتاد .. لن انسى ولو حاولت النسيان.. كل كلمة نطق بها فمك ، وكل نظرة رمتها عيناك ، قد حفرا حفرا في عقلي وقلبي ! » فهتفت بصوت متهدج : « كفى .. كفى .. » وحاولت عبثا ان

تكسب ووجهها ، الذي كان يرمقه بشغف وحب ، مظهر الغضب والتبرم .
وما أبطات بعدما اخفقت في محاولتها ان تفرت الى داخل العربة .
ولكنها ما كادت تجد نفسها وحيدة في الممر حتى تريثت تفكر بما وقع لها الآن .. ومع انها لم تتذكر ما قاله وما قالته ، الا انها ايقنت من ان هذه المقابلة العابرة قد ادنتهما من بعضهما البعض لدرجة مخيفة .. فلهفت نفسها ، ولكنها فرحت وتولتها مسرة !

ودلفت الى مقصورتها وتهالكت على المقعد ، وهي نهبة لشتى المشاعر والخلجات .

وفي ساعة الصبح الباكر غلبها الكرى على امرها ، فاستسلمت للنوم، ولم تستيقظ الا والقطار يشرف على ارض بطرسبرج . ووصل القطار اخيرا الى المحطة . ولما دنا منها زوجها ، رمقته بنظرة فاحصة ، وراتا اذنيه ــ وكأنها تراهما لاول مرة في حياتها وتساءلت متعجبة عن سبب بروز هاتين الاذنين ، وصرامة هذا الوجه ، وافتقار زوجها الى الوسامة والقامة والجاذب !

وعاجلها زوجها بالتحية وهو يبتسم ابتسامته الساخرة التقليدية ، ويحدجها بنظرة متفرسة ومتاملة . وقد شعرت على التو بشيء يضغط على فؤادها ، وامتعضت وكأنها كانت تتوقع ان ترى شيئا اخر ــ ان تراه في شكل اخر وان تلقاه بعاطفة اخرى ..

وكان هذا شعورها الملازم لها كلما اجتمعت الى زوجها ، الا انها لم تعرف قبل اليوم ، او على الاصح لم تحدس حقيقته الا بعد اتصالها بفرونسكي !

وقال الرجل : « اجل ، ها انذا زوجك المخلص الامين ، اقدم نفسي وكلي شوق الى استقبالك ! »

ولم يخل صوته من لهجة التهكم التي تعهدها فيه ، وان كانت تعبر تماما عن صراحته ومشاعره الصادقة .. وقالت : « وسيرج ؟ اهو في صحة جيدة ؟ »

قال : « وهل هذه مكافأتك لي على شوقي ؟ انه في احسن حال ! »

اما فرونسكي فلم يحاول ان ينام في تلك الليلة . وقد لزم مقعده وهو يرقب كل حركة . كان بشخصيته القوية يؤثر على الناس بطبيعته التي توحي بالصرامة وعدم التردد ، اما ما انطبع على اساريره الليلة فهو العزم

والاصرار . وشعر نحوه بالكراهية موظف صغير كان يجلس قبالته ، وكان مبعث كرهه ونظرته المتحدية المحتقرة . وطلب منه الموظف نارا ثم حاول ان يجاذبه اطراف الحديث .. وتعمد اخيرا ان يعبل عليه حتى يشعره بانه ليس مجرد شيء بل انسان مثله !

بيد ان فرونسكي نظر اليه كما ينظر المصباح ؛ فتهجم وجه الفتى ، وشعر بانه بدا يفقد ثقته بنفسه تحت وطأة هذه النظرات التي تابى ان تعترف به كانسان !

لم يبصر فرونسكي شيئا ، ولم يبصر اي انسان . وشعر انه ملك ؛ ليس لظنه بانه استرعى انتباه انا واثر عليها — فانه لم يؤمن بهذا بعد — بل لان التأثير الذي احدثته انا في قلبه وشعوره سبب له السعادة والاعتزاز وكثيرا من الاعتداد .

ولم يخف عنها الحقيقة ساعة صدفها لدى مخرج عربة القطار ، بل جهر بما يكنه لها في صدره .. وسره ذلك ، سره يقينه بانها محيطة بما لها بين حوائجه ! وصل القطار الى بطرسبرج فترجل منه وهو يشعر ، رغم ارقه وتسهده ، بالقوة والنشاط . ووقف في مكان يرقب نزولها وهو يعني نفسه برؤيتها وسماع صوتها . ولكنه قبل ان يبصر بها ، وقع طرفه على زوجها الذي كان يمشي مرفوع الراس يتبعه ناظر المحطة .

في تلك الغينة فقط تذكر فرونسكي ان هناك انسان متصلا بها اتصالا وشيجا ، وان هذا الانسان هو زوجها ! زوجها !.. كان يعلم ان لها قرينا ، ولكنه انكر وجوده ولم يعترف به .. ورآه الان ، ورأى راسه المرفوعة ، ومنكبيه وسرواله الاسود الضيق ..

واضطرب فرونسكي اضطراب الاشمئزاز حين رأى ان كارنين يقدميه الضخمتين وبديه المهتزتين . اما هي ، فكمهده بها جميلة فاتنة ومنظرها يثيره بهجة ويملأ روحه املا ويأسا اجل املا ويأسا !

وبدا له ما رآه ان انا بعيدة كل البعد عن زوجها — بمشاعرها وافكارها — وانا تعيش في منأى عنه لا يصلها به الا رابطة الزوجية ، اما العاطفة فليس لها في قلبها وجود ! فهي لن تحبه قط !

وسره هذا الاكتشاف فتقدم نحوهما بطيئا متئدا . وايقن ونفسه جذلة انها شعرت به يدنو منها ، فتململت في مكانها وكانها تود ان تلتفت ولكن لا تجرؤ .. وواصلت حديثها مع زوجها ، وانتظرت .. اجل هذا ما

ايقن منه .. انتظرت .. وقال وهو ينحني مسلما باحترام :
« عسى ان تكوني قد قضيت ليلة مريحة في القطار يا سيدتي ! »

وغضت الفاتنة من عينيها قليلا ، ثم رفعت راسها .. فلم ير في اساريرها ما رآه قبلا من نظرات الدعابة والمرح ، بل شاهد عوضا عن ذلك ، شعلة عجيبة تضطرم بها عيناها لحظة خاطفة . فيها آية الحب الكبرى « وشعلته الخالدة التي لا تخمد ولا تنطفىء . والتفت الزوج الى فرونسكي ، ولمعت عيناه كمن يلتهب غيظه ، ونظر اليه شزرا ، وجعل يقدح زناد ذاكرته لعله يحدس من يكون هذا من الناس .

ولكن انا سارعت تقول وهي تحاول ان تنقذ الموقف : ذرني يا عزيزي اقدم لك الكونت فرونسكي : فقاطعها زوجها ببرود وهو يمد يده الى فرونسكي : « يخيل الي اني اعرفك ، اما تقابلنا من قبل ! » واستدار الى زوجته واردف باللهجة ذاتها : لقد ارتحلت مع الام وعدت مع الابن كما ارى ... »

ولم يفتها المعنى الذي رمى اليه زوجها ، ولكنها تغاضت متجلدة ولم تقل كلمة . ومضى زوجها وهو يثني الى فرونسكي :
« الم يبق لك مارب في موسكو حتى رجعت ؟ ام انك قادم في اجازة ؟ »
وعجل يخاطب زوجته :
« ما اصعب الفراق يا عزيزتي ! الم تذرفي الدموع ساعة غادرت موسكو ؟ »

وكان يقصد من كلماته ان ينبه فرونسكي الى رغبته في التفرد بزوجته .. ولكن الشاب تجاهل الغاية وضرب صفحا عن المرمى ، وقال :
« لشد ما اتلهف الى زيارتكم في اقرب وقت يا سيدتي ! »
فحدجه كارنين بعين اللائم المتبرم وقال : « لق ان زيارتك تجلب لنا المسرة يا سيدي ، ونحن نمكث في البيت دائما يوم الاثنين من كل اسبوع ! »
واستدار كأنه يريد ان يشعره بانه لا يرغب في متابعة الحوار ثم تأبط ذراع زوجته وقال :
« اكثر ما يسعدني يا عزيزتي انتهاز دقائق من وقتي لاراك فيها واملي طرفي في حسنك . وامتع نفسي بالاصغاء لكلماتك ! »
فقالت مازحة : لا تبالغ في وصف اخلاصك . فانا لا اقدر الامور بما تستحقها ! »

وانصتت دون انتباه الى خطوات فرونسكي المبتعدة ، وشعرت ان قلبها يرافقه ، وان روحها عصت جسدها ، وعصت عقلها !

ان لشبابه بردا قشيبا .. ولكنها استشعرت الندم ، وشاءت ان تتدارك الامر ، فسألت زوجها عن ولدها «سيرج» ، وعن صحته وتصرفاته. فما كان من الرجل الرصين الا ان اجابها مبتسما :

« روت لي الحاضنة « ماربينا » انه لم يفرط قط في المرح والسرور كما افرط اثناء غيابك ، وهذا يدلك على ان زوجك هو الوحيد الذي افتقدك ! »

فقرقرت انا ضاحكة . واستطرد هو يقول : وثمة انسان اخر كان لا يفتأ يسأل عنك وكأنه يتعجل اوبتك وهذا الشخص هو صديقتك «الكونتس ليديا ايفانوفنا » .

وصمت فينة ثم اردف كمن يتذكر شيئا غاب عنه « وهل صادفك التوفيق في مهمتك ؟ هل نجحت حيث اخفق غيرك ؟ » فلاح البشر على محياها واجابت »

« كل التوفيق والحمد لله .. لقد كان الخصام على اشده بين اوبلنسكي وزوجته ولولا وجودي لانفصل الاثنان وتصدع البنيان وتشتت الاسرة » .

طفقت تقص عليه بالتفصيل دقائق رحلتها برفقة الكونتس فرونسكي الى موسكو ، وما شاهدته من حادث مروع في المحطة .

وقال زوجها بعد انتهائها من سردها : اني وايم الحق لا آخذ ما اعلل به جنوح اخيك سوى ميله الى المتعة المحرمة واللذة المبتذلة التي لا يستسيغها كل ذي حصافة وارادة » .

فرنت اليه انا مبتسمة متفكرة ـ انه كعهدها به صارم في نظرته وتفكيره لا يطيق الانحراف .. وكانت انا تكبر فيه هذه العادة ، كانت تشق به وتحترمه لخلقه ولطبعه فهو لا تروقه المباذل التي ينغمس فيها سواه من الرجال ، وهو يأنف من مصادقة ايا كان ، متى ارتاب في امره ونواياه .

وقال الرجل : « على اني مسرور لنجاحك في ازالة الغمامة التي ظللت سماء العائلة » . ان شعاع الرجل يدل على شمسه ، وان هدوء في القول والتفكير لابلغ دليل على رجاحته واتزانه .. وقد خجلت انا ساعة انثنى يقول بغتة : « اخبريني يا عزيزتي عن موقف الاهلين في موسكو حيال التجنيد الاجباري الذي الرت موضوعه اخيرا في الحكومة » .

اجل ، خجلت انا لانها اهملت شأن زوجها . فلم تفكر فيه دقيقة ، ولم تحاول سبر آراء الناس في ما يعني زوجها من امور السياسة ، بيد انها ، وقد كانت تعرف في زوجها ميله الى الاطراء والثناء ، طفقت تسأله بحمية وحماس عما انتهى اليه مشروعه ، وعن المراحل التي مر فيها وينتظر ان يمر فيها اثناء الايام المقبلة .

وسر كارنين لاقبال زوجته واظهارها كل هذا الحماس ، فاجاب :
« ان مشروعي يا عزيزتي وليد تفكير واعداد طويل . لهذا لم يدهشني ما صادفه من معارضة وتأييد .

ونظر الى ساعته ، واردف : « اما الان فانا ذاهب ، يجب ان اذهب الى عملي ، وثقي انني جد مغتبط لعودتك » . فتمتمت بصوت خافت : « لترافقك السلامة يا زوجي ! »

واتبعته بنظرها ، وناجت نفسها . « خير الرجال .. افضل الازواج .. بارع ، بارز ، مخلص » .

فهل توخت من كلماتها ان ترجح كفته على كفة سواه ، هل تحارب احساسا غامضا بصرفها عنه صرفا شديدا ؟ وقالت فجأة : « غير ان اذنيه .. اذنيه .. لماذا طالتا وانتفختا هل حلق راسه ؟ هل ازال كثيرا منه ؟! » وانتقلت بمخيلتها الى فرونسكي ، فرأته واعجبت به ، وتساءلت مغضبة : تبا له كيف نظر ! كيف نظر الي ! » وهزت راسها واستقلت العربة .

ولما ترجلت امام منزلها هرع اليها ابنها سيرج فضمته اليها في حب وشوق ، وطبعت على وجنتيه قبلة اودعتها اغلى عاطفة ، قبلة مخلصة لا زيف فيها ولا رياء .. قبلة ام .

وفاءت الى نفسها وعاودتها طمأنينتها ـ فهنا ملجأ امين .. هنا لا تساومها عين جميلة ، ولا وجه وسيم .. هنا مملكتها الصغيرة ـ ونسيت فرونسكي ، ونسيت خجلها ، ونسيت تأنيب ضميرها ، وما فكرت الا في بيتها وفي ولدها وفي زوجها .

شرعت بعد قليل تسخر من نفسها ـ كيف تعجب بشاب لم تره الا مرات ! ثم كيف تفكر فيه وكلامه ليس فيه اغراء ولا بارقة ذكاء .. وقالت تناجي نفسها : « والاجدر بي ان ازيل من ذاكرتي ما صادفني وما طرق سمعي ، فلا احدث زوجي بأمر تافه لا يستأهل التفكير ! »

فقد علق بها شاب يعمل تحت امرة زوجها ، وجعل في كل مناسبة

يتودد اليها ثم حاول ذات يوم ان يبوح لها بلواعج قلبه ، من مآقيه .. فما كان منها الا ان اسرت الخبر الى زوجها . فلم يحفل ، بل صارحها القول بانه لا يخاف عليها ، لانه يعلم ما تتحلى به من صفات المنعة والقوة والشرف.

وشخصت الى اعلى ، وقالت : فلا موجب اذن لمفاتحته في امر تافه ما دمت شريفة طاهرة لم اجترح اثما ولم ازر وازرة ! »

* * *

اصاب كاترين بعد تلك الوليمة وصب شديد ، وكانت الاسرة في غنى عن هذه المتاعب ، كانت في غنى عن المداورة في مسألة زواج كاترين .. فليفين خير شاب ، ولكن ...

لم يخف احد من سوء العقبى ، ونظروا الى فرونسكي كانه الزوج المثالي .. وراته كاترين ببصرها لا ببصيرتها ، فلما ذهب ، وخيل اليها ان كل شيء ارتبط بمسالتها قد انتهى الى زوال ، اجتمعت الامور كلها على اثارة شجنها ، واستفزاز المها ...

وافعم قلبها بالحزن ، فنحل عودها ، ورق جلدها ، وتولاها شحوب واصفرار .

* *

ولى فصل الشتاء ، وخفت وطاة البرد ، وعقد في بيت آل شرباتسكي مجمع طبي للبت في حالة كاترين الصحية ، والاجراءات التي يجب اتخاذها حتى تستعيد الفتاة قوتها . وقد اعطاها طبيب العائلة جميع انواع المقويات الشائعة كزيت السمك ، ثم مشتقات الحديد ، ثم نترات الفضة . غير انه نظرا لعدم حصولها على الفائدة المتوخاة من الاول والثاني والثالث ، رات العائلة انه يتحتم الاستعانة بنطاسي شهير .

وكان النطاسي البارع شابا جميل الصورة الى درجة متناهية ، حتى ان رب العائلة احتار في امره ، ولم يعرف كيف يستطيع ان يسمح له بفحص الفتاة ! ولما اجرى فحصه اخيرا قال ان حياء الفتاة من الوقوف عارية امام الطبيب لهو من قبيل البربرية ، وانه امر طبيعي ان تفعل ذلك دون تحرج .

وكان لا يرى شيئا مستهجنا في وقوف كاترين امامه عارية فهو يرى كل يوم في عيادته الوانا جديدة من اجسام النساء ، حتى اصبح كل اعتراض من هذا القبيل يثير دهشة واشمئزاز .. وليس غريبا ان يعتبر تحرجها من الاقدام على هذا الفعل نوعا من الهمجية والبربرية !

ولم يجد آل شرباتسكي مندوحة من الاذعان اخيرا . ومع ان جميع

الاطباء تلقوا فنهم في معهد واحد ، ودرسوا في كتب واحدة ، ومع ان بعض الناس زعموا ان هذا الطبيب الذائع الصيت لا يعرف من الطب الا اسمه ، ولكن ذوي الاميرة الام والمقربين اليها راوا بل سلموا جدلا بان هذا الطبيب وحده قادر على معالجة كاترين وشفائها من وعكتها .

واجرى الطبيب فحوصه الدقيقة على الفتاة العارية الغارقة في عرق الخجل والحياء . ولما انتهى بعد ساعة ، غسل يديه بعناية ، ووقف مع الامير الاب يحدثه بصوت منخفض .

وقد اصغى اليه الرجل وهو عابس مقطب ، وسمل سعال من لا يريد ان يصغي الى لغو من الحديث .. وكان قليل الايمان بالطب ، يمج الاطباء ، ويمقت هذا الطبيب بنوع خاص لغرابة اطواره ، وشذوذه في بادية اعماله . وعلق ، وهو يصغي مكرها الى شرح الطبيب ، يحدث نفسه بقوله : « يا للمغرور الاحمق ! يا المغرور الاحمق ! »

وقد بادله الطبيب شعور الكراهية ، والاحتقار ، ولكنه كتم ما خالج احساسه ، واخفى احتقاره وكرهه تحت قناع الجد والصرامة ، وكان يشعر وهو يكلمه انه يجور على نفسه وعلى وقته ، وان عليه ان يخاطب الاميرة الزوجة في شان ابنتها . ودخلت الاميرة في تلك اللحظة وبرفقتها طبيب العائلة . فانسحب الاب وقد اصابته سورة من استهجان لهذه التمثيلية التي طالت فصولها .

وكانت الاميرة موزعة الافكار ، مضطربة مرتبكة ، تشعر بانها مذنبة تجاه ابنتها لانها السبب في ما حل بها واصابها .. فلما دنت من الطبيب الشهير قالت تخاطبه . « قل يا سيدي الطبيب ، ماذا وجدت ؟ »

وودت ان تضيف الى كلماتها هذه الكلمات : « هل هناك امل ؟ »

فلم تستطع ان تنطق بهما ، بل رددت : « قل يا سيدي الطبيب ! »

قال : ساطلعك على كل شيء يا سيدي ، بعد ان اخلو قليلا الى زميلي »

فلما انفرد الطبيبان بعضهما البعض ؟ شرع طبيب العائلة يشرح وجهة نظره ويبين لزميله ما توصل اليه . وقد زعم له ان كاترين مصابة بالتدرن الرئوي . ومضى يتكلم ، والطبيب الكبير يصيخ صامتا مقطبا . وقاطعه اخيرا فقال : « قد تكون مصيبا ، ولكن .. » واصغى طبيب العائلة بانتباه . واستطرد النطاسي يقول :

« ولا يغرب عن بالك ما نلقاه من صعوبة في تشخيص التدرن في اول امره ، وما لم تظهر العوارض الثابتة استعصى علينا التشخيص والتحليل .. بيد ان هناك علامات بينة ـ الضعف ، والانفعال ، والاضطراب وهلم جرا . وعلينا الان ان نقرر الطريقة المثلى التي يخلق بنا اتباعها لمقاومة الانهيار ، وتغذية الجسم المصاب او المعرض للاصابة .. »

وقال طبيب العائلة وهو يبتسم ابتسامة ماكرة :

« الا ان علينا دائما ان نأخذ بعين الاعتبار الاسباب الروحية ، وهي الباعث الاساسي ، والعامل الاول على انهيار المقاومة لدى المريض او المتعرض للمرض » . فنظر الطبيب الكبير الى ساعته واجاب : « نعم ، هذا امر مسلم به .. »

ونظر الى ساعته ثانية واستطرد : « علي ان اغادر هذا المنزل بعد دقائق .. آه ماذا كنا نقول ؟ التغذية .. اجل التغذية .. ثم تقوية الاعصاب .. وهذان الامران صنوان لا يفترقان، ويجدر بنا ان نركز عنايتنا عليهما معا » . فقال طبيب العائلة : « وماذا ترى في جولة ترفيه الى الخارج ؟ »

قال : « لست من الميالين الى هذا الضرب من العلاج، واذا كان المرض قد دخل في مرحلته الاولى فما نفع السفر ؟ وهل يجدي الحل والترحال قليلا في شفاء المريض ؟ اما الامر الذي يجب ان نقصر عليه عنايتنا فهو التغذية ، اجل التغذية » وجعل النطاسي الشهير يصف الطريقة المثلى لتقوية شهية كاترين وحثها على الاكل . واصغى طبيب العائلة بانتباه واحترام لاراء زميله ، ثم قال : « الا ان الام تحبذ السفر الى الخارج، كما اؤيدها انا في رايها ، لان الابتعاد عن موطن الذكريات لهو انجع علاج للقلب والروح والمشاعر » .

قال : فلتذهب اذن ، ما دامت الام تصر على ذلك » . ثم نظر الى ساعته ، وتابع : « آه ، لقد سبقني الوقت ... »

وعجل الى الباب، فالتقى الاميرة ، وطلب اليها ان تقوده الى كاترين .. فهتفت منذعرة: «افحص طبي اخر ؟ اتود ان تفحصها للمرة الثانية؟»

قال : « كلا .. كلا .. بل اريد ان اطرح عليها بضعة من الاسئلة او بعبارة اصح ، ان اشرح الامر قليلا » .

فقادته الام الى قاعة الاستقبال . وكانت كاترين هناك !

وطلب الطبيب الشهير اليها ان تجلس . وجلس هو تلقاءها وطفق مرة اخرى يلقي عليها اسئلته المحتملة ، ويجس نبضها ويتحسس جبهتها.

واحتدم غيظها على حين غرة ، فقالت بصوت متهدج :

« المعذرة يا سيدي الطبيب ؛ ولكني لا ارى فائدة فيما تفعل ، فقد اعدت اسئلتك ، وقد تحسست رسغي وجبيني اكثر من عشر مرات ، فما معنى هذا ؟ »

فلم يحفل الطبيب كلامها ، بل استدار الى امها ساعة اندفعت كاترين خارجة ، وقال : « انفعال مصدره الوهن .. ضعف شديد في الاعصاب ! »

ثم انشأ يشرح للام من الوجهة العلمية، بصفتها امراة خارقة الذكاء ، حالة ابنتها .. وقد أصر عليها ان ترغمها على تجرع نوع خاص من المياه المعدنية ولما اخذت رايه في السفر ، استغرق الطبيب في الفكر، وكانه يحاول ان يبت في مشكلة خطيرة ، واخيرا نطق بحكمه فقال: في استطاعة كاترين ان تسافر شريطة ان لا تستامن اي طبيب اجنبي ! »

وجاءت داريا ، فجلست مع امها وشقيقتها « ثم دلف الامير الاب الى الحجرة ، فقدم خده لابنته داريا ، وقال موجها الحديث الى زوجته : « امصممة انت على الرحيل ؟ وماذا فعلت من اجلي انا » قالت : « ارى ان تبقى هنا يا الكسندر ، على ان الامر موكول اليك يا عزيزي » .

واتبرت كاترين تقول : اماه لماذا لا ياتي معنا ؟ ان في رفقته متعة لنا ولـه » .

فدنا الامير من ابنته ومسح على شعرها بيده ورفعت الحسناء راسها ونظرت اليه متوسلة .

فلما التقت لحاظها بلحاظه في تلك الدقيقة تراءى لها انـه اكتنه مـا يختلج في اعماقها ، وسبر حقيقة العلة التي مغثت في صدرها . وتضرجت وجنتاها ، لقد علم ابوها من امرها ما حرصت على كتمه ! واقبـل الامير على داريا يحدثها حديث الاب الشفوق ، ويسالها عن زوجها ويستوضحها عن حالة بنيها ، ثم عطف فجاة عن كاترين وقال :

« أتدرين ما يخلق بك عمله يا كاترين ؟ يجب ان تنهضي من فراشك في ساعة مبكرة ، وان تقولي لنفسك كلما استيقظت : ـ انا على خير ما يرام، انا قوية سعيدة ، وساخرج مع ابي في جولة بعيدة » .

وحدجته الام بنظرة لوم وتقريع ، وقالت مؤنبـة : « اترى نتيجـة

دعابتك ، انت دائما .. » وانطلق لسانها في سيل لا ينقطع من الاتهام والتجريح .

واستخرطت الاميرة تبكي ، وتقدمت منه وهي تردد : « الكسندر .. الكسندر .. »

وهدات ثائرة الامير ، فضمها اليه وجعل يقول : « كفى .. كفى .. انت محزونة ايضا ، ولكن ما لنا عن الصبر غنى ، ولم يزل هناك امل في انقشاع الغمة .. »

وغادر الامير الغرفة ، وتبعته داريا ، ولكنها لم تذهب الى حجرته ، بل عرجت على شقيقتها في مخدعها .

الطبقة الراقية في بطرسبرج ، هي بالضرورة واحدة ، وفيها كل واحد يعرف كل واحد ، وكل واحد يزور كل واحد .

بيد ان هذه المجموعة العظيمة لها اقسامها وفروعها ، وكان لانا كارنينا اصدقاء مقربون تنتظمهم حلقات ثلاث .

الحلقة الاولى تلك التي تشتمل اصدقاء زوجها ، ومن تربطه بهم اواصر العمل .. وقد نظرت اليهم في اول الامر نظرة المهابة والاحترام ، ثم لطفت بدخيلتهم ، ورات مواطن الضعف فيهم .

والحلقة الثانية ، كانت الحلقة التي صعد زوجها بواسطتها درجات النجاح والشهرة ، وافرادها في الغالب عجائز بلغن من العمر عتيا ولكنهن اتصفن بدماثة الخلق والطيبة والاريحية . كما ضمت هذه الحلقة على نفر من الرجال الاذكياء المطلعين الطامحين بابصارهم الى الذروة .

اما الحلقة الثالثة التي توشجت الاواصر بينها وبين انا ، فقد كانت حلقة الحفلات والسهرات ، اي حلقة الدنيا ـ دنيا اللهو والمتعة « دنيا الطعام والشراب والازياء والبذخ ـ وكان محور هذه الحلقة الاميرة «بتسي» قريبة انا وفرونسكي في آن واحد .. وكانت هذه الاميرة ثرية يقدر دخلها بمئة وعشرين الف روبيل ، وقد مالت الى انا واحبتها وادنتها منها .

وكانت تقول لها في معرض الحديث عن الحلقة الثانية : « وعندما اصبح امراة طاعنة في السن اندمج في هذا الوسط الخرف ، اما وانت يافعة شرخة فلا تفعلي يا عزيزتي ، اجل لا تنخرطي في سلك نزيلات ماوى العجزة»

وقد تجنبت انا في البدء هذا الوسط المترف لان وسائلها المادية لا تتيح لها مجاراة المنتمين الى هذه الحلقة في بذخهن واسرافهن ، الا انها عقب

عودتها عاقت نفسها الحلقتين الاولى والثانية وطفقت تتردد على المجتمعات هاته الزهرات اليانعة حيث التقت فرونسكي ، ومرت في طور عجيب من السرور المضطرب اسفر عنه هذا اللقاء وما تلاه من اجتماعات .

ولم تشجعه على البوح لها بخلجات فؤاده ، الا ان كلماته كانت تجعلها تشعر بنوع جديد من انواع الحياة لا عهد لها به كانت تشعر ان حبورها يصعد الى عينيها بريقا ، والى شفتيها بسمة .. ولم يكن في استطاعتها كتمان ما بها ، فالشعور له صور شتى ، وطرقه معوجة لا قبل للمرء على عرقلتها . وكان فرونسكي في الاونة الاخيرة يكثر من زيارة الاميرة لما لاحظه من صداقتها المتينة لانا ، وكان يصبو دائما الى فرصة مؤاتية يستنحها للتحدث الى فاتنة لبه . وتناهى الى فرونسكي صوت خطى تقترب. فايقنت الاميرة بتسي ان القادمة هي انا كارنينا ، فنظرت الى فرونسكي . وكان الشاب يحدق الى الباب وقد كست وجهه نظرة عجيبة . ونهض متباطئا عن مقعده ودلفت انا الى القاعة وهي مرفوعة الراس منتصبة القامة، تمشي خفيفا ولا تلتفت ، ولا تطرف لها عين .. ولما وصلت الى حيث كانت المضيفة تقف ، حيتها بابتسامة وصافحتها ضاغطة على يدها بولاء ، وما عتمت ان استدارت الى فرونسكي وهي لا تزال تبتسم ، فاحنى فرونسكي قامته ، ثم قدم لها مقعدا .

فاومات براسها ، واحمر وجهها قليلا ، وانثنت تصافح الايدي الممدودة لمصافحتها ، بينما راحت تحدث بتسي وتقول :

« كنت في منزل الكونتس ليديا ، حاولت ان ابكر بالحضور ولكني مكثت مرغمة ، فقد كان السير جون هناك ، وهو كما تعلمين محدث بارع يستولي على الاسماع » .

وقالت احدى المدعوات : « احقا ما قيل لنا من ابنة الامير فلاديمير ستبعل للكونت توبوف » ؟ اجل ، وقد اتفقت العائلتان الكبيرتان .

وهل هو زواج سداه الحب ولحمته التفاهم ؟

وصاحت امراة : « الحب ؟ هذا هراء ! ما هو الحب واين نجده في هذه الايام ؟ » وقال فرونسكي : « الحب يا سيدتي اساس كل زواج » .

« كلا .. فالزواج السعيد هو الذي لم يكن وليد حب عنيف » .

وضحكت انا وضحكت المضيفة .. والتفتت الاولى بغتة فرات فرونسكي يرمقها بنظرة تفيض غراما .. فما كان منها الا ان خاطبته قائلة :

ورنا اليها الشاب بلحظة متأمل ، فراعه ما شاهده من جمالها ـ اذهله هذا الرواء العديم الذي نضج من قامتها ، وما ابطأ ان قال : « ومـــاذا تقترحين ان افعل ؟ » .

ونظرت اليه ثم اجابت : «اريدك ان ترحل عن بطرسبرج .. ان تذهب الى موسكو .. دون ابطاء ! » فقال وهو لا يرفع عينيه عن وجهها :

« متأكدة انت من رغبتك ؟ هل تريدينني حقا ان اذهب ؟ » فاجابت بصوت مهموس : « اجل ، اذهب الى موسكو ، الى كاترين ، واهتـدر اليها » .

ان كنت تحبني حقا ، فافعل ما اطلبه منك ، حقق رجائي حتى تعود الي طمأنينتي وهدوء حالي » .

« الا تعلمين انك الحياة كلها بالنسبة لي ! الا اني اتذوق طعم الطمأنينة والسلام . ولا يمكنني ان افكر فيك وفي نفسي كشخصين مفترقين ، فانت وانا في طرفي شخص واحد ، ولا اجد امل لنا في السلام ، بلى لا اجد املا لكلينا للشعور بالطمأنينة بل على العكس ارى شقاء وقنوطا » .

وسمعت كلامه كله ، واغمضت بعينيها ، ثم حددتهما في وجهه . وكانت نظرتها مفعمة بالحب .. ولم تحر جوابا .

وفكر انني اجني ما زرعت .. فعندما شرع الياس يتغلغل الى فؤادي، وخيل الي ان لا نهاية لهذا الامر ، اظفر فجاة بالمنى ، انها تحبني ! وهـي تعترف !

« اذن افعل هذا من اجلي ، لا تلقي على مسامعي مثل هذه الكلمات، ولتكن صديقين .. » قالت انا ..

فاجاب : « لن تكون صديقين وحسب ، وانت تعرفين ، فاما ان تكون اسعد اهل الارض ، واما ان تكون اكثرهم شقاء . وهذا منوط بك انت ! » .

وحاولت ان تجيب ، ولكنه استتلى بسرعة :

« ولي طلب واحد ، طلبي الذي اوجهه اليك هو ان تمنحني حق الامل في ان يكون لي الحق في الالم .. كما اتالم الان .. فان كان هذا ايضا غيـر ميسر لي ، فعريني ان اختفي ، ان ازول ، وسامضي الى المجهول ، ولـن يقع نظرك علي » .

« كلا ، فانا لا ارغب في ابعادك » . فاجاب وصوته يرتعش قليلا :

« فليبق كل شيء على ما هو عليه .. ها هو ذا زوجك انك مقبل » .

وكان كارنين زوجها يتقدم في تلك اللحظة بهدوء وثقة « وقد التفت الى زوجه وفرونسكي ، ثم توجه الى ربة الدار حيث جلس الى جانبها يحسو فنجان الشاي الذي قدم له ويجاذبها الوانا من الحديث ، بلهجته المتهكمة التي اصبحت ملازمة له لا تفارق طبعه ، وكانها سجية !

قال : « لله درك يا سيدتي ، فبيتك امسى ملقى الافذاذ من الرجال والنساء وهو وايم الحق اشبه بقصر « رامبوييه » في فرنسا » .

بيد ان الاميرة « بيتسي » لم تكن لتتحمل منه مثل هذه اللهجة الساخرة ، فبذلت وسعها حتى تمكنت من ارغامه على الخوض في حديث جاد رزين عن التجنيد الالزامي . ولما هاجمت المشروع وطعنت فيه نسي الرجل كل شيء اخر ، وجعل يدافع بحماس منقطع النظير عن الحافز الذي جعل الامبراطور يصدر مرسومه .

وهمست سيدة في اذن صديقة لها ولانا ، وهي تومض بعينيها : « هذا غير لائق ، انهما يرتكبان ما ينافي الادب ! » .

ولم تكن هاتان السيدتان هما الوحيدتان اللتان استهجنتا تصرف انا وفرونسكي ، بل ان جميع المدعوين قد اخذوا على الشابين شذوذهما ، وتهامسوا في شيء من الحنق عن اعتزالهما بقية الضيوف ، وكانهما لا يبصران في هذا المكان الا شخصيتهما .

اما كارنين ، فقد كان الشخص الوحيد الذي لم يلتفت اليهما « بل انه مضى يتحدث بحرارة وايمان ، وكان الامر لا يعنيه في قليل او كثير !

« وضاقت الاميرة بتسي ذرعا بتحول الافكار الى انا » فاحتالت على الانسحاب من مكانها ، واتجهت اليها وخاطبتها بصوت مرتفع :

« لشد ما يعجبني زوجك بحديثه الواضح المفهوم ، وبخيل الي كلما استرسل في كلامه اني اصغي الى الافكار سموا .. الى افكار لا تصدر الا عن رجل طويل الباع فائق الذكاء » .

فتلالا وجه انا واجابت : « اصبت اصبت .. » ولكنها لم تسمع كلمة مما قالته الاميرة بتسي .. فسعادتها كانت من نوع اخر .. وما لبثت ان نهضت الى المائدة الكبيرة « واشتركت في ما اخذ القوم به انفسهم من نقاش ولجاج .

وتحفز كارنين بعد ساعة لمغادرة المكان ، وطلب الى زوجته ان تتاهب للذهاب ولكنها اعتذرت له زاعمة انها ترغب في تناول طعام العشاء مع

صديقتها الاميرة بتسي . فلم يمانع الرجل او يصر على اصطحابها ، بل حيا الجميع مودعا ومضى في سبيله .

واصاخت انا لرفيقتها بانتباه . وكان الفتى يقول :

« لم تعدي بشيء ، ولن اطلب منك شيئا ، انك تعلمين ان الصداقة هي ليس كل ما ابتغي .. ان هناك سعادة واحدة فحسب ، وان هذه السعادة تكمن في كلمة واحدة تمقتينها انت ـ الحب ـ اجل ، الحب . ورددت انا الكلمة ببطء شديد : « الحب .. الحب .. » .

واستتلت بسرعة وهي تتحفز للصعود الى العربة : « انني امقت هذه الكلمة لانها تعني كثيرا بالنسبة لي ، بل لانها تنطوي على معان هائلة لا قبل لك على التكهن بها ! » ومدت اليه يدها وحدجته بنظرها ، ثم استقلت العربة .

* * *

لم يجد كارنين في تصرف زوجته في تلك الايام ما تلام عليه ، ولكن لم يفته ما طرا الضيوف من اضطراب ، وما اخذوا به انفسهم من الهمس واللغط . ولهذا تراءى له ان ما فعلته انا لم يكن يليق بها ، والى ان يحدثها بذلك صراحة لدى اوبتها .

وقلب الراي على مختلف وجوهه ، ووطن النفس اخيرا على مواجهتها بالحقيقة السافرة ، ومجابهتها بهذا الكلام .

« لا اجد لي مهربا من ايضاح النقط التالية لك يا عزيزتي : اولا : عدم الاستهانة بالراي العام والذوق واللياقة ، ثانيا : الحرص على صيانة المعاني الدينية للزواج ، ثالثا : التكهن بما عسى ان يلحق ابننا من المذلة ، رابعا : ما قد يجره هذا علينا من الشقاء والعناء ! » .

وارتفع في الخارج صوت عربة تسير صوب الباب ، فجمد الرجل في مكانه وسط الغرفة . وتناهى الى سمعه صوت خطى لامراة ، فضغط على يده .. ومع رضاه عن الكلمات التي اعدها ، بيد انه شعر بالخوف من التفسير والايضاح .. فلو سالته عن الاسباب التي حدته على مجابهتها بمثل هذا التحذير ، لاستغلق عليه الامر وارتج عليه القول .

دلفت انا الى بيتها مطرقة .

* * *

ولدى شعورها بوجود زوجها ، رفعت راسها وابتسمت ، وقالت وهي تترك قبعتها تسقط من يدها : « اراك ساهرا ، فما اعجب هذا منك ! » .

ومشت الى حجرة الملابس وهي تتمتم : « ان الوقت متاخر يا الكسي » .

قال : « انا لا بد لي من محادثتك » قالت متعجبة : « محادثتي أ » .

وتريثت لدى الباب واستتلت : « ولماذا أ وماذا تود ان تقول أ »

وجلست على الاريكة وتابعت : « هات ما عندك ان كان لا بد الليلة من الحديث ، مع اني افضل النوم على كل شيء اخر » .

قالت انا ما حضر بديهتها ، وعجبت ساعة سمعت نفسها ، لمقدرتها على الكذب .. فهي لا تشعر باي ميل للرقاد ..

وقال الرجل : « يخلق بي يا انا ان احذرك .. » .

فقاطعته مدهوشة : تحذرني ! ومم تحذرني أ » .

ونظرت اليه نظرة بريئة طبيعية ، حتى كان من المتعذر على كل امرىء لا يعرفها كما يعرفها زوجها ، ان يجد شيئا غير طبيعي فيها .

اما زوجها ، العليم بخلجاتها لاقبالها عليه في كل شعور يعتمل في صدرها ، تستشيره وتاخذ رايه ، فانه امسى قادرا ، بعد ان اظهرت عدم الاكتراث بما يجيش في صدره ، على معرفة الكثير من امرها دون كلام ولا استجواب .

ورأى ان اعماقها التي كانت مفتحة المصاريع له قد اغلقت الان الى الابد .. وفوق ذلك لاحظ من صوتها وحدته انها لاتعبا به . او بالاحرى لو علم ان قلبها قد انشغل بسواه عنه ! ...

بيد انه ناجى نفسه قائلا : « ولكن، ربما وجدت المفتاح ، فلاحاول ! » وانبرى يقول بصوت هادىء منخفض : « ارغب في تحذيرك من قلة الاكتراث، فالاهمال يثير القلة ، ويجعل المرء مضغة في الافواه ، وخلوتك بالكونت فرونسكي الليلة كان لها عواقب وخيمة ! » .

ونظر خلال حديثه الى عينيها الضاحكتين ، فلدعر اشد الدعر مما شاهده فيهما من الغموض والابهام ، وشعر بل ايقن ان محاولته عقيمة لا طائل تحتها .

واجابت آنا ، وكأنها لا تفهم ما يقول :

« انت لا تتبدل يا عزيزي .. تارة تندد ببرودي وجمودي ، وتارة تستهجن حيويتي ومرحي .. والليلة لم اكن جامدة ميتة المشاعر ، فهل اثقلت عليك أ هل آذيتك أ » .

وارتعش الكسيس كارنين ارتعاش الرهبة ، واجاب بلطف : « انا ! هل انت ، انت ؟! » .

فقالت بدهشة صادقة : « وماذا جرى ياترى ؟ وماذا تريد مني ؟ » .

وتردد كارنين وتحسس جبهته وعينيه . وقد رأى انه بدلا من ان يفعل ما عزم عليه من اطلاع زوجته ، او بالاحرى تنبيهها الى الاخطاء التي يراها الناس ويتشدقون بها ، عني كل العناية بضميرها واحساسها . ولم يلبث بعد قليل ان قال ببرود وهدوء :

« اضرع اليك ان تصغي لما اقول ، انني كما تعلمين اعتبر الغيرة شيئا ينطوي على الشين واربأ بنفسي عنها ، واضن بها من ان تسترقها الغيرة فتبددها . بيد ان هناك الذوق ، وحدوده ، وسدوده .. ولا يمكن للمرء ان يخترق الحدود ، ويحطم السدود .. لم ابال الليلة بما جرى ، ولكن التأثير الذي احدثه عزوفك عني كان مشينا للغاية ، بل اكثر سوءا مما تظنين ! » .

فهزت انا كتفيها واجابت بقلة اكتراث : « لا افهم ما ترمي اليه ! » .

واستلت فيما بينها وبين نفسها : « انه لا يبالي ، ولولا انتباهالضيوف للامر لما اضطرب وارتبك ! » .

واردفت بصوت مرتفع : « انت متوعك يا الكسي ... » وانصبت واقفة واتجهت صوب الباب . ولكنه خطا الى الامام كأنه يحاول منعها من الخروج .

وكان وجهه مكفهرا ، لم تره انا من قبل على تلك الحالة .. كان مزبدا ينطق بالثورة العارمة المعتملة في اعماقه .

وتربثت مجفلة ، ثم كتمت ما بداخلها من اشمئزاز ، وقالت وهي ترفع يدها الى راسها لتنزع من ضفيرتها الدبابيس المذهبة : « ها آنذا اصبح لك ، فهات ما عندك ، فانا مشوقة الى عجم عودك ، وسبر حقيقة نزولك!» .

وتولاها عجب شديد ـ فكيف تأتى لها هذه المقدرة ؟ كيف تستطيع مجابهته بمثل هذه البرود المتهكم .

« اني اعتبر التغلغل الى اعماق مشاعرك واحاسيسك تطفلا لا يحق لاحد ان يجنح اليه ، حتى ولو كان زوجك .. بل اني على يقين من ان لمثل هذه الخطوة عواقب وخيمة ، لان المرء اذا حاول استكشاف الروح رأى في الغالب ما يبطنه ويخيب امله .. فشعورك ملك لك ، شعورك موكول الى ضميرك ، غير اني اشعر ، بل اعتقد ان الواجب الذي يفرضه علي رباط

الزوجية ـ واجبي تجاهك ايتها الزوجة ، وامام الله ـ هو ان الفت نظرك الى واجبك انت .. لقد اندمجت حياتنا ليس بفعل الانسان بل بارادة من الله ، ولا يفصم هذا الرباط المقدس الا جريمة ، ولكل جريمة عقاب ! » .

وهتفت انا بسرعة : « لا افهم كلمة مما تقول ، وقد استولى علي النعاس ، فدعني اذهب الى مرقدي » .

فاجاب : « ناشدتك الله ان تقلعي عن هذه اللهجة يا انا .. ولكن لا يغرب عن بالك اني قلت ما قلت ، بحافز من المصلحة المشتركة بيننا ، فانا زوجك ، وانا احبك ! » .

وتلاشى من عينيها بريق التهكم ، واطرقت متاملة متفكرة الحب !وهل يستطيع ان يحب ، ولو لم يسمع عن شيء اسمه الحب لما نطق قط بهذه الكلمة .. انه لا يعرف معنى الحب ، اجل ، انه لا يعرف معناه !

ثم رفعت راسها وواجهته بنظرها وهي تقول : « ثق اني لا افهم مرادك يا الكسي ، فكن صريحا واوضح !

قال : « ذريني اكشف لك عما يعتمل في صدري ، اني احبك ، بيد اني لا اود ان اتحدث عن نفسي ، لان الشخصين اللذين اريد ان ارعى مصلحتهما هما انت وابننا . وربما اعتبرت كلامي هراء لا مثيل له .. وربما كنت مخطئا في رايي وتفكيري نتيجة الوهم الزاحف ، فان كنت كذلك فاضرع اليك ان تغفري لي وتصفحي عني ، اما ان كان لظنوني شبح من الحقيقة ، فاسالك ان تعملي الفكر ، وان تتروي ، وان تبتيني ما في صدرك .. ارجوك ! » .

وغاب عن بال الرجل القلق انه قال غير ما ازمع ان يقول :

وافتصت المراة ابتسامة مقهورة واجابت : « ليس لدي ما اقول ، وفوق ذلك فالوقت متاخر وعلينا ان نأخذ لنفسينا قسطا من الراحة » .

وتنفس الكسيس كارئين الصعداء ، ومشى بخطوات بطيئة على مخدع النوم .

ولما جاءت بعد دقائق الفته مضطجعا في الفراش .

واستلقت الى جانبه وانتظرت ان يتكلم .. انتظرت كلامه بمزيج من الخوف والرعدة والتلهف على سماع ما يود ان يفصح عنه . ولكنه لزم الصمت .. لم يغن عنها انتظارها شيئا .

وفجاة تناهى اليها صوت غطيط .. ثم انقطع الصوت كان الكسيس

خجل من نفسه .. ولكنه لم يلبث ان ارتفع ثانية متقطعا بلحن رتيب منتظم .

ومع ذلك فقد مضت عليها الدقائق وهي شاخصة الى السقف تفكر وتفكر وتتراءى لها ابان امعانها في الفكر ، انها ترى بعينيها وميض عينيها !

منذ ذلك اليوم بدات حياة جديدة في بيت الكسيس كارنين . لم يحدث شيء غير عادي ، واستمرت انا تخرج الى المجتمعات كما كانت تفعل . واكثرت من زياراتها لقصر الاميرة بتسي حيث كانت تجتمع الى فرونسكي. وكانت تلقاه في امكنة اخرى ايضا ، بل انها وجدته في كل مكان ذهبت اليه .

ورأى زوجها وابصر ، ولكنه لم يستطع ان يفعل شيئا ، فانها ظلت في منأى عنه ، تتجنبه وتبتعد عنه وتقفل كل باب للحديث يحاول فتحه .

وقد عافت محضره ، وصدفت عن الاجتماع اليه ، اما امام الناس فقد حرص الاثنان على الظهور بمظهر الزوجين المتفاهمين المتوايمين ، مع ان علاقتهما في المنزل كانت لا تفتأ تتدهور من سيىء الى اسوأ .

الكسيس كارنين ـ الرجل الشديد المراس ، الطويل الباع ، البارع العظيم القدر ـ هذا الرجل المشهور وجد حاله ضعيفا في بيته ، لا حول له ولا طول ، كالثور يحني راسه بخضوع انتظارا لضربة الفأس !

انه كل مرة حاول ان يفاتح زوجه بالامر كان يشعر كان روح الشر التي تهيمن على مشاعرها قد انتقلت اليه هو ، وانه اضحى مثلها منافقا مرائيا ، ولولا ذلك لما غير الموضوع وخاض في حديث اخر غير الذي بدا فيه !

وهكذا مر الوقت ـ . والرجل حائر في امره . والمرأة سادرة في هواها .

على مفرق طريقين . الفت انا نفسها . الى اليمين طهر وعفة ونقاء .. والى اليسار فحش ودنس ورجس .. فالى ايهما تتجه الفانية .. انها على مفرق طريقين تقف .. والقدر ينتظر .. وزوجها الملهوف ينتظر !

* * *

هذا الذي كان لفرونسكي الوتر الوحيد لحول مضى ، هذا الامل الجياش تحقق اخيرا ، وظفر فرونسكي بما اشتهى وابتغى .

ووقف فرونسكي تلقاءها اصفر الوجه ، مختلج الجفون ، ترعش حنكه رعشة الانفعال . وجعل يبتهل ويتوسل اليها ان تهدأ ، وان تسكن ، وان تخفف من غلوائها . وفي صوته نغمة استعطاف محزونة : « آنا ! انا لا تسترسلي فيما انت فيه ، ناشدتك الله .

ولكن صوته المتهدج المرتفع النبرة جعلها تسبل جفنيها ، وتحني صعدتها . وكان ان ازداد شعورها بالعار والصغار . ثم انهارت على الارض، قريبا من قدميه .

وما لبثت ان هتفت والهة : « المغفرة ، المغفرة .. لقد اذنبت ! » .

ما امر الخطيئة ! شعرت انا بالغضاضة ، شعرت انها خاطئة ، مجرمة، وان كل شيء صالح قد زال من حياتها ، وانها انخفضت الى الدرك الاسفل، وانه لم يبق لها سوى العقاب ، واستجداء الصفح .

على انه احس كما يحس قاتل يرى جثة ضحيته مسجاة تلقاء ناظريه.. انه حرمها من الحياة .. انه قتلها . . وها هي جثتها ـ الجثة التي حرمها من الحياة ، انها جثة الحب .. انها المرحلة الاولى من حبهما .

كان هناك شيء مريع يصنرع في مخيلته ، كان هناك فكر هائل عن الشيء الذي اشتراه بثمن العار الرهيب ـ العار .. او الشعور بالخجل من تعري روحيهما من لباس الحشمة والعصمة ، حطمها هي ، واذل كبرياءه هو !

على انه من الرعب القاتل الذي يواجه الجثة ، يتحتم عليه ان يمزق شلوها اربا اربا ، وان يخفي اجزاءها ، وان يمتع نفسه بما ظفر به عن طريق الجريمة !

وما هي الا فينة حتى القى فرونسكي نفسه على الضحية ، وسحبها ، واوسعها لثما وتقبيلا ، مثله في ذلك مثل القاتل الذي ينقض بجنون على جثة القتيل المضرج بدمه .

وقبلها في وجهها وكتفها وصدرها . وامسكت هي بيده ، ولم تبد حراكا لهذه القبلات ـ اي ذلك الشيء الذي اشترياه بعارهما ..

ورفعت يده الى شفتيها وقبلتها . وجثا فرونسكي على ركبتيه ، وحاول ان يرى وجهها . ولكنها اخفته لم تقل شيئا .

واسترجعت ما اذرته الخطيئة من راحة بال وضمير ، فانتصبت واقعة ودفعته عنها ، وكان وجهها جميلا كعادته ، ولكنه كان ينطق بالاسى ، وكان يستدر الاشفاق .

وقالت بصوت عذب حزين : « انتهى الامر ، ولم يبق لي الاك ، فتذكر هذا » . ورد عليها بصوت جهير : « لن انسى ما حييت اكسير الحياة ، لن انسى السعادة » .

وكان غضبتها تسرب منها شرر محرق الى نفسه ، فبدا متجهما عبوسا ،وحاول الكلام ، الا انها قطعت عليه الطريق قائلة : « لا تقل شيئا اصمت ! » . ونظرت اليه شزرا ومضت من المكان لا تلوي على شيء .

خليط من المشاعر غزا قلبها ، فلم تدر اهي حزينة ، ام جذلة ، ولم تدر اهي قانطة ام متفائلة ؟

وتعاقبت عليها الايام وهي اعجز ما تكون عن سبر غور هذا الشعور المتضارب .. وما اكثر ما خاطبت نفسها بقولها : « لا .. لا استطيع الان ان افكر في هذه المسألة ، وسافعل ذلك بعد ايام ، عندما تهدأ اعصابي ، وتخمد رقدة عذابي » .

على ان الهدوء المنشود ظل في منأى عنها ، وظل فكرها يخبط في الفضاء دون كابح ، كما ظل حلم واحد مزعج يوقظها كل ليلة من نومها مذعورة مزؤودة ..

كانت تحلم كل ليلة ان الرجلين اصبحا زوجيها ، وانهما يتقاسمانها ويتمتعان بمحاسنها .. وكان الكسي كارنين يذرف الدمع السخين فوق صدرها ويقول : « ما اسعدنا ! ما اسعدنا اليوم ! وفرونسكي كان معها ايضا ، وكان زوجا لها .. وكانت هي تشرح لهما الامر ضاحكة مغرقة في الضحك ، كانت تنبئهما انهم حازوا ما صبت اليه نفوسهم . .اليس في ما حظوا به ما لا يطمع باكثر منه انسان ، الا يشعرون جميعا بان الحياة استقام لهم معوجها ؟

بيد ان هذا الحلم كان يعذبها عذاب السعير .

* * *

ضاقت الدنيا في عيني ليغين ، وغدا بعد عودته من موسكو يفكر في خيبته المرة ، وفي هذا الفشل الذريع الذي مني به .

ومضت الايام ، فخفت وطأة غمه وشرح يقارن بين مصيبته الجديدة ومصائبه القديمة التي كان يظن كلما لحقت به منها واحدة ، انه لا بد منهار تحت وطأتها .. وها هي السنون تمر عليه ، فينسى ما كبده .

وناجى نفسه احيانا بقوله : « كنت اظن اني انتهيت ، ولكني حييت وقويت ، وسوف احيا واقوى ، ولن تنال مني خيبتي ما عجزت عن نيله آلامي البائدة ! » .

ومع ذلك فقد لبث يفكر بكاترين بمثل المرارة التي فكر فيها عقب اوبته .. وكان امله المنهار في بناء بيت وانشاء اسرة يمضه ويحز في قلبه . كان يحلم بالعيش النظيم ، وكانت احلامه بالزوج الجميلة والاطفال تداعب مخيلته ولا تفارقه ليلة واحدة .. ان السنين تمر عليه سراعا ، ومع ذلك فما زال بيته خاليا من المراة التي تزهو فيه وتشرق .

وجاء الربيع !

وفوجيء ليغين ذات يوم بمقدم صديقه اوبلنسكي ، فرحب به ترحيبا صادقا وان تغلبت لهجة التعجب والاستغراب على صوته وعبارته .

ولم يخف عن اوبلنسكي دهشة ليغين لقدومه ، الا انه لم يحفل ذلك ، بل انهى اليه بانه جاء ليستروح نسيم الريف ، وليمتع النفس بساعات هادئة يقضيها في الخلاء ، ثم ليبيع ما يملك من الارض في ذلك الاقليم .

واهتد بهما الحديث وتشعب في ذلك اليوم ، الا ان اوبلنسكي لم يذكر كاترين ، او يلمح بشيء عنها .

ومع ذلك ، فقد كان ليغين يفكر فيها طيلة الساعة التي قضاها مع صديقه في غرفة الاستقبال ، وكان يراها بعين مخيلته فيجف وينقبض صدره وتتولاه غصة من الم وحسرة !

وقد غبط صديقه على انسانيته وذوقه ، لتجنبه الخوض في حديث ينكأ جراحات قلبه ، الا انه كان يشعر بشوق شديد الى معرفة ما انتهى اليه امر كاترين وفرونسكي . ولما جلس الاثنان على مائدة الطعام ، راى ان يقبل على ضيفه بالسؤال عن زوجته واولاده ، وعما اسفر عنه الخصام الذي استفحل امره بين الزوجين ، وكان سببا في قدوم آنا كرنينا الى موسكو .

فما ان طلب اليه التحدث عن نفسه وعن زوجته واولاده ، حتى انبرى اوبلنسكي يقول :

« رويدا يا صاح ، ولا تكن عجولا ! لقد نهيتني عن الاتجاه بناظري واحساسي نحو المتعة ، وعنفتني في تأدب ، ولم تشأ ان تعترف بما للقلب من حق على صاحبه .. فاعلم الان ما دمت طرقت باب هذا الموضوع من تلقاء نفسك ان الحياة جدب ومحل ، بل انها سعير لا يطاق ان خلت من الحب .. واصارحك القول بأني امج حياتي ان تفرت من نأمة لذيذة تهز اعطافي حتى يخفق قلبي ، انني هكذا خلقت وعلى هذا سأعيش حتى الموت ! » فقال ليفين وهو لا يخفي تعجبه ونفوره : « ويح لك ! أثمة امرأة اخرى جديدة ؟ » .

قال : « اجل ، هناك أنثى اخرى بزغت في افق حياتي .. انها مثال الجمال ، وهي مصبوبة في قالب سماوي .. واصدقك اني اخاف احيانا من التفكير بها ـ اخاف لأني لا اكاد اصدق بصري احيانا ! » .

« هذه غلواء لا مبرر لها » .

« بل هي الحقيقة الحلوة المرة ايها الصديق .. واعلم ان النساء على انواع ، وحبيبتي الجديدة تأتي في الذروة ، ولا تعلو عليها امرأة » .

« اراك ميالا الى استجلاء ما يكتنف المرأة ، وما يعتور حياتها ، ويلابس مشاعرها » .

« لا ، اني لا ابالي بدرس الاخلاق والصفات والخصائص ، فلذتي ليست في سبر غور هذه الامور بل في تنقيع ظماي من الحب ! » .

واخلد الاثنان الى الصمت ، وحلقا في سماء الفكر ، ثم تململ ليفين في مقعده كأنه يتألم من شيء ، وقال بصوت متهدج : « هل غادر فرونسكي مدينة موسكو ؟ هل بارحها ؟ » . فنظر اليه اوبلنسكي متأملا واجاب :

« او تسألني عن فرونسكي ؟ آه لقد قفل راجعا الى بطرسبرج عقب ذهابك انت . وهو الان هناك ، ولا يزمع الرجوع .. على اني اود ان اصارحك القول في امر طالما رغبت في الجهر به لك ، فقد اخطأت الخطأ الجم حين خيل اليك ان امالك قد بددها فرونسكي ، واني آخذ عليك فرارك من وجه غريمك ، فما انت بالرجل الهين ، بل انت من خير الرجال ، فلم الخوف اذن ؟ ولم الفرار ؟ لم احثك على التقدم اليها بطلبك ؟ الم اقل انك المفضل ؟ » .

وعاد اوبلنسكي الى صمته ، وعاد ليفين ، الى اطراقه ، ومضت بضع دقائق والسكون مخيم على القاعة ، وليفين يناجي نفسه ويقول : « انه لا

يعلم انه رفضت .. انه يجهل ان كاترين ردتني خائبا مغلوبا على امري.. ولكن ، اتصدق المظاهر دائما ؟ واوبلنسكي ، هل يصرح بالحقيقة دائما ؟ كلا . كلا .. انه ماكر ، انه خبيث يظهر خلاف ما يبطن ! » .

وعاد اوبلنسكي للكلام فقال :

« لقد اخطأت خطأ لا يغتفر كما قلت لك ، واخالك حسبتها تؤثر فرونسكي بقلبها وحبها ، ولكنك اخطأت .. لا انكر ان امها غرتها مظاهر الشاب ومكانته وانتمائه الى طبقة النبلاء ، فاقبلت عليه واعرضت عنك ولكن ، الم تفكر بكارين ؟ او ليست هي التي تتزوج ؟ الا يعنيها الامر ؟ » .

وصاح ليفين محتدما : « على رسلك يا هذا ، اتنعت فرونسكي بالنبل وتستثني سواه من الخلق ؟ وما هو النبل ؟ قل ما هو هذا الشيء الذي تضفيه عليه دون سائر الرجال ، او دون معظم الرجال الذين تعرف واعرف؟ وهل هذه الصفة تضعه فوق رجل اخر استثنيه من وصفك وابعدته عن النطاق الذي ضربته لمعنى كلمتك ؟ » .

وانقطع ليفين عن الكلام وهو يلهث من الغيظ ،ثم تابع يقول : « وضعت فرونسكي في مصاف النبلاء ، فهل تعلم من ابوه ؟ وهل يليق بك ان تقرر اشياء لا يقرها العرف ؟ او تعلم كيف حاز ابوه اللقب ؟ لقد تناهى الرجل في الصغار ، وتوسل بالوقيعة لينال ما تصبو اليه نفسه الخسيسة.. وفوق ذلك ، الم تعمد امه هي الى التوسل بجمالها لبلوغ اوطارها ! ثم تاتي انت لترفعه فوقي ، لتقول انه من النبلاء ، من الصفوة ! هراء . .هراء .. هراء .. انني احتقر الالقاب يا صديقي ، على اني اشد نبلا من هؤلاء الذين يحملونها ، فانا اسلسل لك اجدادي ، وابرهن لك عن كريم محتدهم ، انا اثبت لك ان نساءنا جميعا كن خير النساء ، لا تجسر الواحدة منهم على بيع جسدها ، ولو كان فيما تفعل الغنى والجاه . اما هؤلاء فهم الحثالة ، التي تتعلق بالالقاب كما لو كانت تتعلق بالاوهام ! » .

وكان اوبلنسكي طيلة ذلك يحملق في صديقه مشدوها مبهوتا لا يكاد يصدق اذنيه ، ويظن في المتكلم الظنون ــ اهو مجنون فاقد الحجى ؟ اأعمته الغيرة ؟ اهذا هو ليفين الهادىء الرصين الذي لا ينبس قبل ان يفكر ، انه يلقي الكلام على عواهنه ، فيهاجم فرونسكي .

وطأطأ اوبلنسكي راسه ، وقال بهدوء وحلم :

« وقد تكون مصيبا في كل راي ابديته يا صديقي ، الا اني لم اشأ ان

اثير انفعالك ، وما وددت الا ان اقول لك صراحة بانك ارتكبت ابشع غلط باختفائك ونزوحك .. فاعود واوجه اليك النصح ـ ارجع الى موسكو ، عد سريعا ، توجه الى كاترين ، تكلم معها ، امكث هناك ، وستنجح الان حيث اخفقت منذ شهور ! » فاصفر وجه ليفين ، وكانه ندم على ما فرط منه واجاب وهو جاحظ العينين :

« اجاد انت ؟ هل اذهب ؟ هل يمكنني ان انال المنى .

* * *

هكذا عاد الامل يداعب افكار ليفين !.. وقال في احساسه الباطن عليك بالزواج حتى تصبح لك انت الاخر مملكة !

* * *

كان فرونسكي في اشد حالات الحب .. وارتمى في لجة الهوى ، ورضي عن نفسه وعن هوى قلبه ..

احب انا كرنينا كما يحب انسان اخر امراة اخرى .

ومع ذلك فما صرفه غرامه الملتهب عن واجباته ، لا يهمل في امر عسكري ، ولا يتأخر عن الوفاء بمطاليب وظيفة في الغرفة التي ينتمي اليها. فهو متعلق بأترابه الضباط .

وكتم ما في قلبه ، فلم يطلع احدا على علاقته الجديدة .. كان يتغمس معهم في شرب ولهو ، ولكنه لم يفه بكلمة تشيء به وتفضح سره ..

مع ان جميع الناس كانت تلهج بذكر علاقته الجديدة .

ومع ان فرونسكي كان من خيرة الشباب ، الا ان الكثيرين من الطامحين المطلعين الى التقدم راوا في علاقته بانا ، سلما له يصعد فيه الى اعلى ... اما كارنين الزوج ، فهو في رايهم السلم المؤدي الى الدروة !

وقد تكلمت النساء في حديث موسكو وبطرسبرج ، فقلن ان انا جميلة ولكنها عابثة مستهترة .. وارتحن لهذه العلاقة .

واسف البعض لهذا الحب ، وقالوا ، انهار صرح اخر للشرف ، وتصدع بنيان شيده رجل كبير هو كارنين .

ولم ياسف فرونسكي ، ولم تاسف انا .

* * *

وراجت الشائعات حتى تناهت الى والدة فرونسكي ، فاكتأبت لاول وهلة ، ولكنها ما عتمت ان سرت واغتبطت .. فابنها يافع في اول العمر ، ولا

مرية في انه محتاج الى ما ينير عينيه ويهذب حسه ، ويفتح له الابواب على مصاريعها .. ومن هناك من النساء اللواتي تبدو انا في جمالها وسعة اطلاعها وكفاءتها ، حتى تاخذ بيد ابنها في طريق الطبقة المترفة المهيمنة من الامور !

وسرت الام كذلك لانها اكتشفت في اسرع مما قدرت مواطن الضعف في المراة المثالية ـ انا كرنينا .

الام تفرح وتغتبط لزلة زلها ابنها ، ولو درت انه طوى كشحه عن منصب خطير عرضته عليه الحكومة لجن جنونها ، ولا قامت الدنيا واقعدتها .

اجل اصاب الام من حب ابنها جذل عظيم ! ولكن الحكومة اصابتها منه خيبة ، ووضعت في ملفه بقعة سوداء كبيرة ـ انه يرفض اجل المناصب، ورفضه مسبب ، غرام ـ اذن هو مستضعف ، والضعيف مكانه في غير الجيش .. هذه البقعة السوداء !

اما اخوه فقد اغتم واهتم ، ولم يثر غمه وهمه علاقة اخيه الغرامية ، بل ترديه في حفرة لن يخرج منها سالما ـ اي استسلام اخيه الى ما يؤخره في مضمار الحياة ، ويمهد طريق النجاح لسواه من الاقران والاتداد .

ولم يعبأ فرونسكي بالهمس ، لم يحفل بالتجريح ، بل اقبل على عاطفته الجديدة يحوطها بكل عناية .

كان يحب الجيش كما يحب انا ، وبجانب حبه للجيش وانا كان متعلقا بالجياد . فهو يؤثرها على سائر الاشياء . ولما تناهى الى عمله ان الجيش في سبيل اقامة سباق عظيم تحت اشراف القيصر سارع بابتياع جواد اصيل مشهود له ، وادخل اسمه ضمن الفرسان الذين يشتركون في هذا السباق !

وعكف على التمرين .

ولما ازف ميعاد السباق ، الم بالبيت الذي افرد له في الفرقة فاجتمع الى زملائه وقتا قصيرا ، ثم اغتسل وطعم وامتطى الجواد الى بطرسبرج حيث تقيم انا كارنينا .

وكان قد انقطع عنها لثلاثة ايام خلت ، لا لانه انشغل بامور اخرى ، بل لان كارنين كان يلزم البيت في تلك الايام ، لعارض من الم انتابه بغتة في ساقه .

اما في ذلك اليوم فقد علم ان الرجل قصد مكتبة بطرسبرج ولهذا عجل بالتوجه الى انا حتى يجتمع اليها قبل اوبة زوجها .

فلما وصل وترجل وسأل الحاجب عن سيدته ، ثم عجل بالصعود ووجهه يطفح بشرا .

وكانت انا تنتظره في ذلك اليوم ، فهما ليسا على ميعاد ، لهذا تعمد ان لا يحدث صوتا حتى يفاجأها بظهوره .

ودنا من مخدعها ، فتذكر ان ابنها في البيت . وابنها كما ايقن من قبل ، ذكيا بقدر ويستنتج .

كان الولد صغيرا ، الا ان ذهنه اجتاز سنه ، حتى غدا العقبة الوحيدة التي تمنعه في كثير من الاحيان عن الاختلاء بمحبوبته .

وقد طالما شعر بالنفور من الطفل .

وما اكثر ما غضب من الفتى لانه لم يتمكن اثناء وجوده من الافضاء بكل ما يختلج في قلبه . فهو يملك من قوة الملاحظة ما لا يملكه الرجال وسوف يتذكر ولا شك كل حركة قامت بها امه . سوف ترسخ الامور في مخيلته ، حتى اذا كبر وشب عن الطوق جمع الاطراف وامسك الخيوط ، واستنتج الحقيقة ، وايقن من صدق ما يقال ، ومن صدق ما قد ينعت به ويوصم .

ظن فرونسكي الظنون بالطفل . وتراءى له ان يبطن دخلته . والا لما كان ينكس راسه خجلا كلما نظر الى وجهه . وكلما داعبه وربت على خده .

على ان الطفل كان بعيدا كل البعد عن الريب . لا ترقى الى امه الشبهات في تفكيره واحساسه . وان قادته غريزته من حيث لا يشعر الى موطن النفور من فرونسكي .. وقد بذل كثيرا من الجهد الصادق ليستشعر الميل نحوه . ولكن جهده في هذا المضمار لم يفلح في كثير او قليل . وظل شعور الاشمئزاز من صديق امه ينتابه كلما ضم الاثنين مجلس . وكلما اضطر فرونسكي الى التأدب في حضرته . والتكلف في حديثه مع انا !

هذا الصغير النافر كان يتساءل عن مكانة فرونسكي في البيت . وصلته بأمه وعلاقته بأبيه .

كان ينظر بتأمل . فيرى ببصره الثاقب وبصيرته النافذة ان اباه وسائر الخدم يكنون لفرونسكي الكراهية والمقت . فيدهش ويزداد نفورا .

ومع ان امه كانت الوحيدة التي تعطف امامه على فرونسكي . الا ان عطفها لا يزده الا بعدا عن الشاب .

والتبس عليه الامر ، ولم يجد لاختلاف المشارب تفسيرا .

كان الطفل للام وعشيقها بمثابة البوصلة التي تريهما دائما النقطة التي غادرا منها ما يعرفان ولكن لا يودان ان يعرفا .

ولم يكن الطفل في البيت ساعة دخله فرونسكي . وكانت انا تنتظر اوبته من نزهته اليومية ، وقد جلست لوحدها في الشرفة .

وكان المطر يسقط رذاذا ، وقد سارعت انا لدى تكاثف الغيوم الى ارسال خادمين وراء ابنها ، حتى يصطحباه في طريق العودة .

وتلفعت بثوب ابيض مطرز ، وجلست في ركن تحجبه الورود . وكانت محنية الراس ، تضغط جبينها على اناء نظيف يستعمله البستاني لري ازهاره .

ووقف فرونسكي عن كثب منها ، فلم تره . وما كاد يخطو نحوها حتى احست بوجوده ، فرفعت راسها ، واتجهت اليه بوجهها .

وقال وهو يدنو منها : « ابك سوء ؟ هل تشعرين بما تؤثرين معه العزلة والانفراد ؟ » .

ومدت له يدها فصافحته ضاغطة قليلا على انامله ، ثم اجابت والابتسامة تتراقص على ثغرها ، او بالاحرى تقبل هذا الثغر الرائع :

« كلا ، اني في خير حال ، فماذا جاء بك اليوم ؟ » .

* * *

قال : « لقد حفزني الشوق الى القدوم .. ولكن ، ما بال يدك ترتعش باردة مقرورة ؟ ما بالك يا انا ؟ » .

ليس بي ما يثير القلق . على انك اخفتني بظهورك المفاجيء » .

« لا تنقمي علي ، فانا ارغب في مشاهدتك كل يوم بل كل ساعة ، لو تسنى لي ذلك » .

« وانني لمغتبطة ، واود ان اراك في كل دقيقة » .

« على اني قلق من اجلك ، فانت متوعكة المزاج قليلا ، فهل حدث ما كربك واقلقك » » .

« ثق انه لم يحدث ما يعكر صفوي » . فهل هو الفكر اذن ؟ وبم تفكرين ؟ « بأمر واحد .. بشيء واحد ! » « وما هو هذا الامر او الشيء ؟ » وهزت انا راسها ، ولم تجب .

كانت تفكر حقيقة بأمر واحد لا ثاني له ، كانت تفكر بنفسها . او

بالاحرى بسعادتها وشقائها ـ بالنقيضين اللذين اجتمعا على حين غرة في سويدائها .

ورب مرة تساءلت فيها قليلا عن مبعث أساها ، ومنشأ همها ... ورب مرة انحت على نفسها بالقول الفظ ـ اهي الامراة الاولى التي تعشق على زوجها ؟ الا تحب صديقتها بتسي ؟ ومع ذلك ، فانها لا تترمض على نار التبكيت التي تتقلى عليها هي !

وغير بتسي من النساء من لهن اكثر من عشيق ، ولكنهن جميعا ينعمن بالهناء وراحة البال .. الا هي .. فهي تتعذب وتتألم ، وتعاني من وخز الضمير ما يهون ازاءه كل عذاب والم ..

وهزت راسها وكأنها تنفض منه ما تزاحم فيه من افكار مرمضة واقبلت عليه تخاطبه ، وتطرح عليه مختلف الاسئلة .

ولكنه لم يرد على اسئلتها ، بل ثبر يقول وهو يقطب قليلا :

« ولم تكتمين عني ما يشغل فكرك ؟ لم لا تفتحين لي مغاليق قلبك ؟ »

فرنت اليه بطرف مخضل ولزمت الصمت .

واستانف يقول : « لا جرم ان في صدرك اضطرابا وانفعالا ، وتقي ان الافضاء الي بما يؤلمك يخفف عنك الوطاة ، ويزيل عن صدري كابوسا ثقيلا. فتكلمي ناشدتك الله ولا تسرفي في ايلامي ! » .

فقالت بصوت مهموس يسيل رقة والما :

« اترغب الي حقا ان اتكلم ؟ »

قال متوسلا : « اجل .. قولي كل شيء » .

فاغمضت عينيها وقالت وهي تشرق : « اني امراة حامل ! » .

وارتعدت ، وارتعشت .. واختلجت شفتاها .. ثم رفعت الى وجهه عينين ساحرتين حزينتين ، وجعلت تحدق في اساريره ، كأنها تريد ان تستشف تاثير كلماتها على قلبه .

والجم لسانه ، وجمد في مكانه . ولم يعتم ان انحنى الى الامام قليلا ومال براسه على صدره . وكأن احساسه الباطن طفق يتساءل ويقول :

« من ذا الذي فعل بي هذا ؟ اني اذن لذو ولد ، فليكن لي ولد ! الويل لك يا رجل ! الويل لك من مجرم دامي الانياب وفاسق فاجر ميت الضمير ؟ اابتسم ؟ استطيع ان ابتسم كاي مجرم ؟ استطيع ذلك ، والتبسم في حالتي ضرب من الرياء ؟ » .

وكأنها تتبعت بحري افكاره ، وقرات في عينيه ما اعتمل في صدره . فمدت له يدا رخصة ، وضغطت بها على يده ، ولسان حالها يقول :

« لا ترزح تحت ثقل اليأس ، لا تدع روحك تئن ، فليست هذه الصدمة الا ثمرة من ثمرات الحب .. ولك الحمد ، فانا بخير ما دام قلبك عامرا بالمحبة والاخلاص ! » .

لم تكن انا على حق ، فهو رجل من الرجال ، وهو ينظر الى الامر كما ينظر كل رجل اخر . لقد شعر بالخطر الماثل ، انها حامل ، ولا مرية في ان زوجها سيطلع على الحقيقة ، ولهذا يترتب عليه ان يبت في الامور دون ابطاء .

لقد فكر في نفسه كمجرم ، ولكن رهبة الموقف هي التي جسمته مجرما في نظر ذات هذه النفس ، وكانت لمحة خاطفة تلاشى فيها المجرم ، وظهر الشاب الذي يريد ان يدبر الامور قبل استفحال الخطر .

كان فرونسكي على شيء من الاستقامة ، الا ان هذا الجانب من الشهامة لم يكبح جماح الالرة التي لا يخلو منها قلب انسان مهما تعالى وسما .

ونظر فرونسكي اليها نظرة الصب المستهام ، فاذا باحساسه يرق حتى ليكاد ان يكون كالنسيم .. واذا به يأخذ يدها بيده ، ويلثمها ويقبلها ثم يوجه الى صاحبتها حديثه فيقول برفق وهدوء وثقة :

« اي انا ! يا معبودة ! لقد وشجت بيننا علاقة لذة وشهوة ، ولكني لم آخذها كعلاقة رجل بمجن .. ولا مفر لنا الان من الجزم .. لا مندوحة لنا من الفصل ، اجل ، علينا ان نقرر ! »

قالت وصوتها ينم عن قلقها :« فماذا ترتئي ؟ »

قال : « اتحبينني ؟ ان كنت تحبينني فاهجري قرينك .. اتركيه .. غادريه .. وتعالي .. وتعالي الي . حتى تنصهر روحانا وتندمج حياتنا ! ».

قالت : « لا شك ان حياتنا قد اصبحتا حياة ، روحينا روحا ؟ » .

قال : « في السر ذلك .. في السر .. وعلينا ان نعلن على الملا اننا اصبحنا متحدين مندمجين ؟ » .

« على اني متزوجة .. وام .. فماذا افعل ؟ ما هو الحل ؟ » .

« اتركيه .. اتركي زوجك .. قولي له .. انك لا تحبينه » . ما هو اهون الكلام واصعب الاداء ! » « أو تحبينه ؟ »

« كلا . لا احبه فهو ثقيل » .

« فماذا يمنعك اذن من الانضمام الي ؟ اولدك ؟ » ففكرت ، ثم اجابت :

« لا ادري .. لا ادري .. صدق ما اقول .. انني محتارة ، اتألم .. ثم اني سعيدة ايضا .. اتعلم ؟ » . « فاذن ؟ ! » .

« حبيبي .. الا توفر علي ما اكابده ، ارجيء القول اسدل ستارا على ما تود ان تنهيه . انني لا ادري من انا ، وما إنا ، وكيف انا ، ولم انا ، انني لا ادري »

وانحنى على يدها فطبع عليها قبلة اودعها جميع ما في صدره من هيام ، ثم انثنى ببصره الى الافق البعيد ينظر اليه ، ويحاول من وراء ذلك ان يستشف الغيب ويقرأ ما تخبئه له ولها الايام .

وكانت الايام تخبىء امورا كثيرة ، كانت تنطوي على مفاجآت .

كانت تزخر بالفرح والترح ، وبالامل والالم .. كانت حافلة بكل ما يحفل الزمان من عجائب وطرائف ، يطلق عليها الانسان تارة اسم المأساة ، ويدعوها تارة اخرى بالسعادة .

وعبرت صفحة وجهها عن مذلة وانكسار وانهيار ، وقالت ـ قالت انا ـ وصوتها ينم عن حيرتها :

« لا يعلم ، اواه ! انه لا يعلم .. ولا يجب ان يعلم » .

فأجابها فرونسكي بثبات : « لا احفل به » ، وليعلم كل شيء ، فانت مثقلة بالهموم ، ولا يخلق به ان ادعك ترزحين تحت وطئتها ، فقد تسحقك » .

قالت : « وماذا تراني فاعلة ؟ ماذا ترتأي ؟ » .

قال : « ارى ان تكوني صريحة فتمبطلي له اللثام عن الحقيقة ، اصدقيه القول ثم اتركيه وشأنه . . ولا توجسي خيفة ، لا تفزعي » .

تلاح على فمها شبح ابتسامة واجابت في شيء من السخرية ، « واذا قلت له الحقيقة ، اتدري ما يكون موقفه ؟ انه سيرمقني بنظرة المتهكم متأملا متفحصا ، ثم يجيبني قائلا : فانت تعشقين ، انت تحبين رجلا اخر اذن ! يا عجبا احلوك ؟ ثم ، الا تخافين المغبة ؟ اترتمين في حضنه دون اكتراث وما رأيك في الاصول الدينية والمدنية ؟ وما رأيك في التقاليد المرعية الجانب؟ اصيخي لي ، واعيريني سمعك .. انني جد حريص على اسمي ولن اتيح لك ان تلوثي هذا الاسم بقاذوراتك ، وان تلصقي العار باسمي .. » .

ولم تنطق باسم ولدها ، فهي تجله وتحبه ، ولا تسمح باشراكه في اية فضيحة .

وتنفست الصعداء واردفت . « سيقول هذا ، وسيزيد ، سيخبرني بحزم انه لن يدعني وشاني ، وانه سيتمسك بي حتى لا اذهب ، سيتمسك بي لا لانه يحبني بل لانه يخشى الفضيحة ، ويخشى القالة التي يعتبرها شرا من الفضيحة .. وانه لن يحجم عن اللجوء الى القانون ليمنعني عن التصرف بحماقة .. وانا موقنة انه سيقرن القول بالعمل ، وينفذ تهديده بكل دقة .. انه رجل مخيف متى حزم الامر ، وله من ارادته ما يذلل به الصعاب مهما بلغت شدتها ، هو كذلك ، وانت لا تعرفه .. هو قاس كأقسى ما يكون الرجال ، وهو متى غضب هدد » .

فهز فرونسكي رأسه وقال : « يجب ان لا تقل ارادته من ارادتنا ، يجب ان نصمد وان تكافح .. فصارحيه بكل شيء ، ولننتظر ، ثم لنعمل ، او بالاحرى لنقابل اجراءاته باجراءات مضادة ، والله وحده يقرر النتائج والمصائر » .

ولما لم يحظ بجواب مضى يقول : « اهجريه ، اتركي بيته ، لا تراعي يا انا » .

قالت : وماذا يجري من بعد ؟ متى هجرته ، وغادرت بيته ، هل اقيم معك ؟ كعشيقة ؟ كخليلة ؟ » .

فحدد فيها عينا يتطاير منها الشرر وهتف : « انا !.. »

ولانت نظرته فجأة ، ورنا اليها مستعطفا .

واردفت : « اجل اهجره ، فانتقل من بيت الزوج الى بيت العشيق .. فاحطم كل شيء ، واهدم مستقبلي ومستقبل .. » .

وحاولت ان تقول ـ ابني ولكن لسانها عصاها مرة اخرى فاكتفت بما قالت .

ولم يفطن فرونسكي الى السبب ، وغاب عنه انها تضحي من اجل ابنها ، لم يفهم ذلك لانه لم يبل شعور الاب بعد !

لشد ما ترتجف فرقا كلما تراءى لها ابنها يعيش في بيت يكتنفه العار.

ورنت الى فرونسكي بلحظ مغرورق بالدموع وقالت والاسى يلعثم لسانها ، « حبيبي ، منية قلبي .. استجب لي ، وتجنبت الخوض في مثل هذه المعاني الشائكة ، ارجوك .. ارجوك .. » .

قال ، « على اننا يا انا » ..

فقاطعته بسرعة وقالت : « لا تضاعف من آلامي ، لا تضيف على عذابي .. ابتهل اليك ان ترفق بي ، ارفق بي » . « انا .. » .

« واني اهيب بك ان تترك الامر لي وسأتصرف وفق المصلحة المشتركة ، انا ملمة بكل شيء ، واقدر كل شيء ، ورأى الهاوية السحيقة .. فاصبر واقصر ، وكن كريما » .

« لك ذلك يا حبيبة ، لن اثقل عليك ولن الحف . بيد ان قلقي عظيم ، وخوفي عليك اعظم ولا يليق بي ان اتخلى عنك وانت تعانين هذا الحرج » .

« اشكر لك .. اشكر لك . فانت طيب كريم ، ولست في شك في انك لا تتأخر عن انيان المستحيل متى اقتضى الامر ركوب مراكب الخطر » ..

« والذي يدهلني يا انا هو تضحيتك الكبرى ، من اجلي انا .. وهل في مكنتي ان انسى نبلك ؟ هل في طاقتي ان اجحد النعمة التي اسبغت علي ساعة ظفرت بك ؟ » .

« انني تاعسة ومع ذلك اشعر بالسعادة .. لقد احببت اخيرا والحب سحر عجيب ، الحب معنى خالد من معاني الحياة » .

« ولكنك قانطة ؟ »

« انا احيانا اشعر باليأس ، ولكن الحب يلاشي من قلبي هذا اليأس » .

وارتفع صوت الصبي . فتوردت وجنتاها ، واختلجت شفتاها ورقت عيناها حتى سالت الرقة دمعا من عينها ونهضت واقفة ، ونظرت فيما يحيط بها ، ثم تحولت بناظريها الى الحديقة .

وما عتمت ان اندفعت نحو فرونسكي ، فلفت ذراعها حول عنقه ، وقبلته بشغف ، قبلة اودعتها خلاصة ما يهيج الحب في سويدائها ، وقالت :

« اذهب يا حبيب الروح ، اذهب بسلام ، وفكر في ، في انا ! » .

لم يطرأ جديد على علاقة الزوجين .. فهما امام الملأ خير الازواج : ابتسامات متبادلة ، وكلمات مجاملة ، وعواطف متنقلة بين القلبين .

على أن كارنين اكب على عمله ، فغدا اشد اقبالا عليه من ذي قبل ، حتى جب منه الجميع ، وراوا في نشاطه بادرة لا مسوغ لها .

ولما ولى فصل الشتاء ببرده وزمهريره وثلجه ، ارتحل الى احد مدن المياه المعدنية حيث مكث شهرين ، ثم قفل راجعا في اول الصيف ، ليستانف نشاطه بما عرف عنه من همة وحرص .

ولزم بطرسبرج فلم يبارحها ، وان كان حرها في الصيف شديدا لا يطيقه الناس . اما انا زوجته فقد بارحت بطرسبرج الى منزل زوجها الريفي في « بيترهوف » . وكان المنزل هذا صغيرا جميلا مؤثثا ببساطة وذوق سليم .

* * *

اما ما جرى في ذلك اليوم ، فقد غادر فرونسكي بيت كارنين في بيترهوف وذهب الى المدينة ليستعد للسباق .

وما كاد يصل الى الحلبة حتى نسي كل شيء مر به ، ولم يعد يفكر الا في جواده ، وفي الجهد الذي يخلق به ان يبذله ليفوز بالقدح المعلى .

وحان ميعاد الشوط الاخير ، واعتلى فرونسكي ظهر جواده ، ووقف في الصف . لم ير احدا ، ولم يعبأ باحد .. انه فارس ، ومسابق ، انه فرونسكي وعليه ان يبرهن للملأ انه جدير بالاسم الذي يحمل .

وكانوا سبعة عشر فارسا . واعطيت اشارة البدء ، واندفع فرونسكي ، ولكنه اندفع متأخرا بعض الشيء . وبدا لاول وهلة ان فرونسكي لا يملك امر نفسه ولا امر جواده « فراو ـ فراو » .

فسبق غيره ، ولم يبق امامه الا جواد واحد . وكان « فراو ـ فراو » خفيفا في عدوه ماهرا في اجتيازه العقبات الموضوعة .

ومع ذلك فانه لم يستطع ان يتفوق على خصمه الجواد الادهم المندفع الى الامام ، امامه ، يعدو وكانه يسابق الريح . ولكن فرونسكي اخطأ قبل

النهاية ـ كان جواده يقفز فوق الحاجز الاخير ، وكان عليه ان ينخسه برفق، ولكن انفعاله انساه واجبه ، فضرب بطن الجواد بعنف ، وارتبك الجواد فتعثرت قوائمه بالحاجز ، ووقع على الارض . وان فرونسكي . ان من القهر ، لقد اخطأ فخذل الجواد المسكين ! وهم رجال الاسعاف اليه .. ولم ينس فرونسكي ما حاق به في ذلك اليوم ، بل رسخت ذكراه في راسه . وكان يتحسر دوما ، وكان ينحي على نفسه باللائمة . لقد خسر السباق، فليخسر ، ولكن الشيء الذي قهره وارمض شعوره هو يقينه بانه خذل « فراو ـ فراو » بعد ان كان الجواد العظيم يفوز بقصب السبق .

هذا ما جرى في اصل ذلك اليوم واثر في فرونسكي تاثيرا بالغا .

اما انا فقد قضت شهور الصيف في « بيترهوف » بينما مكث كارنين في بطرسبرج ، يرهق نفسه بالعمل لكي ينسى ، وماذا ينسى ؟ وكلما حاول ان يتوصل الى معرفة الشيء الذي يسعى الى نسيانه ، كلما زاد رغبة في التهرب من نفسه ومن تفكيره ، حتى يبقى هذا الشيء غامضا مبهما .

كان هذا الرجل يحتقر الغيرة ويمقتها ، وكان يقاسي كثيرا من شعور المذلة كلما اختلج في صدره الشك .

واغرق نفسه في العمل ، حتى يغرق بذلك همومه في لجة لا يطالها الفكر المضطرب . وكان كلما عجب لتراكم العمل . يقنع نفسه ان الصدف هي التي ادت الى تكاثر المهام ، مع انه كان يعلم انه هو الذي عمل على الاكثار منها .

فلما ذهبت انا في صيف ذلك العام الى مصيفهما الريفي ، في ارض بطرسبرج ابت « الكونتس ليديا ايفانوفنا » ان تذهب الى نفس المكان .

وكانت هذه المراة من المعجبات بكارنين ، المحبات لانا زوجته ، بيد انها في ذلك العام انفت ان ترافق انا ، ولم تتورع عن التلميح لزوجها بسبب ترددها في الذهاب بل نوهت له من طرف خفي بأن علاقة امراته بفرونسكي امر كريه ، وان هذه الصدفة الوثيقة هي التي حبستها عن التجاع المصيف الذي تلوذ به انا .

وقد حنق كارنين اشد الحنق من هذا التلميح ، واجابها بخشونة لاذعة على كلامها ، وافهمها انه يثق بزوجته ويربأ بها عن المنكر ، ولا يشك في تصرفاتها .

وصغر للمراة خده بعد تلك الحادثة ، ولم يرض عنها ، ولم يكلمها .

يا للرجل الذي عصفت به الريح ! اغمض عينيه حتى لا يبصر الناس.

وكرهت نفسه الحياة ، ونأى بفكره عن كل ما يريب ، حتى لا تمزق الريب قلبه . وشعر ونفسه والهة انه زوج مخدوع ـ شعر بذلك ، مع انه كافح المشاعر حتى لا يشعر .

لقد حزن كثيرا ، وما كان حزنه لغيرة ، او لاسف على حب ضائع ، بل كان حزنه نتائج شعوره بان كرامته قد اهدرت وان اسمه قد ثلم !

سمع فيما سلف قصص الخيانة ، قيل له ان زوج غدرت به امراته ، فاجاب : « انه المسؤول اولا واخرا .. فلو اخلص ، ولو استقام ، لما فكرت هي بالخيانة ! ثم لو تدارك هذا الرجل المغدور امر زوجته ، لما وقع المنكر ، ولسلم شرفه واسمه وبيته ! » .

اما وقد اصيب بالكريهة ذاتها ، فهو يرى نفسه اعجز من ان يتلافى الخطب ، فيستسلم ! ومع ذلك فقد تناهى في انكار الواقع ، واسرف في عدم الاعتراف ، وما موقفه السلبي هذا الا من قبيل تخوفه وتوجسه ، واعتقاده بان اي شك لا يعمد الى مقاومته ، قد يفضي به الى الدرك الاسفل !

وقد تجنب زوجته ولم يجتمع اليها طيلة الفترة التي قضتها في المصيف . ولكنه في اليوم الذي جرى فيه سباق الفرسان والضباط ، انطلق الى « بيترهوف » وهو عازم على اصطحاب انا الى ميدان السباق ، لما يعلق على ظهورها معه وامام الناس من اهمية كبرى . فقد كان من المقرر ان يشهد الامبراطور سباق ذلك اليوم ، ولا جرم ان جميع السراة والاعيان والنبلاء سيأتون ايضا . ولكنه ما كاد يصل الى الدارة الصغيرة حتى صرف من ذهنه فكرة مرافقتها .

وما كادت هي تبصر به يترجل من العربة ، حتى اقشعر جلدها ، وابتدرت نفسها تقول لنفسها : « اواه ! هل يزمع قضاء الليل هنا ؟ » .

على انها بادرت اليه بعد ان تكلفت البشر والسرور ، ومدت له يدها وصافحته باشة وقالت :

« قدمت اهلا يا عزيزي ، واني لمسرورة لقدمك ، لان هذا يتيح لي مشاهدة السباق . فهل تمكث الليلة هنا ! ان بتسي قادمة عن قريب لمرافقتي الى الميدان .

فتجهم وجه كارنين ساعة وعى اسم المراة التي يمقت ويحتقر وقال : « وعلى هذا لن افرق بينك وبينها ، وساذهب بمفردي الى الحلبة » .

« فاجلس اذن حتى آتيك بالشراب الساخن » .

وجلس كارنين دون ان يتكلم . ودعت انا خادمتها فامرتها ان تاتي بفنجان من الشاي ، وان تنبىء الابن بمقدم ابيه .

وما لبثت ان استدارت الى زوجها وقالت وهي تتفرس في وجهه العابس المتقبض : « ماذا دهاك ؟ هل ثمة ما يؤلمك ؟ » .

قال بهدوء لقد اصبت، فانا منهمك في اعمالي ، وانا متعب من كثرتها » .

فاظهرت الاهتمام ، وطفقت تسأله وتستوضح منه ، ثم الحت عليه في قضاء بعض الوقت معها في « بيترهوف » على ان ينزع الى الراحة ويخلد الى الهدوء .

وسبر كارنين غورها ، فلم يصدق حرفا من كلامها ، بل ايقن انها حريصة مثله على استبقاء المظهر ، والاحتفاظ بالظاهر .

وقد ارتبكت ارتباكا شديدا لكلمات الافك التي هضلت بها ، لم ترتبك في حضرته ، بل خجلت بعد ذهابه ، وتولاها ما يشبه الحزن على سجية محتضرة لن يبقى لها وجود !

وجاء الطفل « سيرج » فانقذ بمجيئه الموقف المتوتر . ونظر الى امه مليا ، ثم تحول الى ابيه ، واغضى حياء .

وادنى كارنين ابنه منه ، فربت على خده ملاطفا ، وقبله وحدثه ، وداعبه ولكنه فعل هذا كله بفتور وتكلف .

وخفق قلب الطفل ، وانقبض صدره . وما عتم ان نظر الى امه مستجيرا ، فتفطر كبدها اسى ، ورات بعين مخيلتها دعائم بيتها تتهاوى وتنهار . ولكنها تداركت الامر فاقبلت على الطفل تحتضنه وتقبله ، ثم امسكته من يده وقادته الى الشرفة .

وتناهى اليها صوت عربة قادمة ، فقالت تخاطب زوجها : « هي بتسي ، اني راحلة » . ورجعت اليه فصافحته مودعة .

ولما قبل الرجل يد زوجته ، اجفلت من القبلة ، ولكنها تمالكت نفسها فابتسمت واسرعت بالذهاب .

انها تمقته ! انها تمقت اذنيه ! انها تمقت شفتيه .

* * *

جلست انا في المرتفع الكبير الذي تحتله الطبقة العليا من الاشراف والسراة ، وجلست الاميرة بتسي الى جانبها .

ووصل كارنين فشاهد زوجته وشاهد صاحبتها ، وعض على نواذجه من القهر المكبوت .

ورانه انا واختلست النظر الى وجهه المتجهم الذي ينبيء بالثورة الهائلة المندلعة النيران ، والتي تعتمل بقوة في صدره .

وفكرت بفرونسكي ـ الرجلان هنا في مكان واحد ـ الزوج المحجوج ، والعشيق المفضل ! رات زوجها ببصرها ، ورات عشيقها ببصيرتها ، فتقمت على الاول لانها لم تحبه مع انه زوجها ، وهفت الى الثاني لانها تحبه ! ولو كان حبها له يعني دمارها وتقوض دارها .

ولله في خلقه شؤون ـ لقد خلق الانسان ، وخلق معه النزع ، والعواطف والمشاعر ، فاصبح الانسان كالريشة في مهب الريح ، واصبحت الريح تلك العواطف والمشاعر .

وتتبعت خطوات زوجها ، وتتبعت ببصيرتها التحول الفكري الذي اصابها عقب توطد صداقتها بفرونسكي ، ودهشت مما استنتجت ـ كانت معجبة بزوجها من قبل ، كانت تراه عظيما ، اما الان فما هو الا حفنة من تراب ! او قطعة من حديد او من خشب ، يتحرك كما تتحرك الالة ، وتدل حركته ومشيته على اعتداده رغم انكساره ، وشعوره بما يشعر الرجل الخطير الكبير .

كانت ترجو دائما ان يكون محترما مبجلا ، فاصبحت اليوم اول من يكره فيه ميله الى الظهور بمظهر الرجل الذي له في الدولة شان ومركز ومكانة !

وابت عيناها ان تتحول عنه ، وابى ذهنها ان يتحول عن الانسان الذي احبته ! وابتغت البكاء .. ولم تدر السبب .

وايقظها من شرودها صوت صديقتها يهمس في اذنها : « هوذا زوجك يا انا هوذا زوجك » .

وسمعتها تخاطبه وهو يدنو بقولها : « انها هنا ايها الكونت ، زوجتك هنا ، الم تبصر بها ؟ » .

فابتسم الرجل واجاب : « كلا لم ارها ، ولا اؤاخذ سهوي ، فالمظاهر فخمة تخلب الابصار ، وتذهل العقل والاحساس ! » .

والتفت الى انا ضاحكا ، ودنا منها كما يفعل سائر الازواج ، والقى يده على يدها . ومر به قائد فحياه ووقف معه . وانشا الاثنان يتجاذبان اطراف الحديث . وطفق كل منهما يبدي رايه في السباق ، وما يجب ان يكون عليه ، وكيف يبدا ، وكيف ينتهي .

وقد اعرب له كارنين عن اشفاقه على حياة الفرسان المهددة بالضياع فالخطر يحدق بالمسابق ما دام القائمون به يحرسون على وضع الحواجز المرتفعة في طريقه .

واصغت انا وبدا لها فرونسكي الرشيق الشجاع متمرغا في الثرى ، يدا لها منطرحا ارضا والدماء تنزف بغزارة من جسده .

ونظرت الى زوجها ، وزادت كراهية له ، فقد نبهها الى ما يتهدد حبيبها ، وكانه تعمد ان يخيفها حتى تفقد طمانينتها .

واستغرقت في الفكر .

مسكينة هذه المراة التي اعماها حبها فخيل اليها ان عدوها رابض في قلب زوجها .. مسكينة انا فقد غاب عنها ان ثرثرة زوجها كانت صادرة عن الم دفين يدمي قلبه ويهدر كرامته .. غاب عنها ان كارنين كان يتالم المما شديدا ، وان الاكثار من الكلام كان يصرفه عن مواطن من الالام المبرحة .

* * *

ولما كانت نفسها تتوق الى وضع اللوم على زوجها ، حتى لا يتالها من ذنبها اذى لروحها ، فقد ابت لها هذه النفس الهوجاء الا الخصومة لهذا الزوج !

ولما شرهت نفسها الى اللذة الجديدة ، واستحيت ان تعترف بفجورها ، رات في زوجها الفجور متجسما متجسدا !

واصطف الفرسان متاهبين للسباق ، وساد الصمت ، وسكن الضوضاء .

وانتهى بعد حين الشوط الاول . ثم حان ميعاد الشوط الاخير الذي يشترك فيه فرونسكي . وخفق قلب انا خفقة الانفعال والخوف ، ورفعت منظارها الى عينيها ، وجعلت تنظر الى الشاب الجميل ولا تحول عنه ناظريها .

ورأى كارنين ما انصرفت زوجته اليه فجعل يرقبها صامتا جامد

الوجه . واخذ يتأمل في وجهها المصفر ، ويدها المرتعشة ، وملامحها المتشنجة . وايقن انها لم تكن ترى الا شخصا واحدا ، بشخص واحد ، وان زوجها وولدها ، لم يعد له وجود في رايها وتفكيرها .

ولكنه لما اجال طرفه في سائر الموجودين ناجى نفسه بقوله : « انها كغيرها لقد عم الانفعال ، ولم يبق انسان سواي انا لم يطرا عليه ما اصابها.

واستدار اليها ثانية وتصفح امائرها ، واغمض عينيه ـ لقد راى كل شيء !

وتساقط بعض المتسابقين ، وخف رجال الاسعاف لنجدتهم . وصاحت امراة رقيقة « امجزرة ! وهل ثمة ما يوجب هذه الالوان المتعددة من المآسي » .

اما انا فقد جمدت كالتمثال كانت تتابع فرونسكي . تبتهل في سرها الى الله ان يحميه .

وتقدم فرونسكي ، ولكنه سقط ، وسقط منظار انا ، وزفرت ، ونهضت ثم قعدت .. وقال كارنين بصوت خفيض : لنذهب ، هيا ، هيا .. » .

ولم تكترث لاقواله ، بل اصاخت لما كان يقال. وتناهى اليها فرونسكي صدع ساقا . فحاولت ان ترى ، ولكنها لم تر شيئا .

وخاطبها زوجها ثانية ، طالبا منها مرافقته والعودة معه ، بيد انها انكمشت مجفلة ، وقالت محتدمة : « اذهب انت ، اما انا فسابقى هنا » .

فجاء ضابط من الحرس فاخبر القيصر بما حدث ، وعلمت انا بان فرونسكي لم يصب باذى ، فتنهدت بارتياح ، وحل الامل في تقاطيعها محل الياس .

وبكت ، بكت من الاطمئنان ، ورآها زوجها تذرف الدمع ، فدنا منها ووقف في وجهها حتى لا يراها الغير وهي تستعبر . وخاطبها مرة ثالثة فقال : « لماذا تتشبثين بالعناد ، هلم معي .. قلت لك هلمي ! » .

واجابته الاميرة بتسي قائلة سارجع يا الكسي معها ، فلا تلح عليها » .

ولكنه حدجها بنظرة صارمة وقال لقد اثر هذا السباق عليها تاثيرا مخيفا ولا بد لها من العودة معي » .

وفطنت انا الى ما اظهره زوجها من التصلب ، فانتصبت واقفة ، ووضعت يدها في يده ، ومشت معه كما تمشي كل زوجة مع زوجها .

* * *

هكذا سار الزوجان المتباعدان وهما يوزعان التحيات ، حتى عجب لهما الناس .

كانت انا في شغل بتفكيرها ، كانت تفكر بفرونسكي والخوف مستحوذ على مشاعرها .

على ان كارنين ظل في جموده وبروده ، لا يلتفت اليها ولا يكلمها . وان كان يترمض في داخله على نار .. لقد هاله منهااستهتارها بالعرف والتقاليد . وشعر ان واجبه يفرض عليه تنبيهها الى سوء المصير ان هي تمادت في الغي . واسرفت في استهانتها باسمه ومركزه بين الناس .

على انه تحير في امره ـ فكيف يبدا الحديث ـ وماذا يقول ؟

ثم استجمع عزيمته المشتتة وانبرى يقول بصوت شارد كانه مذهول يحدث نفسه : « لكم ينفر قلبي في مثل هذه المشاهد ! انها قسوة لا مبرر لها ، انها كالطقوس البالية التي يكررها الانسان رغم تفاهتها ومضرتها » .

فاجابت وهي تحدجه بنظرة يفيض منها اللوم والاحتقار والاستهجان.

« اني لا افهمك ، فأوضح .. اوضح مقصدك ! » .

فاثنى بنظره اليها وقال في حدة ظاهرة . لا مرية ان الواجب يقتضي مصارحتك بما يجول في ذهني .. ولا املك من نفسي امر الناس ، ولكنك زوجتي ، وقد شططت وعلوت وارتكبت من الامور ما يتنافى من اللياقة ـ اى انك اسأت التصرف ! » .

قالت : « وما هو دليلك على اني لا افهمك ؟ » .

قال : « نسيت نفسك ساعة كبا الجواد براكبه ، وكانك وحيدة ، كانك كنت تجلسين بمفردك . لقد جن جنونك ، ونطقت اساريرك بالجزع الشديد .. واني يا سيدتي اذكرك بما نبهتك اليه في يوم مضى .. اذكرك بواجبك . . فاحرصي على سمعتي ، وذودي عن اسمي » .

ومضى يقول : ان ما يعنيني من الامر الان هو تصرفك امام الناس ، اما علاقتنا الداخلية فقد طويت كشحي عنها ! » .

ولاح فرونسكي لناظريها فلم تصغ لكلام زوجها ، ولم تحاول ان تتبع ما يقول . وما كاد كارنين ينتهي من كلامه حتى اختلست اليه نظرة متهكمة ساخرة ، فاستعر اوار غيظه ؛ وهو يتابع حديثه . اكلامي تافه بهذا المقدار؟ ام ظني خيال لا معتمد عليه ؟ ان كان ذلك فالمعذرة على تسرعي وان لم يكن.. ان لم يكن .. » .

وعيل صبر انا ، فتنفست الصعداء من شدة ما نالها من الكرب واجابت بصوت عميق ، ولهجة صارمة مفعمة بالقسوة :

« اصبت اليقين في ظنك ، فانا ساعة ارتمى الحبيب مت فرقا ! واعلم اني اسمع صوتك فقط ، ولكني لا افهمك ، فهو قد اضحى ملء السمع والبصر . هو .. اتفهم ؟ هو .. وحبي له لا نهاية له .. حبي عظيم ، كانه البحر .. عظيم ، كانه الفضاء .. حبي له كبغضي لك ،.وكخوفي منك ! ».

وانكمشت على نفسها ، واغمضت عينيها ، ثم استخرطت في البكاء .

الرجل الكبير القدر !

الذي ملك القلوب واستولى على الالباب ، يهتز من قمة راسه الى اخمص قدميه !

ما كاد كارنين يستوعب المعنى حتى قفز قلبه بين ضلوعه .. لقد ظهر المخفي اخيرا ، ظهر بوضوح وجلاء ، على لسان امراة . كان ملما بالحقيقة ، ولكنه كان يتجاهلها حتى لا ينهار ويسقط ، فهل في طاقته الان ان يتجاهلها هل يستطيع ان يواصل هذا الدور الذي اداه بصبر وجلد واحتمال ؟

فهل يتكلم ؟ وما جدوى الكلام ؟ لقد انتهى كل شيء ونفد المقدور ، وغدر به الدهر في موطن الحساسية من حياته ، فهل يستسلم ؟ هل يلقي السلاح ؟ ايقضي على مستقبله دون كفاح ؟

« انه شجاع ؟ وعاطفته ليست كل شيء .. انه يعيش لهدف » وهدفه ان يتقدم ويتقدم ، باستمرار دون انقطاع .

ودنت العجلة من المنزل ، فقال كارنين دون ان ينظر الى امراته الباكية:

« لن اعذر لك، على اني ارغب اليك في التمسك بالحرص، احرصي ما وسعك الامر على اسمي وسمعتي ، وسافكر فيما يخلق بي ان افعل .. التزمي جانب التعقل ريثما ابت في مصيري ومصيرك ولا ترغميني على ركوب متن الشدة .. هذا هو مطلبي الوحيد ، فتفكري مليا ، وتروي ، والا لحقتك ندامة ، ولن الام ، فقد اعذر من انذر ! » .

وكبح الحوذي جماح خيله ، فوقفت العربة ، ونزل كارنين واعان زوجته على النزول ، ثم صافحها محنيا لها هامته ، ورجع من حيث اتى .. رجع الى بطرسبرج وهو يشعر كمن اصيب بطعنة نجلاء .

وصعدت انا الى مخدعها في « بيترهوف » فاغلقت الباب عليها وانطرحت على مرقدها . وسرعان ما نسيت مصيبتها ! نسيتها ساعة طرقت خادمتها

الباب عليها ، وقدمت اليها رقعة صغيرة كتبتها صديقتها الاميرة بتسي ..

ولما فضت الورقة وتلت ما سطر فيها انفرجت شفتاها عن ابتسامة مشرقة . وهتفت وهي تضحك مغتبطة : « انه سليم لم يصب بأذى » .

« انه معافى لم يلحق به سوء ، فيا لفرحتي ! يا لفرحتي ! » فرونسكي ما احلاك وما اشهاك !

* * *

ما كان للانسان في كل اوان ، ان يكنه حقيقة ما جبل عليه الرجل الفذ .

فهو في مظهره جامد صلب لا تلن له عاطفة . وهو ما يتبين من حركاته وسكناته رجل قلما يشفق ، ولا يخاف حتى من هادم اللذات ! الا ان الحقيقة التي لا مراء فيها ، هي انه كان يذوب شفقة ويسيل لوعة كلما اصغى مرغما الى امراة او طفل يبكيان !

وبلغت به الرقة انه لم يتمالك نفسه من التفجع لانا زوجته حين نفضت له ما بثجها بفرونسكي من علائق ، واستخرطت من بعد تبكي بكاء مريرا .. لقد الم به ساعتذاك ما يلم به عادة عندما يرى المدامع ، فنسي سيئتها ولم يحفل خيانتها بل ان نفسه الرقيقة ذرفت هي الاخرى الدمع مع عيني انا .

ما اكثر ما تألم كارنين لما وعاه ! ولكن الدمع غلب على شعور الغيظ ، فرثى لها وود ان تكف عن النحيب .

ثم خرج مسرعا ، واستقل العربة ، وتنهد من كبد حري . وما عتم ان تنفس الصعداء كأنه يبعد اوشابا علقت بنفسه وشعر كمن افرج عن مخنقه، وشعر انه تخلص الى الابد من رابطة حب ظالما شغلت تفكيره ؛ وانه تحرر ايضا من غيرته الشديدة التي استرقته واستعبدته .

فيا للرجل الغامض ! اينسى الخيانة بمثل هذه السرعة !

وهل الاعتراف بالخيانة يزيد شقاء الرجل المخدع ، ام انه يرفع عن كاهله حملا طالما ناء من ثقله .

وهز كارنين راسه ــ انه الان حر ــ

وناجى نفسه بقوله : « تبا لها ! لم احقد عليها ؟ اليست زوجتي امراة كسائر النساء ! اليست انا مخلوقا ضعيفا لا كرامة له ولا شرف ؟ انها غدرت بي ، ولكن الم انتظر منها الخيانة ؟ الم اتوقع في كل حين ان تاتي المنكر ، وتجنح الى الموبقة ؟

وخيل اليه الوهم ان حبه لابنه قد نضب معينه ، وان الغلام اضحى غريبا بعيدا ، لا يعنيه في شيء ــ هو وامه اصبحا في نظره غريبين لا يهمه

منهما الا ما يحزن سواه متى شاب نفسه قلق .. ويحتم عليه الان ان يلاشي قلق نفسه حتى تعود اليه نفسه .. وان ينقي روحه مما علق بها حتى يرجع اليه هدوءه ، ويعود اليه اتزانه ، فيزاول اعماله بما اثر عنه من الهمة والكفاءة . وطفق يحدث نفسه ويقول :

« ومالي اسعى الى شقائي ؟ وهل تستحق كل هذا العناء والتحرق على الرمضاء امراة خلعت العذار وارتكبت المعاصي ؟ اما يخلق به ان ابحث عن الدواء ؟ اما يليق به ان ابحث عن الحل الملائم حتى اخلص من هذه الادران ؟ انا الرجل الاخير الذي مرغت زوجته شرفه بالاوحال ؟ كلا ، ثم كلا .. فهناك كثيرون غيري امتحنوا بمثل ما امتحنت .

ورأى بعين مخيلته وجوه رجال ارتكبت نساؤهم المعصية ، وانشأ يستعرض رد الفعل ، والاجراء الذي توسل به كل زوج خدعته امراته فظلمته .

وكان منهم من قاتل عشيق زوجته ، وكان منهم من رضي بالامر الواقع ، فاغضى وتجاهل ، وكان منهم من هجر امراته ، وكان منهم من تحرم انفاسها ، وكان منهم من سعى الى الطلاق منها .

اما فكرة المبارزة فقد استجوذت عليه ، ولكنه راى فيها خطرا محققا ، فهو ان قتل غريمه تزعزعت حياته ، وهو ان قتل بيد غريمه لم يبق له كيان في هذا الكون !

وسولت له ان يتخذ الاجراءات القانونية لتطليق امراته ، ولكن كيف يصبر بعد ذلك على رؤية انا تتنقل بين احضان الرجال ! انها لن تقترن بعد طلاقه منها ، لان الكنيسة تحرم زواج المطلقة .. انه لم يشعر نحوها بالمحبة ، ولكنه لا يرغب في رؤيتها تتدهور الى الدرك . فهل هو الاشفاق ، أم هي الاثرة ؟ .

انه يحب الانتقام ، لقد اكتشف هذا الان ، ولن يفسح المجال لانا ، لن يدعها تنعم بحبها بحرية واستقلال .

فهو لن يقاتل دفاعا عن عرضه ، وهو لن يطلق درءا للفضيحة ثم تجنبا لما قد يتيحه لها من حرية التمتع بحبها ، وهو لذلك سيحتفظ بها زوجة بالاسم ، ويبذل ما في طاقته للحيلولة بينها وبين عشيقها . ثم يسدل ستارا صفيقا من الكتمان على ما حدث ، حتى لا تنتشر الفضيحة فيسمع بها القاصي والداني !

وفضلا عن ذلك ، ارتاح لما وطن عليه النفس ، وعلل ارتياحه الى نامة الخير ، يعتقد انها تعتمل باستمرار في قرارته .. علل ارتياحه بانه ناجم عن امله في ان تنتبه انا وتفيء الى نفسها » .

الخائنة ، دمدم يقول ، وهو يصر بأسنانه ..

ووقفت العربة فنزل منها ثم صعد الى مكتبه وجلس قليلا ، وما ابطأ ان تناول ورقا وقلما وجعل يكتب :

« سأبر بوعدي لك واطلعك على قراري بصددك .. كنت حمقاء فيما صنعت ، وكان علي ان اقصم كل صلة تشجعني بشخصك ، الا اني عدت فعدلت عن هذا الراي حتى لا التحدى الله في ما اوجبه على عباده ، وحتى لا افرق بين من وصلهما برباط الدين .. ولا شك ان انحراف زوج او زوجة عن الجادة لا يقصر المسافة اليه على فصم الشراكة الزوجية حتى لا تتقوض بذلك دعائم العائلة ، ويقضي على ثمرات الزواج ـ وهي الاولاد : وعليه فلا مندوحة لي من استبقائك في كنفي حفاظا على اسمي واسمك ، واشفاقا على ولدنا المسكين .. واني واثق من انك توافقين على خطتي ، وتساعدينني حتى نتمكن من تخطي العقبات فلا اضطر الى اتخاذ سوى تلك الخطوات ! ورغبة مني في اقناعك بصواب رايي أرى ان نجتمع في ميعاد لتبادل الراي وتوحيد الطريقة ، لان هدفي في رعاية ابني هو هدفك ولا غرو .. فتعالي الى بطرسبرج قبل يوم الثلاثاء المقبل واياك ان تتلكاي او تتاخري » .

وقرا ما خطه ، فوافق على كل كلمة ، وما هي الا دقيقة حتى كانت الرسالة في طريقها مع مبعوث خاص الى زوجته في بيترهوف .

اما انا فكانت في حيرة من امرها ـ كانت موزعة الفكر ، مشتتة لا تكاد تستقر على امر وتهدأ في حال . كانت تفكر ولا تفكر ، وكانت تهمس فيما بينها وبين نفسها فلا تكاد تعي ما يملأ عليها حياتها ويستوعب فكرها . لقد تأجم غيظها حين جابهها حبيبها برايه ، وقال لها انها اضحت في مركز صعب عسير لا انحلال له . ومع انها غضبت واحتدم غيظها وغلت مراجل هذا الغيظ في اعماقها ، الا انه لم يسعها سوى التسليم بما قاله فرونسكي ـ ان مركزها محرج للغاية ، وليس لها الا البحث عما يزيل تلك الجبال من العقبات التي تعترض الان سبيلها .

وصارحت زوجها بما حصل ، جهرت له بنفورها منه ، وبميلها الى فرونسكي .

ولكنها شكت فيما بعد بما قامت به ، وايقنت انها رمت بنفسها للتهلكة .. على انها عادت فطمأنت نفسها وعائلتها بقرب انفراج الغمة فالصراحة مهما قست تبدد السحب . وهي بصراحتها لم تعد تحتاج الى النفاق والرياء والكذب .. وعلى زوجها الممجوج الان ان يتدبر امره بما يراه ، ولن تبالي هي بما يفعل .

على انها ما كادت تهجع في تلك الليلة وتستيقظ صباحا حتى خيل اليها انها حلقت في اعالي الجو لتسقط مرة واحدة وتتحطم ! وان المنطق كان يوجب عليها ان تلزم جانب الريث ، وتتعلق بحبل الحذر والروية قبل ان ترمي في التهلكة .

فمن اين لها هذه الجراة ؟ وكيف استطاعت ان تواجه زوجها باعترافها ؟

ومهما يكن فقد فات زمن الندامة والتحسر على شيء حصل ، وزوجها الان يعلم من الامر ما يعلم ، وسيفعل شيئا ، فلتنتظر ما يفعل !

ان زوجها قوي ذو نفوذ وصحبة . وهو لن يقف مكتوف اليدين .. فهل فكرت قبل الاقدام بما يجري ؟ هل فكرت بحالها متى وقع البلاء وذاعت قصة الخيانة ، وعرفها الملا ؟ انها الان تنتظر الضربة ، وقد تكون ساحقة ، وقد لا تكون .. وظلت انا وهي منقصمة الظهر حزينة النفس .

والعجيب في الامر ان ما ظنته واضحا بعد اعترافها استحال غامضا تكتنفه ظلمات حالكة ، كنفسها ، وكاحساسها ، وكمشاعرها .

وتناهت في الهجس والتوجس ، وصور لها الوهم ان فرونسكي يلهو بها ، وانه لا يهواها .. ولن يعتم متى لفظها زوجها ان يتنكر لها هذا الحبيب .. فاين تذهب ، والى من تلجا ؟ ودار في خلدها وهي تتلوى من الم الروح والقلب ، ان حسن الكلام لا يتم كما قيل الا بحسن العمل ، فاين منها حسن العمل حتى تحسن الكلام ؟ .. اليس هذا ما طوح بها اليس هذا ما جعلها ترتكب الخرق فتبوح بسرها قبل تاكدها من دوائها .

لقد قالت لزوجها كلاما كثيرا ، فهل سمع الكلام اناس اخرون ؟ وربما سمعوه وربما وعوه وتفهموه ! وعادت الى الندامة ، فقرعت نفسها وعذلتها على كثرة كلامها . ثم ولجت عليها الغرفة خادمتها .

« ان ابنك سيرج ينتظرك ، فهو كالعادة يرغب في التحدث اليك » .

وتلا ذلك صوت الغلام وهو ينادي امه . وقد شاب صوته رنة الم فتولى انا الخوف واصفر وجهها وتساءلت : ما الخطب ؟ ما الخطب ؟

واجابت الخادمة : « لعله يكون قد تعثر فسقط ، او لعل شيئا اغضبه

واثار الم » . فنهضت انا وهرعت الى ابنها متلهفة مضطرة . ولما اطمأنت الى سلامته خاطبته بلهجة مؤنبة فقالت :

« الم انهك عن المخاطرة في اللعب ؟ الا تسمع نصائحي يا سيرج ؟ »

فقال وهو يطرق حياء : سمعا وطاعة يا اماه ، لن ارجع الى الخشونة مرة اخرى فعانقته وقبلته . وانبسطت اسارير الغلام بعد انقباضها، فلصق بها وهو يبتسم ويقول متسائلا : « اتحبينني كل الحب يا اماه ؟ » .

وناجت نفسها : « يا الهي ! الا احبه ؟ الا افتديه ؟الا اقدم له حياتي ؟

واغرورقت عيناها بالدموع فبادرت الى الرجوع وهي تتمتم والهة ملهوفة :

« اجل ! اني احبه .. احبه .. احبه .. »

كان ظهور ابنها بمثابة النسمة المنعشة تهب على القلب المهيض فتنفخ الحياة في مواته ، وتبدل بالامل الم ، وتعطيه القوة والجلد والاحتمال.

وجعلت تتذكر ـ رجعت بمخيلتها الى الوراء ، طفقت تستعيد حوادث الماضي ـ لقد انجبت سيرج وغذتها بلبانها ، وسقته ماء حنانها ، انها شكت منذ قليل في نفسها وروحها ، ولكن روحها افرغ الان ـ بدده شعور بالثقة والايمان ـ فرونسكي .. وزوجها .. انهما في كفها ، اما ابنها فهو يحتل الكفة الراجحة .. فليبق مستحوذا على حبة الفؤاد .

واولى بها ان تذهب ، اولى بها ان تصحب ابنها الى بقعة نائية من الارض ، ليعيشا معا بعيدا عن الاحزان ومن مسببي الاحزان .

وعقدت العزم على مبارحة الديار ، وعزمت على الرحيل الى موسكو .

وقامت لساعتها فالتقطت من الدرج قلما مسنونا وورقا ابيض وكتبت :

« الى زوجي :

« اني راحلة مع ولدي ، فانا لن امكث معك بعد الذي حدث ، فالوداع » .

« ان القانون امر غريب عني ، لا اعرفه ولا افهمه .. واني والحالة هذه لن ابحث من من الوالدين هو احق بتربية الابن .. انه ابني ، تعزيتي ، سلوتي ، فلا تتجبر ولا تغتنم الفرصة لقهري وسلبي من ثمرة احشائي » .

وبينما هي تعيد تلاوة ما كتب ، دخلت الوصيفة ، فمزقت الرسالة.

وناولتها المرأة مظروفا ، فقضته متوترة الاعصاب ، فاذا الخط خط زوجها ، واذا الامضاء امضاؤه .

وقرأت ما جاء فيها ، واصفر لونها حتى حاكى وجهها وجه ميتة مسلوبة الحياة ! .

انه اللؤم المتجسم ، انه يطالبها بالرجوع الى بطرسبرج قبل يوم الثلاثاء المقبل ، وهو يلوح لها مهددا ، وكأنه ينذرها بكل شر ان تمردت وعصت

هذه المشاعر المتضاربة ! ترددت ثم اعترفت .. ولما اعترفت ندمت وحزنت ، وقالت لنفسها ان العاقل لا يعمل عملها ، ولما جاء الان زوجها يهبها الصفح والغفران ، ويعرض عليها الاستمرار في العيش معه ، أظلمت المسكونة في عينيها وتراءى لها ان سعادتها ذوت ، وكأنه كان يسلبها كل شيء ولا يمنحها الامان والاطمئنان ! .

فماذا دهاها حتى اصابها من لينه كل سوء ؟ وجعلت تقول وهي محتدمة هائجة :

« ما اقساه ! عجبا ! كلهم ، كل انسان يضفي عليه من آيات المديح ما يضعه في مصاف الانسان الكامل .. كلهم يبجلونه ويعظمونه ويصفونه بالرجل العادل الذي يرعى الحق . الا انا ! انا ! ومن يعرفه اكثر مني ؟ لقد عاشرته زمنا خبرته وسبرت غور نفسه .. وهل في الدنيا من هو اقسى قلبا منه ؟ الم يذل نفسي ، ويقهر روحي ، ويميت عاطفتي ؟ ثماني سنين قضيتها في كنفه ، ولا غرو ثمانية قرون ، لم يشعر هذا الرجل الصلف المغرور طوالها اني امراة رقيقة طمحت ببصري الى الحب ! » .

وياتي هو الان فيهددني بالويل والثبور ، يهددني بالكريهة ان عصيت له امرا ، وسلاحه الماضي ذو الحدين هو سيرج ، فهل ياخذه مني ؟ ايحرمني من اعز ما املك ؟

افاجازف بسيرج : وكيف تكون حياتي دونه ؟ او يكفيني حبيبي ؟ وما لذة العيش معه ان كان سبب الحرمان واساس الكارثة ؟

ان الكسيس يعرض علي الاستمرار في حياتي الزوجية . وهذا جميل، بيد ان له معنى خطير ، ومعناه اختيار الجحيم وايثار نار السعير .

« صحقا لك يا زوجي . ايها الكذوب الذي يملأ قلبك الباطل. خسئت فانا ارجح عقلا ، ولن ادعك تنعم بلذة انتقامك » .

ان ابنها هو هذا السيف المسلول ، ولا يمكنها ان تتخلى عنه طائعة راضية لا يمكنها ان تقبل بفرونسكي وتفقد سيرج .

ودخلت الخادمة للمرة الثانية فاغضت بطرفها حتى لا تخرج سيدتها ان نظرت وقالت : « لا يزال مبعوث سيدي ينتظر الجواب » . فقالت انا وهي تشيح بوجهها :

« فلينتظر فينة اخرى ، وساعطيه الجواب » .

وغادرتها الخادمة ، وفكرت فيما تكتب ـ اكتب لعنتها ؟ ام رجاءها ؟.
اتكتب نقمتها ام توسلها ؟ اتخبره بان الحياة معه شر من الموت ، وان الحياة دون ابنها ويل دونه كل ويل ؟ ماذا تكتب ؟
وامسكت بالقلم وشخصه الى الامام جاحظة العينين وتمتمت : « لم لا انزع اليه ـ الى حبيبي ؟ » .

وخطت اربع كلمات : « لقد قرات ما كتبت » .

* * *

وجاء يوم الثلاثاء فغادرت مصيفها متوجهة الى بيتها في بطرسبرج .
وصلت انا الى المنزل وسالت عن زوجها ، فلم يجبها احـد . فعنفت في الســؤال ، فاخبرت انه في خلوة مع مساعده .
وانتظرت انا حتى اذا عيل صبرها امرت احد الخدم ان ينبىء سيده بمقدمها ورجع الخادم ولم يات كارنين .
ولما ذهب المساعد دلفت الى غرفة المكتب ، فالفت زوجها منكبـا على اوراقـه .
ورفع الرجل راسه ورآها : وتحرك من مكانه ولكنه لم ينتصب واقفا، بل شخص اليها منقبض الجبين متوترا منفعلا .
ولم يلبث بعد قليل ان وقف . ثم تقدم منها فصافحها بحركة متكلفة، وقال بصوت فاتر : « لقد جئت الآن كما ارى وهذا يسرني ويجعلني ارحب بمقدمك ! »
وكانت انا قد اعدت العدة لكل احتمال . الا انها ما كادت تبصر بوجهه الشاحب الذي ارتسم على صفحة ما خالج قلبه من الم وحزن ، حتى رثت له رثاء شديدا ، وكادت ان تبكي . كان يتخوف شيئا ، وكانت مثله تخشى امرا ـ فالخيانة الزوجية مخوفة ، واخوف منها حلم الزوج واناته وتفكيره.
وانتظرت المراة على احر من الجمر .
وتكلم هو اخيرا ، فقال : « وكيف تركت سرج ؟ » فجزعت انا اشد الجزع ـ فها هوذا يستهل حديثه بالتكلم عن ابنها .
ولكن جزعها انقلب الى دهشة فقد عقب يقول :

« ولا مندوحة لي الآن من مغادرة البيت ، ولن أعود في موعد الغداء ! »

فقالت بلين : « ولكني ارغب انا الاخرى الذهاب الى موسكو »

فأجاب بسرعة : « يجدر بك الا ترحلي ، بل امكثي »

ولفها سكون ممض ، بددته انا بقولها : « انك اشرف مني يا الكسس لقد اسأت اليك ، واذيتك واردت انت صلحا ، فافتقرت كرما ، ولكنني شريرة ، شريرة ، ولن ارتدع .. لقد انت القول واني اجترىء عليك فأخبرك ان ما انصدع لن يرأب قط » .

فحدجها بنظرة غاضبة ، وقال : « لا شك ان حسن الكلام لا يغير ما في النفس الامارة . غير اني اصر على وجوب بقائك. فاحذري مغبة العصيان وثقي اني اغمض عيني على القذى . وسابقيهما مغمضتين ما برحت حريصة على عدم تلويث اسمي بانحطاطك ! واني لارجو ان لا ترغميني بحماقتك على ركوب المركب الخشن الذي يمليه علي حرصي على اسمي ومركزي ! »

فنكست طرفها وتمتمت بصوت خفيض مهموس :

« اتبقى صلتي بك كما كانت ـ صلة زوجة بزوجها ـ من جميع وجوهها ؟ » فلم يجبها ، بل ظل يتأمل فيها ويفكر فيما وصلت اليه ..

وكأن موقفه وعناده استلا من قلبها ما استشعرته منذ دقائق من الشفقة والرثاء فأردفت : « لا .. لا .. لن اكون لك زوجا بعد اليوم ، بل رفيقا قريبا بجسده منك ، بعيدا بروحه وعاطفته واحساسه ، عنك ! »

فضحك ساخرا ، او تضاحك ، وقال :

« اين ذكاؤك ؟ هل عصفت به حالتك المزرية التي تردين في حمأتها ؟ انني اذا بينت لك مرامي لم أرم قط الى مزاولة ما انقطع بيننا من علاقة زوجية .. فماضيك النقي سيبقى مخلدا في ذاكرتي ، لن امزج بينه وبين حاضرك المشين ، وسأناى عنك مجاراة لشعوري ورغبتك ؟ »

وتبددت جرأتها ، ولم تدر ما تقول : فهو على حق، والبريء شجاع، زلق اللسان ، أما المذنب ؟..

واستجمعت من الضعف قوة ، فقالت : « افصح عن نيتك ، ماذا تبتغي مني ؟ »

فقال في حزم وصراحة : « سأتغاضى كما قلت عن كل شيء الا عن رؤية هذا الرجل في منزلي ، فاياك ثم اياك ان تستقبليه هنا .. ثم احرصي على ان لا تثيري ريب الناس لئلا يعلو لغطهم . وهذان طلبان متواضعان كما تعلمين ، هذان طلبان ان وفقت بهما وقيت نفسك من كل سوء منتظر ! »

ولم تر انا في كلام زوجها ما يثير نقمتها ، فهو على حق في حرصه . لقد علق قلبها بالغايات ، فماذا يضيرها لو جارته فلم تقض عليه القضاء المبرم ؟ وغادرها الكسيس .. مضى الرجل المهيض الجناح في سبيله ...

* * *

عاش الزوجان في بيتهما كما يعيش غريبان قضت عليهما الظروف ان يتجاورا . كانا بعيدين كل البعد ولو انهما كانا يتقابلان ويتحادثان .

على انه تجنب طاقته الجلوس معها الى مائدة واحدة . وكان لهذا يتناول طعامه خارج المنزل . كما انها امتثلت لرغبته ، فتجنبت دعوة حبيبها الى بيتها ولو انها كانت تلتقيه كثيرا خارج المنزل .

وعلم كارنين من امر زوجه كل شيء ، ولكنه لم يفاتحها بشيء مما يمسها ويتصل بعلاقتها المحرمة .

وقد داخل الرجل من مودة زوجه لفرونسكي ما ملأ قلبه اشمئزازا ، فمقتها واحتقرها ، وايقن ان هذه العلاقة لن تبقى سرا .

انه لذنب عظيم ، وسكوته ذنب اكبر واعظم !

وكان انا وثقت بوعده ، فتمادت في غيها واسرفت في اتصالها بحبيب قلبها .

وكان مع ذلك يرجو ان تعود انا الى رشدها ، وتقلع عن الفحش شفقة على بيتها من الانهيار ، ومستقبل ابنها من الزوال .

وجارى فرونسكي حبيبته ، فوكل امره للقدر ، ولكن حالته كحالتها اضطراب وقلق وتوجس وانتظار .. وكذلك كانت حالة الزوج الصابر على ضيم .

ولما مضى من الشتاء نصفه ، قضى فرونسكي اسبوعا متعبا ، كل فيها من كثرة الحركة ، وارهقت اعصابه الرسميات التي ارغم على مراعاتها .

فقد وفد على البلاد ضيف له مكانة وقدر . وكان هذا الوافد الاجنبي اميرا شاء ان يلم ببطرسبرج زائرا ، فاختارت الحكومة فرونسكي ليصاحبه في حله وترحاله . وقد برم الشاب برما شديدا . وكان هذا الامير ايضا متهافتا على اللهو ، ولا يربأ بنفسه عن انتهاب اللذة ولو على حساب اسمه وماله .. وقد قسر فرونسكي على مصاحبته ومعاشاته في عبثه حينا من الوقت ، لم يكحل عينيه بمشاهدته حبيبته .

واتفق وهو في ابان انهماكه مع الامير الثقيل ان رجع في احد الايام

مبكرا الى مسكنه ، فوجد في انتظاره رقعة بخط انا فقضها مستعجلا وقراها . فاذا فيها : « انا مريضة تاعسة ! لا استطيع الخروج ، ولا اقوى على العيش دون ان اراك ! فتعال الليلة .. ان زوجي الكسيس يذهب الى دار الحكومة في السابعة ويقفل راجعا في العاشرة .. تعال . ارجوك ! » .

وكان فرونسكي قد حظي في تلك السنة برتبة « الكولونيل » فغادر الثكنة العسكرية واوى الى مسكن صغير جميل .

ولم يبق الا والظلام يسربل الدنيا بغلالته السوداء . وغادر فراشه مسرعا ، وركب عجلة صغيرة متوجها الى منزل محبوبته . ولما وصل كانت الساعة تشير الى الثامنة .

وخطا الى صحن الدار ، الى انه فوجيء بكارنين نفسه يخرج من غرفة جانبية . وجمد الرجلان ، ووقفا يتبادلان النظرات وقرا كل منهما شيئا خطيرا محفورا في وجه الاخر . وتفصد جبين الزوج بالعرق ، وبرقت عينا فرونسكي ، وظل يحدق في الوجه الشاحب المصفر ، وهو حائر لا يدري ما يفعل .

الا ان كارنين مس طرف قبعته باصبعه ، ثم انحرف قليلا وغادر البيت .

ذهب الزوج لا يلوي على احد ، ودخل العشيق خدر الزوجية .

وحدث كارنين نفسه دون ان يفقه ما قاله لسانه . .

ولوح فرونسكي بيده وقال : « صدقة . لا احفله ولكن ، ما خطبه ؟ لم يفعل شيئا ؟ لم لا يذهب عن شرفه فيقابلني ؟ تبا له من رعديد ، الا يتحرك حتى انهي المسالة وابت بالامر ؟

وتقدم الى غرفة انا ، وطرق الباب .. خفيفا وفتحه .. كانت انا بادية الانفعال تذرع المكان مهتاجة مضطربة . وما ان شاهدته يدخل حتى هتفت وهي تشرق . هذا مريع انه لا يحتمل ! »

قال : « خففي عنك يا انا ، ماذا الم بك ؟ » .

قالت : « عذاب . . توتر شديد وانفعال وهياج دائمان .. وانا اتحرق ليل نهار لن اصبر اكثر مما صبرت .. ثم تتلكأ انت وتتاخر ، وتمضي الساعات وانا اعلل النفس ، فما جرى يا ترى ؟ » .

وجلس الاثنان ، قبلها ، وهدهد خدها حتى اذا ما هدأ ثائرها ، رنت اليه متوددة وقالت :

« اخالكما تقابلتما وجها لوجه فهل تكلمتما ؟ » قال : « لم نتبادل الكلام بل النظرات » قالت : « خيرا فعلتما » .

قال : « الا اني اعجب بهذا الخطأ ، فقد ذكرت انه ذاهب الى دار الحكومة ، فكيف ؟ »

فقاطعته قائلة : « لا اعلم عن امره شيئا ، او بالاحرى لم اعد اعلم .. فقد ذهب كرة ثانية كما رايت » .

قال : « لعله يبيت امرا ؟ »

قالت : « لا آبه فليضمر كل الشر .. اما انت فحدثني عن اميرك » .

قال : « انه متعب وصحبته تغمني سأما ، وهو اليوم متوعك يلوذ بمرقده ، والحمد لله ! » .

تقرقرت انا مغتبطة ، ولكنها سرعان ما قالت مقطبة : « على انك زجيت معه وقتا طيبا ، وصاحبته الى جميع ملاهي المدينة .. وانت رجل، والرجال لا يتأخرون عن اجتناء لذة ! »

فنظر مبهوتا ، وافزعه في محياها تقلص غاض معه جمالها ، ولكنه كتم اشمئزازه ورعبه واجاب :

« لا صلة لي بالمجون ، فقد صدفت منذ زمن عنه ، وثقي ان صحبتي للامير تولاني منها ضجر لا يعدله ضجر ! » .

فتفرست فيه مرتابة مشككة وقالت :

« على اني وقفت على اخبار الليلة الحمراء التي احياها الامير ! »

« وماذا في ذلك ، وما شأني به ؟ » .

« الم تسهم معه في الحفلة ؟ »

« كلا .. فقد كنت في معزل عن الجميع بفكري » .

« وماذا تقول عن الفتاة المستهترة التي تعرت ورقصت رقصتها الصاخبة ؟ » .

« وهل الام انا ؟ هل امنع ما يريده صاحب الحفلة ؟ » .

« ويلكم يا رجال اليوم ! تقترفون الفاحشة ثم تنكرون ؟ وانا ،انا التي اهواك واعبدك ، هل اعرف عنك النزر اليسير ؟ هل اعرف ما تقوم به غفلة عني ؟ » .

« كفاك لغوا يا انا فانت تجهدين نفسك فيما لا طائل تحته ، انت تثيرين الي ، وعذابي بهذه الترهات ! »

اصبت ، انا افعل هذا ولكن وحدتي قاسية ، قاسية لا تجاريها في قسوتها ملالة امراة .

* * *

كان في المدة الاخيرة قد قصرت همته ، وقلل من حبه لها بما ابدته من علائم الغيرة ، حتى شعر بالرابطة الوثيقة تنحل عراها ، وبالعلاقة الوطيدة تنقطع حلقاتها . كان يستعذب كلامها من قبل . وكان كل ما تقوله يحسن موقعه في قلبه .. وما اكثر ما ناجى نفسه قائلا :

« لتحبني فقط ! فاصبح اسعد اهل الارض طرا ! »

ولكن ، لما احبته هذا الحب الجارف ، وتبع ذلك غيرة ، تلاشى حبه الاول .. ثم ان شعور الهناء الذي تسرب الى قلبه يوم اعربت له عن حبها . لم يعد له وجود .. واعجب من ذلك كله انه جعل يتحسر على الايام الخالية . ويرى فيها سعادته الغالية ، ويود لو رجعت .

لقد تبدل الحال ، وتبدلت انا ولم تعد كما كانت من قبل ، لم تعد جميلة ينضح الحسن من محياها وجسدها .. الم ير وجهها ساعة غضبت؟ الم يشهد تقاطيعها تتقلص عن كره وغيره ؟

وهو في كل طور من اطوار حياته كان يعتمد بقوته وارادته ، ويؤمن بانه لا يعجز في كل وقت عن الاقلاع عن حب امراة مهما كان راسخ الجذور . وانه في كل وقت يستطيع ان يكف عن عادة مهما كانت متمكنة من حياته .

وقد لاحظت فيه ما اخافها ، فجعلت تقول وصوتها يفضح ندامتها :

« لن اخضع لتامة الغيرة ، وساطرحها جانبا مهما كان الامر ، فاخبرني الان ، حدثني عن الامير صاحبك .

فضحك فرونسكي وقال : « ان عاداته مقبوحة مستهجنة ، وقد فكرت مرارا في اعفاء نفسي من مصاحبته ، ولكني صبرت على كره حتى لا اسيء الى مركزي .. انه حيوان بهيم عقد على راسه تاج .

فابتدرته متعجبة مستفهمة : « وكيف تسول لك نفسك هذا القول . ومكانته في العلم والاطلاع لا يجهلها انسان ؟ » .

« اصبت ، الا انه اخلى فكره من الفكر ، وكانه عندما جمع العلم ، جمع معه الجهل .. او كانه عندما حصل على المعرفة حصل عدم المعرفة !

فضحكت انا !

واستطرد وهو يقول : « فمن واجب العالم ان يعظ ، من واجبه ان يقوم الناس بلسانه ، اما هو فلا يظهر الا على خرقه . وتفاهة فكره ! » .

قالت : « زدني ايضاحا ، فقد اثرت فضولي » .

قال : « وفضلا عن كل هذا ، فهو صنيعة الشهوة ، يؤثر النساء على كل شيء اخر ، ويتبع الرذيلة الى اقصى المعمورة ! » .

فتجهم وجهها وتقبضت سحنتها ، وقالت محتدة :

« وهذا نقصكم جميعا ايها الرجال ، تركبون الاهوال لتنالوا رغبة النفس الجنسية ، وتتبسطون اليد بالمال ، لتدركوا اوطاركم من النساء .. ان المرأة هي حياتكم .. انها الهواء الذي تتنشقون ، والطعام الذي تأكلون ، والماء الذي تشربون ! هذا ما عاينته فيكم معشر الرجال ، وهذا ما عهدته غيري من بنات حواء ! »

« وانت ! هل تنكر ان غريزتك املت عليك التمتع بمنظر الراقصة العارية ؟ » . فقال محتدما قليلا : « خلت انك قلت منذ وهلة انك تخليت عن الغيرة ، فماذا دهاك ؟

ثم عاد فابتسم ودنا منها وقبلها مسترضيا .

وقالت : « لقد فتق حبي لك ان ينصب كلامي على ما يمس غرامي ، فلا تلمني ، لا تلم امرأة لعجها الحب ، فتألمت وتعذبت .. واظن ان المحبين متعرضون دوما لمثل هذه النزع المتضاربة » .

قال : « اجل ! ان المحبين عرضة في كل حين لهذه الاحاسيس » .

قالت : « هلا اخبرتني عن التقائك بزوجي ؟ وكيف تم ذلك ؟ » .

قال : « لما دخلت الباب فتح على حين غرة باب آخر برز منه الكسيس ، فخفق قلبي ، ولكني سررت ، لاني ظننته رجلا يسوي حسابه مع المحسن والمسيء على حد سواء ! »

قالت : « فماذا فعلت بالله عليك ؟ »

قال : « مس قبعته بأنملته ، ووقف كأنه سمر الى الارض ، ولم يلبث ان مضى مسرعا كما بدا ! » .

قالت : « ويله ، وويل جموده وصموده ! اني اكاد اجن من غموضه ! » .

وضحك فرونسكي ، وضحكت انا .. اما الزوج ، اما الكسيس كارنين الزوج ، فهو لم يضحك ، بل قبع في مكتبه في مثل هذه الساعة المتأخرة ، يفكر ، ويتألم !

وهل هناك الم ابلغ اثرا من الم زوج داست امرأته على كرامته وحطمت شرفه ، وامتهنت اسمه ؟

كان كارنين يفكر بالقتل ، ويفكر بالطلاق ، ويفكر بالهجر ، ولكنه لم يصل الى نتيجة في تفكيره .

« ما اعسر زوجك على الفهم ! اهو جبان ، ام شجاع ؟ اهو شريف ام خائن ؟ اهو قوي ام خائر ؟ اهو عاقل ام ابله ؟ انه واحد من اثنين ، فلو كان فظا غليظا لارتحت ، ولكنه هادىء رزين ، وهذا ما يزيدني اضطرابا وقلقا ..

ولو تحداني ودعاني للمبارزة ، لاغتبطت نفسي ، ولكنه يراني الج بيته فيترك لي المجال .. اليس في تصرفه ما يحير ؟

قالت : « انه بليد الحس بطيء الادراك ، ولكنه لئيم الطبع ايضا ! » .

قال : « قد تكوني مخطئة ، واخاله يتالم كما يتالم رجل ذبيح ! » .

فضحكت ساخرة واجابت : « هو يتالم ! وهل يعرف هذا الرجل معنى الالم؟ هذا الرجل الاناني الطامع لا يفكر الا في بلوغ مآربه من الحياة .. ومآربه الاول احتلال الذروة ولو توصل بالباطل ! »

« ولكنه كما قلت لك يترمض على نيران العذاب » .

« وعلى ماذا تبني حكمك ؟ الا تريته يذعن ويرضخ ويقبل الامر الواقع ؟ الا تريته يرضى لامراته ان تعشق عليه ؟ » . فعجب منها وذهل لكلماتها .

واستتلت : « انه نسيج وحده ، فبدلا ما ان يقضي على المراة التي خانته يطلب اليها ان تبقى معززة مكرمة .. اتعلم لماذا يريدني ان ابقى معه ، لانه لا يرغب في عرقلة مساعيه الرامية الى تذليل الصعاب .. هذا هو السبب ، افهمت ؟ » وازداد فرونسكي عجبا .

ومضت انا تقول وعيناها تشعان ببريق غريب ، وعضلات وجهها تتوتر وتنكمش : « تبا له . لقد عذبني واسترقني .. اني امقته » .

وتضاعف عجب الشاب .

واتمت انا ونظرتها ترق بغتة ، واساريرها تنبسط ، ولونها يصفو بعد كدر : ولكن .. اننا قد نكون ، مخطئين ، وكل منكهن قد يصيب وقد يخطيء » .

لم يعلم فرونسكي سر هذا الانقلاب .. لم يعلم ان شيئا خفيا تململ في احشائها .. لم يعلم ان لمعة حبها الاليم ذكرتها بهذا الشيء .

لم يعلم ، بلى لم يعلم . .

* * *

بعد ان التقى الكسيس بعشيق امراته في بيته ، ذهب الى مكتبه ، فقضى فيه ساعة لم توجه الى دار الاوبرا ، وانزوى في مقصورته يتامل بالخلق ، ويحاول ان يرى كل من يريد ان يراه .

وعاد بعد منتصف الليل الى بيته ، ولاذ بغرفته . ولكنه لم ينم ، بل جعل يلدع الحجرة وهو مستغرق في الفكر . وما زال كذلك حتى طرق سمعه دقات الساعة الثلاث .

كان يشعر بالغيظ والموجدة ، وينقم على زوجته لانها ضربت عرض الحائط بتحذيره واستقبلت عشيقها في بيته .. ولهذا لم يبق له خيار بين الصفح والقصاص ، وسيعاقبها ، الى طلاقها بعد ان يحرمها من ابنها .

وما تبلج الفجر ، حتى اندفع خارجا من غرفته وتوجه اليها في مخدع النوم ، وهو يزمع ان يصب على راسها جام غضبه ، ويشفي غليله منها .

كان الكسيس كارنين رجلا متئدا متانيا ، لا يتحرك ساعة يثور غضبه حتى لا يوقعه تهوره في المأزق . كان صبورا يفكر قبل ان يعمل ، ويعمل بعد ان يضع الخطة اللازمة .

وقد فكر طويلا في ساعات تلك الليلة ، لقد صفع لها زلتها الكبرى .. وحذرها من مغبة التفرد به في هذا البيت ولكنها تجاهلت تحذيره واستغفلته فاستضافت عشيقها .

وراته انا يدخل عليها وعيناه تبرقان حنقا فأوجست خيفة .. الا انها لم تظن قط انه سيأخذ من هذه الهفوة ذريعة لانتقامه شفاء لغليله .

خيل اليها ان زوجها فقد كل رجولة .. خيل اليها انه احمق لا يقيم وزنا للشرف .

فلما راته مقبلا وفي عينيه شرر كانه النار وجف قلبها خوفا .

ونظرت اليه متسائلة فرات في عينيه الشر مجسما ... واستنتجت انه آت ليسوي الامر معها .

وصدق حدسها . فقد كان متجهما .. وتهجم عليها بالكلام فحملقت غير مصدقة . ثم التفتت الى خزانة ثيابها ، ففتح جارورا صغيرا تضع فيه اوراقها الخاصة ، فصاحت : « اقصر .. ابعد .. لا تمد يدك » .

ولكنه لم يتردد بل دفع يده داخل الدرج واستخرج رزمة صغيرة من الرسائل . فوثبت كمن اصابه مس وامسكت بيده . ولكنه دفعها عنه بعنف ووضع الرزمة في جيبه وهو يقول :

« هذه الرسائل .. رسائل غرامك .. انها .. اصبحت لي ... وساستعملها في ما انوي القيام به .

وصرخت انا في وجهه ، ووجهت اليه تقريعا شديدا . الا انه حدجها بنظرة صارمة متوعدة وقال : « لن يجديك احتجاجك نفعا » ولن يعود عليك صخبك الا بالاذى ، فاجلسي واصيخي ! » .

فصدعت بالامر مشدوهة ، وجلست وانتظرت قوله :

وتكلم الرجل وكان كمن ينطق بالحكم .. وقال : « الم انبهك ! الم انهك عن مقابلة عشيقك في بيتي ! » .

قالت ولسانها يتعثر في حلقها : « اردت ان اطلعه على امر .. اردت ان اخبره ان .. » .

فعارضها بصوت متهدج : « اردت فقط ان تقابليه ، وان تقضي بعض الوقت » فصاحت : « تبا لك ! الا تقنع ؟ » .

قال : « ابكلماتك اقنع ؟ هل اؤمن بما تزعمين ، وانت .. انت التي ؟»

« ايها القاسي ! »

« انا لست بالانسان القاسي ، بل انا رجل دنس شرفه ، وتهتك عرضه وانت الست لصة ؟ وحبيبك من هو حبيبك ؟ » .

« ايها القاسي ! »

« الاني انهك عن مقابلة عشيقك في بيتي تصمينني بالقسوة ، الاني تغاضيت درءا للفضيحة تقولين انني متعنت لا ارحم ؟ »

« انك وضيع ! ومتى اجتمعت القسوة مع الضعة تناهى الرجل في الصغار ؟ » .

فحملق فيها متعجبا ، وتساءل فيما بينه وبين نفسه عن كنه هذه المراة ، هل هي الانثى التي عاشرها سنين طويلة ؟ ولما التصبت واقفة ومشت صوب الباب لتذهب ، اعترض سبيلها وقال وهو يشير بيده اشارة الامر الناهي : « اجلسي ! لا تبارحي المكان ، فلي معك كلام كثير » .

فهزت كتفيها وحاولت تجنبه ، الا انه قبض على ذراعها وضغط بشدة حتى صرخت ، ثم دفعها فانهارت على مرقدها وهي تتاوه وتنشج . ورماها وهو مائل فوقها ، بنظرة احتقار ساحقة وقال : « انت تثيرين غضبي ، وتأخذين علي اعتراضي على وجود عشيقك في بيتي ، الا فاعلمي انك اقسى من صادفت من النساء الساقطات ؟ انت لا تخافين شيئا ، انت لا تشفقين على زوج وفي وابن طفل ما زال مستقبله يتارجح في كفة ميزان .. فكيف يطاوعك قلبك ؟ كيف ؟ » وانت المراة تحت ضربات هذه الكلمات ، وذرفت عيناها دموعا غزيرة ، ولم تنطق بحرف ، فقد سلمت له في قرارتها بحقه ، فهو مظلوم ، وهي باغية .

واستطرد هو يقول : « وهل هناك في تعابير اللغة والفاظها ما لا ينطبق السيىء منه على حالتك المزرية ؟ » . فاجابت متلعثمة : « وانا اعرف كل شيء فلا تتمادى في وصف ما اعرف » .

« فكيف ضربت بتحذيري اذن عرض الحائط ؟ » .

« ماذا تطلب الان ؟ ابن عن ماربك ، امط اللثام عن مقصدك » .

فاعلمي اذن اني سالجأ الى القانون حتى ينقذني من هذه المصيبة

التكراء ، سأفعل ما يليق به فعله ، قبل ان تفيقي انت وعشيقك من نشوتكما ، وقبل ان تفيئا الى نفسيكما » .

قالت : افعل ما يحلو لك ، فليس احب على نفسي من وضع حد لهذه المأساة التي طال امرها » .

« حتى تكرسي له وقتك كله ، حتى تنعمي بحبك الملوث ! » .

« كفى ، كفى .. فاللغو في مثل هذه الحال لا يغني عن الالام » .

« وماذا يغني عن الالام ؟ » .

« الا تشعر بالاباء ؟ الا تشفق على امراة صرعتها النائبات ؟ او تظنني سعيدة بما آلت اليه نفسي ؟ اني اتعذب ! » . « اني اشفق على نفسي ايضا ، نفسي التي ربأت بها عن المنكر فابتليت بما هو شر من المنكر ! » .

وعظمت في ناظريها جريمتها ، وانباها حسها بانه اهل لكل شفقة ، فاين الرجال الذين يستطيعون ان يحتملوا ما احتملته ؟ اين الرجال الذين يكبتون مشاعرهم ويتعذبون بصمت وسكون ووحدة ؟

ولكنها جمجمت بأسى : « وماذا تراني فاعلة ؟ لقد تلاشت قوتي وتخلت عني ارادتي » . قال وكأنه لم يع كلماتها : « لقد سبق السيف العذل كما ترى ، واعلمك اني مسافر غدا الى موسكو ، واني عن هذا المنزل مبتعد لا اروم رجوعا .. سالجأ الى محامي واطلب اليه ان يقوم بالاجراءات التي اسوي بها مسالتك ، ساطلب طلاقك .. اما ابني فسابعث به ليعيش في كنف شقيقتي » . فارتعدت فريصتها وجحظت عيناها وهتفت :

« اتحرمني حشاشتي ؟ اتنزع مني فلذة كبدي ؟ »

« لا مندوحة لي من ذلك ، فهذا امر يحتمه الواجب » .

« او تنتقم من امراة يائسة مستضعفة؟ » . « بل اتقد طفلا من حماة ! »

« بيد انك لا تحبينه ! » . « كلا .. وهل ابقيت لي مجالا لاحبه ؟ » .

« فاتركه لي اذن تعزية وسلوانا ! » .

« بل اني آخذه منك ، هذا واجب يفرضه علي التقليد والشرف » .

وخطا خطوتين نحو المخرج . فاعترضت سبيله وقالت متضرعة :

« ارحمني .. اترك لي ابني .. لا تصفح ، لا تغفر ، بل افعل هذا فقط ، افعله ، ارجوك » .

واشرقت بدمعها وزفرت ، فخيل الى الرجل انها تنفخ النار . ولكنها تمالكت وقالت : « من ذا الذي يستطيع ان يسلب الام ابنها ؟ من غير الشيطان ؟ » .

قال : « الشيطان الذي يرحم احيانا .. » فسيرج » طفل ، وخير له ان يعيش وحيدا من غير ام ، من ان تكون له ام خلعت العذار وارتكبت المعاصي .

قالت : الا تخف ربك ؟ يا الكسيس كارنين ؟ فكر بما انت فاعل ، فكر بقلب تسعى الى تمزيقه اربا اربا . لا تسلب نور عيني ، لا تقتلع قلبي من بين اضلاعي » .

فلم يحر الرجل جوابا ، وظل واقفا جامدا مستغرقا في الفكر .

واتمت : « كن رحيما ولو اسأت اليك ، يرفع عنك الله الاماكثيرة » .

قال : « اني ارحم الانسان لضعفه ، ولكن علي امني بولدي فلا اتركه لينشا في احضان فاسقة » .

فأعولت آنا ، وظلت في مكانها وهي تنشج وتنتحب . فنظر اليها زوجها قليلا ، ثم غادر الحجرة وهو يتمتم : « انت اخترت هذا المصير ، فتلمظي بعلقم جريرتك » .

* * *

اما سبب اختيار كارنين لمدينة موسكو لكي يجري فيها طلاقه من زوجته ، فيرجع الى ان اعماله كانت تطلب منه القيام بزيارة الى موسكو والمكث فيها زهاء عشرة ايام ، والى انه كلما ابعد عن بطرسبرج كلما خفت وطأة اللغط . وقد ظعن في اليوم التالي الى المدينة . وبعد ان استراح من عناء السفر ذهب الى محام شهير مشهود له بالبراعة .

وانتظر كارنين في قاعة الاستقبال حتى برم وعيل صبره ولما راى ان الوقت قد يطول قبل ان ينتهي الرجل من مقابلة عملائه جميعا ، ارسل له بطاقته . وما اسرع ما جاء المحامي مهرولا ، فحياه وبش في وجهه ثم صحبه الى مكتبه .

ولما استتب المقام بالرجلين وتبادلا كلمات المجاملة ، دخل كارنين في صلب الموضوع ، فمال على المحامي يقول : « ان ما جئتك من اجله قضية خاصة لا مفر لك من احاطتها بالكتمان والسرية » .

فأجاب المحامي وهو يقطب قليلا : « ولا احتاج الى تنبيه يا سيدي ، فمهمة المحامي كمهمة الطبيب » .

وتأمل فيه كارنين للمرة الثانية واستطرد : « انت تعرفني ولا غرو ؟ »

قال : « اجل . فأنت من وزراء روسيا ، وهذا شرف عظيم لي » .

« ولم يجبه كارنين » بل ظل صامتا شاخصا امامه . وما عتم ان ابتدر

المحامي يقول : « الا فاعلم اذن ان هذا الوزير زوج مخدوع لا يرى ندحة من طلب الطلاق » . فقال المحامي :

« وانت تريد مني ان انهي المسألة بحسب مشيئتك ؟ » .

قال : « هذا ما اتيتك من اجله ، على ان تفعل اللازم ليبقى لي حق الاحتفاظ بولدي » .

« ثم ؟ »

ثم ، اود ان اجعلك على بينة من امري . انني الان هنا لاحظى بمشاورتك ورايك . قد يقتصر عملك الان اسداء مثل هذا الراي وتلك المشورة ، وقد يقتضي قيامك بالاجراءات حتى اخر مرحلة منها . واعلم ان ما ابغيه من تطليق زوجتي يرافقه ببعض الشروط ، وهذه الشروط هي لازمة لي ، وربما يضطرني عدم توافرها الى عدولي عما اريد » .

« هذا شأنك ، وانت حر فيما تريد » .

« فهل لك ان تحيطني علما بالخطوات التي يخطوها المرء في مثل هذه الحالة » . « او تبغي مني ان اسرد عليك التفاصيل » . « نعم ، افعل ان كان هذا لا يرهقك ويبدد وقتك » .

« اعلم ان التشريع في بلادنا يجيز الطلاق في احوال معينة ، اولها : عجز في الجسم او في نقص معيب في تركيب الرجل او المراة الطبيعي ، ثانيا : هجر طويل الامد ، او على وجه التحديد تغيب احد الطرفين لمدة لا تقل عن خمسة اعوام ، ثالثا : الخيانة الثابتة . فما هي قضيتك . وعلى ماذا تستند » . فاطرق كارنين ولم يجب .

واستلى المحامي وهو يهز راسه : « ففي حالتك اذن ، حالة الخيانة الزوجية يكون الجرم متفرعا الى شعبتين ــ زنا الزوجة بموافقة الزوج ، ووقوعها في الفحشاء في غفلة عن زوجها ! » قال : « وماذا تعني ، اوضح ! »

قال : « قد يتفق ان يرى الزوجان ان علاقتهما شابتها غيوم تلبدت في سمائها حتى حجبتها وكدرتها ، فيفصلان متفقين . وتعمد الزوجة الى الحياة مع حبيبها ، وهذه الخيانة لا تحتاج الى دليل في القضاء ، ورسالة واحدة تكفي للظفر بالحكم ، والاشهاد عليهما في الجرم المعروف هو كذلك دليل لا يحتاج الى اثبات .. فما هي قضيتك ، وكيف تريدني ان اسير بها ؟ » .

ونظر الى كارنين متسائلا ، واحمر وجه الاخير ولم يحر جوابا .

واردف المحامي يقول : « عليك ان تكون شجاعا فتفضي لي بالحقيقة ، لا تخش سوءا ، فكلنا في المصيبة سواء ! » .

وتململ كارنين في مجلسه ، ثم انتصب واقفا وهو يتأهب ليذهب :
« علي ان اقلب الفكر على مختلف وجوهه ، فدعني اتأمل في هذه المسألة ، وسأرجع اليك ! » .

قال : « انت في امورك مخير ، فافعل اللازم ، وثق اني على قدم الاستعداد لخدمتك في كل حين » .

★ ★ ★

مشى كارنين ، وما زال يضرب في الطريق على غير هدى ، حتى التقى بغتة باستيفان اوبلنسكي شقيق زوجته انا .

وقد اجفل ساعة رآه ، فهو منصرف بذهنه عن الجميع ، لا يرغب في التحدث مع انسان ، ولا سيما هذا الرجل الذي يذكره بانا وخيانتها . وحياه بايماءة ، واستمر يمشي ، غير ان اوبلنسكي استدار على عقبيه وهرول وراءه ، ثم قال بصوت مشرب بالعتب :

« اتأتي الى موسكو ، ولا تعرج علينا ؟ تأتي دون ان تطرق بابنا ؟ هذا عجيب ، هذا امر مذهل ! » .

فقال كارنين بصوت خشن اجش :

« انني في شغل عن الجميع ، وليس لدي من وقتي فسحة ازور فيها الاصدقاء » .

ولم يأبه اوبلنسكي لجفائه ، بل تابع يقول بصوته الجهوري :

« لا مندوحة لك من المجيء فنحن في شوق شديد اليك .. واعلم اننا مدعوون غدا الى الاحتفال الرائع الذي يحييه آل شرباتسكي بمناسبة خطبة كاترين .. أو تعلم من الخطيب ؟ انه ليفين .. ولا بد لك من حضور الحفلة معنا » . ولكني راحل الى بطرسبرج .

« فلتات اذن لتشاركنا طعام الغداء لان داريا ترغب كثيرا في رؤيتك» .

« لن اتمكن من ذلك » . « حاول ، ارجو ان تحاول » .

ورمقه بعينين متوسلتين لأنت تحتهما خشونة كارنين . لقد كان مصمما على مجافاة هذا الرجل حتى لا يضطر الى مصاحبة شقيق زوجته ، ولكنه احس بعد هذا الالحاح ، الميل اليه ، وخجل من نفسه ومن جفوته . وتناهى اليه وهو يفكر ، صوت اوبلنسكي يتساءل : « وماذا يحول دون مجيئك ؟ هل ثمة ما يقلق بالك ؟ » .

ففكر كارنين قليلا وأجاب : « لم يعد بيننا رباط كالسابق ، لقد فصمته انا بمحض ارادتها ! » .

فصاح الرجل مشدوها : « افي حلم انا ؟ وهل تقول الحقيقة ؟ » .
قال : « كلها يا صديقي كلها .. وما مجيئي اليوم الى موسكو الا لانهي علاقتي بها بالطلاق » .
واصفر وجه اوبلنسكي ـ لم يكن يتوقع هذه المفاجأة الهائلة ـ لماذا . يزمع كارنين ان يطلق زوجته ؟ وما السبب يا ترى ؟
قال متلعثما : « ما الخطب ؟ هل جرى ما يقتضي الطلاق ؟ » .
« اجل .. فقد حادت اختك عن الصراط » .
« كن عاقلا يا الكسيس كما اعهدك ، فكر في الامر قبل ان تقدم ، لا تكن عجولا فتندم » .
« بيد ان الحالة غدت لا تطاق ، وارتكبت انا ابشع فعل ترتكبه امرأة في مثل مقامها ومنزلتها » .
« على ان العجلة تعقب الندامة ، فتروّ ، تروّ » .
« ما اكثر ما لزمت جادة الروية والصبر ، ولا مرية ان جمودي شجعها على التمادي » .
« ما افظع ما سمعت . هذا الامر لا اكاد اصدقه . ففكر ناشدتك الله ، فكر .. فلك مركزك ، ولك سمعتك ، ولك ابنك » .
« فكرت بكل شيء .. ولكنها لم تفكر يوم داست كرامتي ، وثلمت عرضي ، واستباحت شرف ابني . لم تفكر .. وكأنها جنت ..
تعال الينا ، تعال فقد تجد السلوى والراي السديد لدى داريا ، فهي مخلصة لاصدقائها ، تتمنى لهم كل خير » .
وتردد كارنين ولم ينبس ببنت شفة . ثم تابع اوبلنسكي يقول في توسل واستعطاف : « تعال الى بيتنا غدا » .
« ولكني في حيرة عظيمة من امري يا صاحبي ، فقد آليت ان انأى بجانبي عنكم ، وها انتذا تلح علي ان ازوركم » .
« وماذا يحدوك على احلال القطيعة مكان الوداد ؟ » .
« لان انفصام علاقتي بزوجتي يوجب علي الابتعاد عن سائر افراد العائلة » .
« على ان صداقتنا راسخة لا يخلق بامرأة ان تعكرها . انا مخلص في قولي ، ولم اكن لك طوال ايامي الا التجلي والاكبار والحب .. » . « وانا اشكر لك طيبة قلبك » . « لا ارى غير ذلك ، فقد سلبتني حجتي » .
وتصافح الرجلان .. وابتسم الكسيس كارنين في هذه المرة .. ثم افترقا على ميعاد .

لم يستطع كارنين ان يخرج من حده ، واستجاب لنداء الصداقة ، وجاء بيت اوبلنسكي في منتصف نهار اليوم التالي .

وكان هناك رجل في طور الشباب يدعى بوشكين . وقد تعرف به كارنين ، وارتاح الى حديثه ، ولا عجب في ذلك فالشاب صحفي مشهود له بطول الباع .

وتناول الجميع طعامهم ، وتجاذبوا وهم يأكلون الوانا من الحديث الممتع الرصين . وما زال البحث يتنقل بافكارهم من طور الى طور حتى رسى نهاية الامر على موضوع المرأة الروسية – وهو موضوع شائك طالما اقلق بال الحكومة وازعج رجال الحكومة ، وسبب كثيرا من القالة بين اوساط الشعب . فالمرأة لغز محير ، تارة يرى الناس انها جديرة بكل تقدير فيطالبون لها بالمساواة ، وتارة اخرى يصمونها بالنقص والتفاهة ويصرون على بقائها حيث هي .

اما الصحفي القدير فقد كان من الفئة التي تطالب للمرأة بالمساواة ، ولا يرضى عنها بديلا .. ويرى ان المساواة لو تحققت لنهضت دون شك بالمرافق المتأخرة والنواحي المتخلفة .. ولتلاشت الى حد كبير ما تجنح اليه المرأة من خيانة .. فلو تساوى الرجل والمرأة في نظر القانون ، لخاف الرجل عاقبة الخيانة كما تخافها المرأة ، ولتردد الاثنان مئة مرة قبل ان يقدما على استباحة دمار العلاقات الزوجية المقدسة .

وقد تجهم وجه كارنين . وبدا عليه الانفعال ، الا انه كبت مشاعره ، حتى اذا فرغ الجميع من الطعام ، ابتسم كارنين ابتسامة مغتصبة لكي يظهر لاوبلنسكي ان ما سمعه لا يؤثر عليه ، وما عتم ان قال موجها الحديث الى الصحفي بصوت هادىء مشرب بلهجة التهكم والسخرية مشرب بشيء من الغيظ المكتوم : « على ان الامر لا يعدو الاعراب عن راي لك وراي لي ، واخال ان رايك يناقض رايي ، فالمرأة مخلوق متأخر يجب تسييره وتوجيهه ، وعلى هذا يتعذر وضعها في مصاف الرجل – في المقام الذي وصل اليه » .

ولما هم بالانتقال الى قاعة الاستقبال استوقفه بوشكين وقال : « ان الخيانة كما اكدت لك هي وليدة الفارق الذي تؤيده يا سيدي ، الم تسمع البارحة ما جرى ؟ » .

« وماذا جرى ؟ »

« لقد تحدى الكونت بركنكوف غريمه في زوجته ، وتبارز الاثنان فقتل العشيق لساعته ؟ » .

ولهفت نفس اوبلنسكي .. وود لو استطاع ان ينبه الرجل الثرثار الى تهوره ، ود لو صفعه على وجهه .. وحاول ان يصرف الاثنين عن متابعة الحديث ، فدعاهما الى مغادرة مائدة الطعام . الا ان كارنين حدجه بنظرة صارمة والتفت الى الصحفي وسأله وكأنه لم يسمع جميع كلامه : « وما السبب ماذا جرى ؟ اشجار ، ام خلاف في المبدأ ؟ » .

قال الصحفي : « انها الخيانة الزوجية كما قلت لك . ولا شيء غيرها .. وقد اثنى الجميع على الزوج ، فهو شجاع دلل بحزم على شجاعته . واستأهل بذلك كل تقدير ! » .

وعض كارنين على نواذجه ، واحنى راسه . ثم مشى برفق الى قاعة الاستقبال فتهالك على مقعد صغير ، وجلست داريا الى جانبه واسترقت اليه نظرات خائفة وجلة ، وقالت :

« لكم سبب لي حضورك من سرور وانشراح يا سيدي ، فانت دائما في القلب .. انت صديق يرتاح الانسان اليه كل الارتياح ! » .

فتكلف كارنين الابتسام واجاب : « هذا واجب تقتضيه العشرة والالفة يا سيدتي ، واني وايم الحق جذل لهذه الفرصة » . وكم تراك تمكث بيننا ؟ » . « سارحل على التو ، فاعمالي كثيرة ، وهي تضطرني الى التجوال في المناطق البعيدة عن موسكو » .

وفتحت داريا فاها للتكلم « ولكنها اطبقته دون ان تتكلم ! » ورماها بنظرة لطيفة شجعها على ما تريد فابتدرته تقول :

« لقد داخلني من مودة انا ما جعلني دائما في شوق اليها فكيف هي الان ؟ » . قال : « انها وافرة الصحة والهناء ! » .

وقطب قليلا وتوترت عضلات وجهه ..

قالت : « ومع اني اعلم ان ما اطلبه منك هو من الاسرار التي يجب كتمها الا اني اتوسل اليك ان تبثني همك وتطلعني على دفين امرك » .

اعلمي ان هذا الكلام شديد الوطأة على نفسي ، فحولي ان اردت دفته الى اتجاه آخر » .

« اطلب الصفح يا صديقي ، بيد اني الح ، فابثني باليقين ، ولا تكتم ما سوف يفشو ويشيع » .

« ان زوجك ، ان صدقت فراستي قص عليك خبري » .

انه فعل ولكن بايجاز ، فماذا تأخذ على انا ؟ ماذا فعلت حتى استوجبت العقاب ؟ »

« الفاحشة ، ارتمت في احضان الفجور ، شربت من المياه الآسنة التي تسم شاربها بالرذيلة والزنا ! « لا .. لا .. لن اصدق ! » .

هذا شأنك ، ولك ان تصدقي كلامي ، او تنسبيه الى الكذب الوضيع».

« انا واثقة من استقامتك ، موقنة من كرم طباعك ، غير ان الخيانة لم تخطر لي على بال ، فانا اعرف انا واحترمها ، واقدر رجاحة عقلها » .

فتلهب كارنين غضبا وهتف متأججا محتدما :

« انت تدافعين لمجرد الدفاع ! او لان صديقتك عزيزة على نفسك ، لا ترضين لها المذلة والهوان . ولكن ، ما قولك في اعترافها ؟ لقد اعترفت لي هي بمحض ارادتها ، اعترفت بعلاقتها الاثيمة .. وهل الكلام الذي ينطق به انسان بملء اختياره يعتبر لغدا وهراء ، وخاصة اذا كان اعترافا » .

« اعترفت » .. « وقالت انها تنظر الى السنين التي قضتها معي كأنها سنون بؤس وشقاء ، وان ما تبقى لها من العمر سوف تعرف جيدا كيف تقضيه » .

« اواه وهل في مكنتي ان اوفق بين صديقتي انا وبين الخيانة الزوجية. انا .. تلك المرأة العاقلة الابية ، تتردى في مثل هذا الجرف ؟ » .

اما كارنين فقد الر عليه كثيرا ما شاهده من الم داريا ورقتها ، فسارع يقول :

« تغاضيت في اول الامر ولم ارد ان اعاقبها من ان ذنبها اكبر من ان يغتفر ، ولكنها استغلت سكوتي وصفحي فعملت على قتل احساس الشفقة في نفسي .. لكم كنت اود ان تفيء انا الى نفسها وتستعيد رشدها » .

وتابع يقول :

« كنا يخاف الشك ، لانه يمزق الصدر ، لكن متى انقلب الشك يقينا قلب الروح .. لقد ذهب الامل يا داريا وانا اكره ان انظر اليها ، لاني كلما رايت الرجس مجسما ، والفحش منطبعا بصورة مروعة في اساريرها » .

« هذا مخيف يا كارنين » . « واخوف منه ما طفقت اشعر به من نفور شديد من الطفل البريء اتصدقين ؟ لقد اصبحت انفر من ابني » .

« يا لك من شقي » . « انني اشقى من وجد ، انني التعاسة التي تفزع منها كل تعاسة عرفها الانسان » .

« وعلى ماذا عولت ؟ هل عزمت على طلاقها ؟ » .

« وهل لي ندحة من ذلك ؟ الديك غير هذا الحل » .

فلاذت داريا بالصمت ، واغمضت عينيها ثم فتحتهما فاذا بالدموع

تترقرق في حدقيهما ، واذا بها تقول : « لا يستعصي على مثلك البحث عن حل اخر » .

« وكيف ؟ وهل ابقى كما انا الان . هل اصبر على هذا الضيم ؟ لقد عملت الفكر طويلا ، فما اهتديت الى وسيلة اخرى غير الطلاق . . ام هل تريدين مني ان يكون لزوجتي زوجا ثانيا ؟ » .

فتصاعد الدم الى وجهها ، واستعبرت عيناها ، وانشأت تتمتم بهمس :

« ما اصعب الموقف ! ما اصعب الموقف ! ثم استدارت بغتة ولفتت ، وما عتمت ان اردفت :

« ولكن ، ما قولك بما حرمه الله على عباده ؟ او تجيز ما يمنعه الله ؟ او تضرب بوصية الله ؟ اوتقسو حيث حثنا الله على الرحمة ؟ وماذا يحدث! وماذا كل بها متى اصبحت بلا زوج وولد ! الرضى لها بالنهاية الرهيبة التي تنتظرها ان تخليت عنها .

« ما اكثر ما رفضني هذا الفكر ، بيد اني رأيت اخيرا ان اسحق ثامة الرحمة والشفقة ، وابحث عما ينفعني ويخفف المي » .

« اذن ! . . » .

« منحتها الفرصة لتتوب وترجع ، فلم ترتدع ، بل اسرفت في استهتارها ، ووصل بها جنونها الى درجة لم تتورع معها عن استقدام عشيقها الى بيتها ـ بيتي انا ـ ابعد هذا كله تطلبين مني ان احجم عن الطلاق ؟ » . « نعم ، لا زلت مصرة على استحلافك بكل عزيز وغال ان تنزع هذه الفكرة الكريهة من راسك » . « وبماذا تشيرين ؟ ماذا افعل غير ذلك » .

« الكيس كارنين ! كن انسانا . . كن ذلك الانسان الذي عرفت واحببت كن انسانا ضح من اجل روحها الخالدة . . لا تقذف بها في الحماة ، والله بصير وسوف يكافيك ويجازيك ! » .

« وما الحيلة ! انبئيني » . « فكر انت ، ولا تفوض امرك الى اليأس» .

« وطالما فكرت ، وطالما قدحت زناد الفكر ، فلم اصل الى نتيجة . على اني لا انكر فضلك ، ولا يسعني الا شكرك . انني ذاهب الان فثمة ما يضطرني الى مبارحتكم » .

« تريث يا كارنين ، ابق قليلا . . ولا تهب التقاليد البالية ، بل لب الى الامام ، واظفر بنزعتك الانسانية السامية » . « تطلبين المحال » .

« بل اطلب المستحيل من شخص قادر على كل مستحيل » . .

« الم يفعل بي زوجي ما فعلته انا بك ؟ الم اباغتهما متلبسين - هي وزوجي ؟ وصممت ان ابتعد عنه ، ان اهجر بيته ، ولكن انا جاءت مهرعة وحدثتني حديث الرحمة ، فعفت الى نفسي وثاب الي رشدي ، وانقذت بيتي من الدمار » .

« وكيف تشعرين اليوم ! »

« رجعت الي سعادتي بفضل انا ولن يغرب عني مهما امتد الاجل ما فعلته وما أدته . . لقد صفحت وعفوت ، فانسج على منوالي ، واصفح صفحا جميلا تلق عاقبة جميلة » .

فهز رأسه بشدة واجاب : « يؤسفني ان اخيب في رجاءك ، فلست قادرا على الصفح ! لا يمكن ذلك ، فدون العفو خرق القتاد ! » .

« او تخلف ظني فيك » .

« قلت يؤسفني ذلك . . وتأكدي ان اصراري لا ينم عن ظلم او طغيان او قسوة وتحجر . . انا لا اكره شخص في الوجود ، على انها علمتني المقت، علمتني المقت الشديد الذي يتلظى ويستعر ! » .

وطفرت عبرة محرقة من عينيه ، فمسحها بظهر يده واستتلى . « ما اجمل الصفح يا داريا ساعة يستحقه الانسان ، اما ان تصفحي عن امرأة فاجرة حطمت بيتها فجريمة نكراء ، واخال ان الله تعالى لا يبارك من يصفح عنها ! » .

وصمت فينة ثم مضى يقول : « ولا ارى فيما ابديت رأيا سديدا ، لا ارى فيما قلت ما يقوى على ثنيي عن عزيمتي . انني اصمت مليا وصبرت مليا ، ولكني مضطر الان الى ان ادافع عن نفسي حتى اطمئن في بيتي وبلدي » .

★ ★ ★

ذهب كارنين في جولته العملية في ضواحي موسكو وفي الامكنة البعيدة ، ثم رجع قافلا بعد بضعة ايام وهو معول على استئناف السعي للظفر بالطلاق .

ولكنه ما كاد يستريح في الفندق من عناء السفر حتى وصلته برقية من بطرسبرج ما ان اطلع على محتوياتها ، حتى دهش وتولاه الاضطراب ، كما اصابه هلع شديد . فقد جاء في البرقية :

« انا اكاد ان افارق الحياة . فاقدم بسرعة ، تعال قبل فوات الاوان

لان نفسي المعذبة لن تهجع في لحدها وتستريح قبل ان انال صفحك وغفرانك » .

وادخل الشك في روعه ان انا تروم خدعه ، وان حالتها طيبة لا تستدعي القلق والخوف .

ولم يحزم امره على شيء ، بل اعاد تلاوة البرقية وتمعن في الكلمات ترى هل اصابها مكروه ؟ ان الجنين الذي حملته سفاحا ابى ان يبقى ليعيش شقيا منبوذا مقصيا ؟! انها تطلب الغفران، افيبخل عليها بمشيئتها الاخيرة، افيخيب رجاء امراة محتضرة ؟

وقام لساعته فرتب شؤونه وانتظر موعد القطار فركب فيه في طريقه الى بطرسبرج ، وهو يبتهل الى الله ان يصل قبل ان تلفظ المشفية انفاسها الاخيرة .

ولكنه في نفس الوقت كان يؤكد لنفسه انه لن يتأخر لمحة عن الرجوع ان اكتشف محالها وعلم انها غررت به وخدعته لحاجة في نفسها ونفس حبيبها !

وتقابل وجها لوجه مع الحاجب ، فابتدره يسأله عن زوجته .

فاحنى الرجل هامته وابتسم واجاب : انها مريضة يا سيدي ، وقد وضعت امس مولودا انثى » .

فاستحال وجه كارنين كوجوه الموتى ، وسمر الى الارض ، والجم لسانه فلم ينطق .. وود في تلك اللحظة الحالكة لو قال له الحاجب :

« لقد قضت سيدتي نحبها ! » .

وعاد يسأله : « ماذا اصابها ؟ ما هو مرضها ؟ » .

قال : « لا ادري بالتمام ، على ان الطبيب لا يبارح مخدعها » .

وتقدم كارنين مطأطيء الراس بشعر بالمضض المتناهي ويكاد ان ينوء تحت ثقل الضربات المتلاحقة ولمحت عينه في الزاوية معطفا عسكريا ، فحملق فيه مذعورا ، وما عتم ان سأل خادما اخر عن صاحبه .

فتردد الخادم واجاب : « انه .. معطف فرونسكي » .

وتلفت حوله ، وخطا الى الامام مجفلا محتارا . واذا بباب غرفة انسا يفتح بسكون وتخرج منه القابلة بثوبها الابيض . فلما شاهدته حيته ببسمة طفيفة وابتدرته تقول :

« لقد اتيت ، وهذا من حسن الحظ ؛ فهي لا تفتأ تطلبك وتردد اسمك » .

وارتفع صوت اجهش يهيب بالقابلة ان تسرع بآنية الثلج فادرك انه الطبيب . ولولا ان حالة انا سيئة لما علا صوت الطبيب ، ودلف الى حجرة صغيرة تجاور مخدع النوم فراى فرونسكي جالسا على الاريكة ، وسمعه ينشج بالبكاء .

وتناهى الى الشاب المكتئب ركز خفيف فرفع راسه ووقع طرفه على كارنين فارتجف وارتعش ، وتململ في مكانه كانه ينوي الوقوف ، ثم عاد فتراخى ومال براسه الى جانب .

وعاد فنهض واقفا وتقدم من كارنين خطوة وقال : « ان زوجتك تسير بسرعة نحو الموت ، انها تحتضر .. واصارحك بانني طوع امرك في كل ما تطلب، على ان تتركني الان فلا تطردني » .

وانثنى كارنين براسه كانه لا يود ان يرى فرونسكي ، ثم عجل فتقدم من المخدع ، ووقف مرهفا اذنيه .

اصاخ كارنين ، وتناهى اليه صوت امراته . كانت تثرثر بسرعة وتهذل بكلماتها بصوت قوي النبرة . فدفع الباب برفق ودخل . فاذا بها مستلقية على مضجعها ، وقد جحظت عيناها وتضرج محياها وتدفق العرق من جبينها . وكانت تهذي بكلمات متقطعة لا معنى لها .. كانت تهذي وتقول :

« يا الكسيس كارنين .. ويا الكسيس .. واي اسم واحد لكليهما ؟ اصدقة هي ام نقمة مصبوبة على راسي ؟! الكسيس كارنين ، اين انت ايها الزوج الرضي الخلق ؟ اما تاتي لقد دعوتك ، فانت .. انت كريم النفس ، سمح لا تعاقب . فتعال ، ارجوك . اكاد اختنق اختنق .. اكاد اموت . اعطوني ماء . اعطوني دواء .. ماذا جرى لي ! واين طفلتي ؟ احموها من كل سوء . اطعموها . ارضعوها . ولكنه سيتعذب ساعة يسمع ويرى .. فما العمل ؟ » .

ورد عليها الطبيب وهو يمسح على جبينها الملتهب بمنديل مبتل :

« انه هنا يا سيدتي انا ، ان زوجك معنا هنا » .

فلم تع ما قاله ، ولم تر بعيونها المفتحة الا اشباحا واطيافا ومضت وهي تهذي وتقول : اين طفلتي ، حبيبتي ؟ هاتوها انني ارغب في رؤيتها .. ما باله تمنع لم لم يات ؟ ويلاه . انه لم يات ، فقد آلى الا يصفح عني .. انا موقنة من ذلك .. فهو شديد المراس .. يحلم كثيرا ، ويصبر طويلا .. فاذا غضب لا يستل الغضب من قلبه شيء .. حتى الموت » ..

وتفتحت عيناها المتفغتان ، وانجلت الغشاوة التي كانت تضللهما ،

فرات زوجها ، واضطربت وارتعدت . صرخت بصوت مبحوح :

هو هنا ، فليعلم اني مطمئنة لا ارهب نظرته الصارمة .. اما الموت .. اواه . ابتعد يا موت ، ابعد .. ابتعد ايها الطبيب ، اصنع شيئا .. ادرأ الموت عني » .

ولم يطق كارنين صبرا ، وذاب قلبه شفقة ، فانحنى ثم جلس على حافة السرير ، وربت على يدها الساخنة ، وامسك بها كأنه يود ان يطمئن زوجته الى صفحه وما لبث ان اغمض عينيه .. وانبرت انا تقول :

« الا شكرا على مجيئك ، ولست ارغب اليك الا في امر واحد — في مغفرتك ، فاصفح عني ، اضرب صفحا عن سيئتي » .

« وقال الرجل المتالم : انا ... » .

ولكنها لم تتركه يتم ، بل تابعت : انا امضي بسرعة الى عالم المجهول ، وقد طلبتك ، وها انتدا هنا . ولن انسى وانا هناك .. بعيدا انك كريم رحيم متاصل في الشرف » .

وتبدلت حال كارنين ، وانتقل به الشعور من الالم الشديد الى الاطمئنان المتناهي .. تذكر كلمات رائعة نطق بها السيد المسيح وهو يوصي بالصفح والمغفرة ، ويحث الانسان على ان يحب حتى عدوه .. وأفعم شعوره بسمو هذه المحبة .. « احب عدوك .. احبب من يبغضك » وجثا بقرب السرير ، وانحنى براسه حتى لامس جبينه يد انا واستخرط في البكاء .

وجمد الكل في اماكنهم مشدوهين ، وتحركت انا من مكانها فمسحت على راسه الخالي من الشعر بيدها . وتمتمت بصوت الظافر الجدل :

« انه صفح .. صفح .. فيا للرجل النبيل ! بيد انني اود ان اراه ارى الشاب .. الشاب .. فاين هو ؟ دعوه الي » . وهتفت « فرونسكي .. فرونسكي » ..

وجاء الشاب الملتاع ، وحدد في المريضة حبيبته نظرة المتامل الفاحص ، ولهفت نفسه ، فاشاح وجهه وتاوه وزمجر .

ولكنها ابتدرته تقول : « ما بالك ؟ الا تصبر على مكروه ؟ الا تنظر اليه ، الى زوجي ؟ انظر اليه ، الى الرجل الكبير .. الى الملاك الطاهر » . فلم يتحرك فرونسكي ، ولم يلتفت . وخاطبت انا زوجها عندئذ فقالت :

« ادن منه يا الكسيس ، ارغمه على الاتجاه الي بعينيه » .

فامتثل كارنين ودنا الى فرونسكي ، وطلب اليه ان يفعل ما تطلب منه انا . وقالت المحتضرة بلهجة قوية وصوت متهدج :

« الكسيس ! امدد له يدا بيضاء نقية ، صافحه .. صافحه .. » .

ولم يتردد الرجل بل مد لعشيق زوجته يده وصافحه ، وضغط على كفه . وانهمرت من عينيه الدموع .. وهتفت وهي تبتسم وعيناها تلمعان :

« رباه ! اني لك شاكرة ، وللموت مستعدة .. فقد صفح من كل قلبه . وصفحت انت يا ربي ! »

وانكفأت على جنبها واغمضت عينيها ولهثت لهثا شديدا .

خرج الجميع واليأس من حياتها يقوى على الامل .

وانتصف الليل . وكانت حالتها تتدهور وتنحط ، حتى ان الطبيب جاهر الجميع بأن ما تبقى لها يحصى بالدقائق .

ومضى فرونسكي الى داره حزينا مكتئبا .

وظل الكسيس صاحيا مستيقظا مفكرا ، ينتظر الخبر المحتوم راجف الجسد .

وانقضت ساعات الليل دون حادث ، وجاء فرونسكي في اول النهار . فحياه كارنين وقاده الى الغرفة الصغيرة المجاورة لمخدع آنا ، وتحدث اليه قليلا . ورجاه ان لا يبرح الدار فقد تطلب آنا رؤيته .

وانقضى اليوم الثالث ، وطرأ عليها تحسن طفيف ، فاستبشر الطبيب واعلم زوجها ان مجال الامل قد اتسع من جديد ، وان ذلك لم يتحقق منه الا باعجوبة سماوية .. ومضى يومان اخران عظم فيها رجاء الطبيب .

في ساعة الظهيرة في ذلك اليوم انفرد الكسيس بعشيق زوجته في تلك الغرفة الصغيرة واخذ يتكلم بتؤدة وتمهل .

وخيل لفرونسكي ان الزوج المخدوع يرغب في البت في امرهما ، وانه ما جاء اليوم الا ليطلعه على قراره ، ولهذا عجل فقاطعه بقوله :

« يا الكسيس كارنين ، انا مبلل الفكر اليوم ، موزع النفس ، فارجىء البحث فهو يعذبني كما يعذبك » .

وتحرك من مكانه في طريق الى الباب .

الا ان الكسيس اعترض سبيله قائلا : « لا تتعجل يا سيدي ، بل اعرني سمعك فانا شديد الرغبة في احاطتك بشعوري الحقيقي » ..

وصمت فينة ثم مضى يقول :

« كنت قد اعتزمت الطلاق ، واخالك سمعت بما صممت عليه . وقمت بالاجراءات الاولى تمهيدا لاعلام زوجتي بالدعوى ، ومع ذلك كنت خائفا اتردد وافكر واتحير .. ولما وصلتني برقيتها بخبر وعكتها ، لم تتبدل حالي ، بل عدت ادراجي ورغبتي في الانتقام لا تزال تجيش بها نفسي .. ثم جرى ما جرى واثر علي الموت الماثل ، فتذكرت وذكرت ، واخذت العبرة ،

واهتديت الى سواء السبيل ـ وعفوت ، اجل عفوت .. وللصفح يا صديقي وقع عظيم على النفس انه مصفاة الادران ، ولذة النفس الكبرى ..

« لقد ضاقت نفسي بالدنيا ، وصغر الانسان في عيني ، رايت كل شيء حقيرا ، الا السامحة التي تستمدها من قوة الخالق ـ اية سامحة .. الشعور الجميل ، المغفرة ، كلمة الدين ـ وآليت ان اتقبل الصفعة كما تقبلها هادي.. ان زوجتي مذنبة . ولكني لا املك عقابها ، واني اذ افعل هذا ابتهل الى الله ان يديم لي هذا الشعور الجديد الحميد ! » .

وانحدرت مدامعه على وجهه ، وتجسمت المهابة في تقاطيعها ، حتى دهش فرونسكي وتولاه الذهول .

واستطرد كارنين يقول : « ولك ان شئت ان تضاعف كيل المهانة ، فانا بعد اليوم لا آبه لشيء لك ان تذلني وتقهرني وتجعلني مضغة الافواه ، بيد اني لن اتخلى عنها ، ساعنى بها ، حتى النهاية ؟ » .

وحملق فرونسكي في وجهه مشدوها لا يفهم ولا يعي .

واتم كارنين حديثه وهو يطرق مستسلما :

« يخلق بك الان ان تلوذ ببيتك ، ابق هناك وانتظر الكلمة فربما شاءت ان تراك ، وربما بعثت في طلبك ! » .

وتبادل الرجلان نظرات غير نظراتهما الاولى ، وخامر قلب فرونسكي احساس بالضعة والهوان ، ورأى نفسه قزما امام الطود المتعالي .

* * *

ان كان شيء ينطق بالذنب ، فوجه فرونسكي كان ابلغ ناطق بذنب صاحبه .. فقد اندفع خارجا ، وهو يتعثر ويقول : « ويلاه ! علام يصفح هذا الرجل ؟! انه لو اراد الانتقام لما نالت .. ولكنه وقد صفح ، تبينت اني على ضلال .. فيا ايها الحب المستبد لقد جعلت صدري يرزح تحت حملك الثقيل ! » .

وتحمل الصدمة التي اعقبها صفح كارنين ، وفي قلبه نار تتأرجح ، كيف يعفو الرجل ، وقد لحق به ما لحق من العار ! ؟

وتضاءل في عيني ذاته ، وبحث عن كرامته فلم يجد كرامته .. وتساءل على مضض كيف سمح لنفسه ان يفقد الشرف والعزة ..

ونظر ببصيرته الى كارنين وقال : « اكرم به من رجل كيف تتصرف عن نفسه البغضاء .. كيف تتحول روحه الى النواحي الرائعة .. ان في جسده عناصر قيمة نادرة !

عنف نفسه على ضعفها ، وقرعها على تهافتها ، ولكنه لم ينم ..وقارن

بينه وبين كارنين ، وود لو قضى نحبه على التو .

انه الضمير المعذب .. لقد انفصل الضمير عن الجسد ، وجعل يبحث في الحقائق ، ويسبر غور الصالح والطالح .. حتى بغض فرونسكي نفسه ، وحتى ايقن انه يعيش في وهم لانه ضعيف ضعف الاذلال ، ولانه لا يملك سلطانا على شهوات نفسه .. وخيل اليه ، وضميره يسوطه بشدة ، انه صرصار يعيش من ابخرة النتن والاقذار .

ان الطمع فضيلة في كل حين ، وهو مهلكة متى تنازعت صاحبه مشاعر الخوف ، ومتى رأى صاحبه ما يذكره بالنهاية ، وما يكشف له عن حقائق تثبت امورا غامضة تحسر القناع عن وجه الحياة .

ووثب من مكانه كمن لدغته افعى ، وصاح :

« وهل اموت ؟ وهل اقتل نفسي ؟ » .

وعاد فانطرح ثانية على المقعد وهو يتمتم : « كلا .. كلا .. فلدي امور اخرى .. فانا في اول عمري ومستقبلي باسم زاهر ، والجيش يريدني ، والبلاط يطلبني ، والمجتمع يرغب في وجودي ، فلانم لانم » .

ولكنه لم ينم .

وتناول من الدرج شيئا اسود ضخما . ومزق السكون دوي شديد .

وترنح .. وترنح .. وسقط ..

لم يكن الكسيس كارنين ليؤمن بشفاء زوجته ، وقد رآها مشفية تكاد تلفظ انفاسها .. ولهذا سارع بالوقوع في الغلط ، فصفح وعفا ، وقد داخل نفسه من توبتها اعتقاد ويقين ..

واتضح له غلطه بعد ايام كثيرة ، راى غلطه بشعا ، وسمعه يصرخ في وجهه : « يا ويلك » .

ولكنه ما كان ليملك نفسه من الصفح عنها ساعة شاهدها تبكي من الندم وتتلوى من الالم .. ما كان ليستطيع غير ذلك وهي مسجاة امامه على فراش الموت ، وقد ذرف معها الدمع السخين ..

وما عتم ان غفر وعفا ، واحب ابنه ، وعنف نفسه على تنكره له ، وزاد على ذلك فحبا الطفلة بعطفه وحنانه ، واحبها واعتنى بها .

لقد ولدتها امها سفاحا ، بيد انه اشفق عليها لما رآه من صغر حجمها ، وضعفها ، ولما سمعه من بكائها .. كان قويا بشعر بقوته ، وكان انسانا يشعر بضعف غيره ، لهذا كانت شفقته على الطفلة عظيمة لا تضاهيها شفقة .

والعجيب في امر هذا الرجل ، انه شعر بالهناء وشفاء النفس وراحتها

ابان خلوته بهذه الطفلة .. واعجب من ذلك وجود الطفلة كان يستل اي شعور بالحقد والموجودة قد بداخل قلبه .

على انه كان يعلم ان مضيه على هذه الوتيرة امر له نهاية ، فمثله لا يستطيع ان يقطع الصلة بين شعوره وشعور سواه ، وهو انسان من لحم ودم . ولا بد ان تراود نفسه ما رواها من الغل كلما فكر بزوجته وخيانتها.

وكان يتراءى له ان امرانه تختلس اليه نظرتها الوجلة ، وتشيح بوجهها عنه كلما حدق في اساريرها ، كان يتراءى له انها تود ان تفضي اليه بما يعتمل في صدرها ، ولكنها لا تلبث ان تحجم خوفا ومهابة !

وطغى عليه الهم من جديد .. وجاء مرة الى بيته ، فلمح في زاوية الملابس معطفا ثمينا ، فدعا الخادم وساله قائلا :

« لمن هذا ؟ من في البيت ؟ »

فاجاب الخادم : « انه معطف الاميرة بتسي يا سيدي » .

وصمت كارنين ، ولكنه لمح شبه ابتسامة واهية ترتسم على فم الخادم لتتلاشى بسرعة خاطفة ..

وتساءل : الا من نهاية لهذه الحالة ؟ اما من خلاص للبؤس ؟ ان الجميع طفقوا في الاونة الاخيرة يعنون به وبزوجته .. بل انهم كلهم جعلوا يتتبعون اخبارهما ، ويلغطون ثم يهزون الرؤوس ؟ ويلوحون بالايدي .

افليس لهذا الامر نهاية ؟ او يقدر على الاستمرار ؟

ولما اخبره الخادم ان الاميرة بتسي موجودة في البيت زاد الم نفسه فهو ينفر من هذه المراة .

ولم يجد مندوحة من تقبل الامر الواقع ، فتقدم من غرفة زوجته وطرق الباب ودخل .. ولكنه قبل ان يفعل ذلك تناهى اليه كلام يقال في الداخل ، وسمع دون ان يسترق السمع ، صوت الاميرة بتسي تقول :

« هذا هراء لا معتمد عليه يا عزيزتي .. فكيف ترفضين ملتمس رجل يحب ؟ كيف تسول لك نفسك مثل هذه القسوة ؟ ان فرونسكي يزمع ان يرحل من بطرسبرج ، وهو يرغب قبل رحيله في مقابلتك والتحدث اليك ـ لاخر مرة ـ فلا ترديه خائبا ، لا تفعلي ذلك في الوقت الذي اشعر فيه ان زوجك نفسه لو سئل للبى طلبه دون تردد ! » .

وسمع زوجته ترد قائلة : « وهل تظنين اني اتجاهل طلبه لكي اوفر على زوجي ما قد يكابده من الالم ؟ الا فاعلمي اني ارد هذا الطلب من اجلي انا ، فاقلعي يا بتسي عن هذا الكلام ؟ اقلعي ناشدتك الله » .

« ان هذه القسوة لا مثيل لها ؟ اتصغين وجه رجل ضحى بكل شيء وحاول ان يقتل نفسه ؟ »

« وهذا ما يجعلني اصر على تجنبه » .

وران عليها الصمت حين دخل كارنين . ونظرت المراتان الى الوجه المتغضن المنقبض وبقلق وتوجس .

وما عتمت انا ان حيته بايماءة . اما بتسي فسرعان ما استعادت رباطتها ، فقالت ساخرة : « هذه نعمة كبرى فانا لم اكحل عيني بمرآك منذ زمن طويل .. فماذا حبسك عني ؟ » .

فلم يعن عليها بالرد .. ولكنها اتمت قائلة :

« ما اكبرك ! وما اكبر نفسك ! اطلعت على جلية الامر ، وعلمت من مسائلك ما ملأني اعجابا بشمائلك ! »

ونكس الكسيس راسه ، وانحنى فلثم زوجته ، وطرح عليها بعض الاسئلة مستفسرا عن صحتها في تكلف من يقوم بواجب كريه !

ولما طمأنته بانها في احسن حال ، وانها تشكر له غيرته واخلاصه هز راسه وقال : « ولكن عيناك كبرقان وتشمعان ، « يخيل الي انك ما زلت مريضة لم يفارقك وصبك ، ولم تتخل عنك الحمى الملعونة ! » .

واتبرت الاميرة بتسي تقول وكانها تعنف نفسها ، او كان الامر يعنيها قبل ان يعني سواها : « قد اكون الملومة على ذلك ، فربما ارهقتها بحديثي ، ولا عجب فمودتي ومحبتي تشفعان لي ! » .

ولما لم يبد من الرجل اي جواب ، تحفزت للنهوض وهي تتمتم قائلة :

« وارى الان ان اذهب في سبيلي » ..

فهتفت انا معترضة :

« لا .. لا تذهبي يا عزيزتي ، فلا بد لي من اطلاعه على جلية الامر » .

وشعر الكسيس بانها تريد ان تقول شيئا .

واردفت انا موجهة الحديث اليه :

« واعلم ان الكونت فرونسكي اعرب عن رغبته في القدوم الينا اليوم قبل سفره الى الخارج ، وهو لهذا ارسل صديقتي بتسي » ..

واستطردت : « على اني رفضت ، ورجوت بتسي ان تنهي اليه قراري » .

وسارعت بتسي تقول : « او على الاصح اناطت مسالة البت بالموضوع لزوجك الكسيس كارنين ! » .

وقالت انا محتدمة : « هذا محال .. ولن اراه مهما كانت الاسباب ، ومهما كانت النتائج ! » .

ونظرت الى زوجها متأملة ، والقت راسها على الوسادة منهوكة وتمتمت بضعف وخور : « لن اقابله ، أن ما مضى قد انقضى .. انقضى » ..

وخطا الرجل ونفرت انا من لمسته ، وودت لو سحبت يدها من يده ، بيد انها احجمت وتمالكت نفسها ..

وتكلم الرجل المتعلق بخيط واه من الامل في عودة الرشد ، فقال : « هذه اصالة ، واني اشكر لك تعقلك » .

وتحول بناظريه الى بتسي ، واختلجت اهدابه ، وكانه يريد ان يقول شيئا ولكنه لا يستطيع لوجودها .

كان كارنين يعتبر بتسي امراة خارجة على العرف .. كان ينظر اليها كانها الجبروت والقسوة ، وادركت ما خالجه انذاك ، فانتصبت واقفة ، وقالت :

« انا ذاهبة يا حبيبي انا . وسامرح عليك فدا ، فالى اللقاء القريب » .

وغادرت المخدع ، ولكن الكسيس هرول وراءها ، لم استوقفها . ولعله كان يروم ان يرفع النقاب لها عن حقيقة ما يعتمل في صدره نحوها ..

ولكنه تردد .. وما عتمت ان رات ترددة ان قالت :

« انت رجل بكل ما في كلمة الرجولة من معنى .. انت رجل ذو قلب واحساس فانت انسان » ..

انت كبير يا الكسيس في كل شيء ، ولهذا اجسر فابثك نصح صديقة مخلصة ، فذرها تقابل فرونسكي دعها تجتمع به .. وهو ان كنت لا تعلم ذاهب الى مكان ناء سحيق ، الى مقاطعة « طاشقند ؟ » .

فحدجها بنظرة صارمة لائمة واجاب : « ما اغلى نصيحتك ، وما اجدر الانسان باتباعها بيد ان زوجتي كما يتراءى لي ، هي الانسان الوحيد الذي يملك حق البت في الموضوع ، افلا توافقين ؟ الا اقول الصدق والصواب ؟ » فعجبت المراة وتولتها دهشة . ولكنها شعرت بعجزها ، بل احست بالرهبة والخوف ، فعجلت بالذهاب ، واندفعت من الباب لا تلوي .. اما هو فقد عاد ادراجه الى مخدع زوجته .

فلما دخل المخدع راى علائم القلق تتجلى بوضوح على اساريرها ، ولمح الدموع تبلل خديها ، فخاطبها ملاطفا : « كنت عاقلة اليوم يا انا ، فتقبلي ثنائي ودعائي .. انت ما زلت صافية التفكير فهو مسافر عن قريب ، ولا حاجة لرؤيته ! » .

فنبرت المريضة الناهقة متفعلة : « الم اقل هذا ؟ فلم التكرار اذن ؟ » وفكرت قليلا . ورات فرونسكي بعين خيالها ، وخفق قلبها ، وناجت

نفسها الوالهة : « انه ذاهب الى بعيد فلن احدثه .. انه مسافر ، فما جدوى الاجتماع به ؟ الا تنكأ المقابلة جرحا اندمل ، وتبعث اسى اخف وشجا ؟ ولكن، الا احبه ؟ وهل يخلق به ان يغادر الديار دون ان يودع المراة التي تتيه فيه، والتي سيحرقها الردى شوقا وتدلها ؟ »

وصعدت ناظريها المستعبرين في وجه زوجها فعاودها بالاشمئزاز عنيف جارف .. وكادت ان تتمرد على الاوضاع . كادت ان تصيح بملء فيها :

« ويلك ! اخرج ! اغرب عن وجهي ! » .

ولكنها قالت بصوت خافت : « الا ، انه الحديث في هذا الشان ، ودع الامور تجري في طريقها المرسوم » .

قال : على اني اذكرك برايي ، فانت حرة في كل ما تفعلين » .

« لن اعدل عن قرار اتخذت ، او انقاض وعد قطعت ، فاقصر ارجوك ! » .

ودهش كارنين ـ انها تتكلم معه كما تتكلم مع خادم حقير ، انها نافدة الصبر ضيقة الصدر .

يا للرجل الذي قصمت ظهره امراة !

خرجت بتسي وتلفتت حولها باحثة عن عربتها . ولكنها رات وجها نعرفه ، وما كادت تتامل فيه حتى الفت تلقاءها اوبلنسكي .

وبادلها الرجل النظرات وهتف بعد ان تبينها وادرك هويتها : انت هنا ؟ انت ايتها الاميرة ؟ هذه ساعة حظ وسعادة ، وما كنت لاحظي بها لو قصدت لقياك » ..

وكان اوبلنسكي قد اطرته بعض الاعمال الخاصة الى الحضور الى بطرسبرج .

واجابته الاميرة بتسي ضاحكة مستبشرة : « وماذا جاء بك ايها الصديق اعلى موعد انت ـ موعد غرام » .

فبادلها ضحكتها ، ثم انحنى فلثم يدها واجاب : « انني حقا على موعد ، ولكن ، موعد عمل ويا للاسف » .

« فاذهب اذن » .

« ذريني اراك ، اريد ان اجتمع بك » .

« ومن انبأك اني ارضى باللقاء ؟ » .

« نحن صديقين ، والاصدقاء يرغبون في تذليل كل صعب » .

« ولكنك خطر » .

« انا انني رجل منهمك في العمل ، اني اب يذاب على خدمة اولاده ، ثم

اي علاوة على ذلك اعني بالبحث عن حلول لمعضلات الناس ! »
ونظر اليها نظرة ذات معنى واومض بعينيه ، فايقنت المرأة انه يشير من طرف خفي الى شقيقته انا وزوجها . فقالت باهتمام : « هذا جميل . ثم باللازم ، افعل المستحيل حتى تزيل كربها وترفع عنها وقر غمها » .
وصافحته . وانحنى يلثم اليد البيضاء ، وانثنى مصعدا الى بيت شقيقته وهو يبتسم وقد نسي همه !
ودخل مخدع انا فقبلها قبلة الاخ الحنون ، وسألها عن حالها . فاجابته وهي تدمع : « ما اشقى شقيقتك يا عزيزي ! ان صباحي كظهري ومسائي . اما ليلي فهو المصيبة التي لا اخلص منها .
فهدهد خدها عاطفا وقال : اهدئي وكوني كعهدي بك صابرة قوية العزيمة . ثم تشجعي وابتسمي للحياة ، ولن تعتم الحياة ان تبتسم لك بملء فيها » .
« بيد ان شقائي لحالة نفسية طارئة ، فقد سمعت » . .
فقاطعها متعجلا : « لا يهمني ذلك بقدر ما يهمني حالك » .
ثم . ثق يا اخي اني اكره زوجي من كل قلبي . . اكرهه . . او تدري السبب ؟ اكرهه لانه مستقيم ! اكرهه لانه فاضل ! اكرهه لانه يرحم ويعفو ! » . « ماذا تقولين ! » .
« اجل اكرهه لهذه الحسنات ، ولا اكاد اطيق النظر الى امائره » .
« المسكين ! وقد آذاك ؟! »
« نعم ولا . . كل شيء كان يهون غير صمته . . كل شيء الا هذا الهدوء . . هذا الغموض . . ان نفسه غامضة مبهمة . . انه مخيف » !
« ولكن . . » .
« ولكن ماذا . . ماذا بعد ولكن . . لم اسمع برجل في مثل نبله ، لم اسمع برجال يتحمل ما تحمله ، واني ان قورنت به ، خرجت بصفر كامل ! ومع ذلك فمقتي لشخصه لا حدود له ولا سدود ! أانا نذلة ؟ ام انا احقد على كل من سبقني في شرفه وخلقه وصفاته ؟ » .
« فهاج وجد اوبلنسكي ، فرفع اليها يدا آمرة وقال صمتا ، صمتا فانت تهذين ، انت مستضعفة اضناك المرض . وفت في عضدك السقم » .
« كلا ، بل دعني اتكلم » .
« غير اني لا ارى فيه ما ترينه يا انا » . ولم لم يتركني وشأني ؟ لم لا يتبذلني حتى اعرف اين انا ، واين اضع قدمي ؟ وكيف احيا ، وكيف اتنفس ؟ لعله اني اكاد اختنق ؟ !

« هراء .. هراء .. بل انك تهذين يا انا .. وقد اعمتك حالتك فلم تعودي ترين الا الناحية المظلمة من حياتك .. اما يخلق بنا الان ان نحل العقدة ؟ فهلمي نحلل الامور رويدا رويدا » . « افعل ما بدا لك » .

« لقد بنى عليك رجل حياته ولكن يزيد منه كثيرا عن سنك ، ورضيت انت به دون ان تبادليه عاطفة الحب ، بل اقترنت به ونفسك عن الحب بعيدة » .

« اصبت ، وقد اخطأت فيما فعلت » .

« وما نفع التفجع لخطأ لا سبيل الى ملافاته ويترتب علينا الان ان نستمر في عرض صفحة حياتك ـ لقد تبع ذلك شيء طبيعي ، فأغرمت بشاب يضاهيك سنا وحسنا .. وهذا ايضا خطأ لا يتدارك » .

وهزت اتا راسها موافقة .. واستانف يقول :

« واكتشف زوجك الحقيقة فأفضى ثم غفر . فهل لك ان تصبري على ما وصلت اليه ؟ هل يمكنك ان تعيشي في كنف رجل غفر رغم الاساءة ؟»

« اواه ! اني انخبط في لجة الحيرة » .

« الم تقولي منذ لحظات انك تفضلين الموت على الحياة معه » .

ولم تجب انا .. واردف : « الم تقولي انك تمقتينه ؟ » .

فصاحت : كلا .. كلا .. لم اقل .. ولو فرضنا انني قلت ، فلست في قولي الا مغالية .. او اي اهرب بما لا اعرف ! » .

« فلأشرح لك الامور » .

« كفى ، فلن افهم كلمة ، لقد ارتبك تفكيري .. ووقفت على جرف هاوية سحيقة الغور .. ولن انجو » .

وما ادراك ان الحيلة تعجز عن انقاذك ؟ اليس في وسعنا ان نتلقفك في منتصف الطريق الى الغور السحيق ؟ فابيني عن حقيقة مشاعرك ، اكشفي لي كل شيء ، قولي ما تريدين ! » .

« لقد تجمد شعوري وتحجر احساسي ولم تبق لي غاية ، ولم يبق هدف ! » .

« ولا جرم ان قرانك يتألم من هذا الشعور ايضا ، ولا بد والحالة هذه من انهاء الامر ، علم تلجآن الى الطلاق ؟ » .

فاطرقت واستغرقت في الفكر . ونهض وخرج وهو يقول : ساجتمع الآن اليه . فعسى ان يوفقني الله الى ما فيه مصلحة الطرفين » !

خطا اوبلنسكي داخلا ، فلما وقع طرفه على وجه كارنين المتجهم فارقته شجاعته ، وتولته حيرة عظيمة . ولكنه استجمع شتات عزيمته وخاطبه متلعثما :

« اخاف ان حدثتك قليلا ان اثقل عليك يا الكسيس » .
قال : « قل ما بدا لك .. » .
« اجل ، اريد ان اقول شيئا .. » .
« هات ما عندك ولا تتردد » .
« اني احب انّا شقيقتي ، واشفق عليها » .
ولما لم يجر كارنين تابع يقول :
« وارغب رغبة صادقة في مباحثتك بشأن شقيقتي هذه ، وعلاقتها الشاذة بك كزوجة » .
وصعد كارنين نظرا حزينا في وجه محدثه ، ثم اغضى بعينيه واخذ عن المكتب ورقة مد بها يده اليه وقال : « اظن ان في هذه الورقة ما يغني عن كل كلام ، فاقراها .. انّا شقيقتك سئمت من زوجها ، وبرمت بطفلها ، وكرهت الحياة المستقيمة ـ فلم اجد مندوحة من كتابة هذه الرسالة اليها » .
وتناول اوبلنسكي الورقة ، ثم نظر الى كارنين ، وما لبث ان انهمك في القراءة .. وقد جاء في الرسالة :
« ان الحياة صعبة ، وانت كما ايقنت لا ترغبين في قربي ، انت تكرهين زوجك ، وهذا يحز في صدري ، ولكنها الحقيقة ..
لقد المت بك وعكة شديدة انحلت من وطأتها قواك ، ولا انكر اني مت فرقا حينما رايتك تتهافتين من السقم وتنهارين من الاعياء . واني بعد ان شاهدت وصبك عاهدت نفسي على نسيان الماضي ، وقررت ان اقلب صفحة جديدة من صفحات حياتنا . ولم يداخلني ندم على ما وطدت العزم عليه . وما شاب احساسي حسرة على ضعف قلبي ، فقد شئت ان اعطيك فرصة التوبة ، كما شئت ايضا ان افسل ادران الماضي واقداره . بيد اني اخفقت وبؤت بالفشل .
انني الآن انتظر ردك ، فقولي ولا تخفي شيئا ـ قولي ماذا يسبب لك الهناء والعيش الرضي ؟ وثقي اني البي طلبك ، واقوم بالمستحيل لاوفر لك السعادة وهدوء البال ! »
ومد اوبلنسكي يده ببطء وارجع الرسالة الى كارنين . وحدق فيه غير مصدق ، وناجى نفسه ، وتمتم ، وغمغم ، ولكن الكلمات لم تخرج واضحة من فمه . وران على الغرفة سكون رهيب . وما عتم كارنين ان خاطب صديقه قائلا :
« اوعيت معنى كلماتي ؟ افهمت مغزى عباراتي ؟ »
قال : « اجل لقد قرات وفهمت .. فهمت كلماتك ، وفهمت شخصيتك وجبلك » .

« الا ترى معي اني طلبت منها ان تحيطني علما برغبتها حتى استطيع ان اخدمها وانيلها ما تصبو اليه ؟ »

« على انها كما اتق شاردة كمن طارت نفسه شعاعا . انها موزعة الفكر مرتبكة . واخال صفحك عمل على مضاعفة وله نفسها . وسوف تزيد هذه الرسالة من اشجانها ، لانها ستضاعف من علوك ومن انخفاضها »

« صدقت .. فما العمل اذن ؟ وكيف اتصرف ؟ »

« احسم الموقف ، لا تتردد ولا تتريث ، فانت وحدك الشخص الذي يجدر به الفصل في هذه القضية » .

« اتريد مني ان انهي المسالة ؟ قل .. على اي وجه ، في اية صورة ؟ قل .. ناشدتك الله ! »

« الم تعزم منذ زمن على فصم زواجكما بالطلاق ؟ فان بدا لك الآن ان الطلاق هو الحل الاوحد ، فلم لا تلجآليه ؟ »

« انني على قدم الاستعداد لكل ما يرفع عن كاهلها العبء الثقيل » .

« اعلم يا كارنين ان الزجاج متى انصدع لا يربا ، وان علاقتكما اضحت كالزجاجة المحطمة . فبتا في الامر بالفراق ، واحسما المشكلة بالبعاد » .

« اوضح يا صاح ؟ »

« اعني ان الطلاق هو خير علاج ، فاجنح اليه » .

وتنفس كارنين الصعداء ، وزفر زفرة محرقة ودفن راسه بين يديه . وانهى اوبلنسكي كلامه بقوله : « فان لم يفكر اي منكما بزواج ثان فسيسهل الامر ، وتصبح انّا حرة وتزول احزانك وآلامك » .

ان شقيق زوجته يرى في الطلاق خلاصه وخلاص انّا : فهل الطلاق حقا هو الحل الاوحد ؟ كلا ... كلا ... شقيق زوجته يرى هذا ، ولكن ، لشقيق انّا الحصافة والعقل ؟ انه لم يدخل في حسابه مثل ما ادخل كارنين ، ما يقتضيه الطلاق من اجراءات واعمال لا تجر عليه الا الفضيحة والتشهير . اليس الزوج مطالبا بالاعتراف جهارة وعلى ملأ من الناس بخيانة امراته ثم الا يقسر الزوج على المثول امام القاضي والاعتراف بما راى وبما سمع ؟ بل الاعتراف بان المولودة الجديدة هي ابنة السفاح والزنا ؟!

لا ... انه لا يقدر على هذا الامر ، ولا يقوى على اتهام انّا : فقد احبها حبا عظيما . وقد تدله بها .. ثم ، الم يغفر لها وهي تقاسي المرض ؟ وولده .. وهل فكر هذا الابله — اوبلنسكي — بولده ؟ ايتركه لامه حتى تقضي عليه وعلى مستقبله ؟

ولو فعل ذلك ؟ ايبقى ابنه حامل لاسمه ، ام تبدل المراة اسمه نكاية به ؟!

وهتف كارنين بصوت متحشرج : « ماذا فعلت ؟ ارتكبت حتى أمني بكل هذا الشقاء ؟ ما هي جريرتي حتى يعاقبني الله هذا العقاب ؟ اواه !

واتكفا بوجهه على المنضدة وهو ينشج !

واستتلى اوبلنسكي : « لشد ما اشعر معك! لشد ما اتالم من اجلك! ولكن .. ولكن .. ما العمل ؟ اني مثلك اتقلب على وقد الحيرة ! »

ولم يحرك كارنين ساكنا ، ولبث يفكر ـ لقد استغرق هذه المرة في فكر هادىء رصين ، كان يفكر بالقول المأثور ـ من صفعك على خدك الايمن فادر له خدك الايسر ! كان يفكر بالحلم والصفح ، ويفكر بالعفو والمغفرة.. ولكنه زمجر على حين غرة ـ وكان الصوت كأنه غير صوته :

« ليكن ذلك .. سوف اسعى الى الطلاق .. وسوف اتركها واترك ابني ! »

وهتف اوبلنسكي يقول بصوت متهدج مبحوح :

« ما اسمى قلبك ، وارق شعورك يا الكسيس ! »

ولم يحر كارنين جوابا ، فقد كانت عبراته تترقرق في عينيه وتتجمع في انفه وفمه ! واستتلى اوبلنسكي وهو يتحفز للذهاب : « ما اعظم المأساة ! ولكنك برهنت لي على انك اصلب عودا من ان تحطمك النكبة وتسلب حجاك ، وتحرمك من نبلك وكرمك وروعة احساسك ! »

ومضى الرجل في سبيله .. وسرعان ما افترت شفتاه عن ابتسامة الظافر المنتصر .. لقدنسي الرجل المتالم ، ولم يعد يذكر الا نجاحه في مهمته .. فها هو كارنين يعزم على الطلاق ، وها هي انا ترتاح من عذابها ، وتبتعد عن زوجها !

وانشا يحدث نفسه : « الم اكن ماهرا ؟! »

* * *

انتحر فرونسكي .. لكنه لم يمت ، فقد ارتعشت يده بالمسدس ، فانحرفت الرصاصة ولم تصب منه مقتلا ..

الا ان الرصاصة اخترقت جسده واستنفرت دمه ، ولو لم يسارع ذووه الى نجدته لما بقيت منه قطرة ، ولقضي بعد ساعة نحبه ..

فتح فرونسكي عيناه الذابلتين ، وتلفت متعجبا ، فراى زوجةشقيقه متكئة عليه وهي تعني به وتضمد جراحه بحنان ، فسارع يقول :

« اي فاريا : كنت اعبث بالمسدس فانطلق من تلقائه .. افهمت ؟ لقد انطلق قضاء وقدرا .. »

فهزت المرأة رأسها وابتسمت وربتت على جبهته .

ومضى يقول بصوته الواهي :

« احذري يا فاريا ! فانا لا اريد ان يلغط الناس بقصتي ، ويتساءلوا عن السبب ، لقد اصبت وانا اقلب المسدس » !

فقالت وهي تضحك قليلا : « على ان تعدني بألا تنطلق الرصاصة من تلقائها مرة ثانية ! »

* * *

وزال عنه الخطر بعد ايام ، وفارقه ذلك اليأس المرير الذي انتابه على حين غفلة ! وخيل اليه ان دمه ابرأ شعوره ، وان عاره قد غسله هذا النقيع الذي نزف من قلبه ! كما خيل اليه انه يستطيع الآن ان يمشي مرفوع الرأس بين الانام وان يحدق في العيون دون وازع من خجل او حياء ..

لكنه ما زال يحب آنا وما زال يشعر نحوها بتلك العاطفة الملتهبة .

ولما عرض عليه اولوا الامر منصبا رفيعا في بلاد نائية ، هي ولاية طشقند لم يتردد لمحة ، بل وافق على الاضطلاع به فورا .

ومضت الايام ، واقترب ميعاد سفره ..

غير انه كان يتشوق الابصار الى لقياها ، كان يتلهف الى الاجتماع بها ولو مرة واحدة قبل رحيله .

وما كان منه الا ان كاشف الاميرة بتسي برغبته ، سارعت الى آنا تطلعها على ما يطمع فيه فرونسكي . فلما تمنعت آنا ، وعلم فرونسكي بما كان قال للاميرة ، وهو يظهر الصبر والتجلد وعدم الاكتراث :

« عسى ان يكون في هذا كل الخير لي ولها ، فمن يعلم ، قد تخونني عزيمتي لو اجتمعت اليها ! »

وجاءته الاميرة بتسي بعد يوم لتزف اليه بشرى ما عزم عليه كارنين من طلاق زوجته ـ وكان اوبلنسكي شقيق آنا قد اطلعها على فحوى حديثه مع كارنين . فنهض فرونسكي وتوجه لساعته الى بيت محبوبته وهو لا يكاد يطأ الارض تيها وعجبا .

وما عتمت آنا ان قالت : « انا الآن لك يا حبيبي ، آنا لك الى الابد ، فاصنع بي ما تشاء ! »

فأجاب بصوت ينضح حبورا :

« أفي حلم انا ؟ هل اصبحت لي آنا دون منازع ؟ »

قالت : « هو ذاك ، الا اني سأفعل ما اريد دون ان انتظر منه بادرة

من احسان سافعل ما يحلو لي ، وليكن رد الفعل ما يكون .. ان طلقني خيرا يفعل ، وان ابي غادرته .. ولا يشغل بالي الآن الا مصير ابني » !

ووجد اخيرا في نفسه ما يقول ، فخاطبها بصوت حنون : « لا تجزعي نفسك الآن يا انا ، فقد ركبنا الاهوال في حبنا وتجشمنا الاخطار ، ولا يصعب علينا بعد الذي قاسيناه ايجاد الحل الملائم .. اما الآن ففكري بسعادتنا ، فكري بهنائنا ، واعلمي اني لا ارى في الدنيا شيئا كالرضى .. فارضي واستبشري » !

فاجابت وهي تعانقه : « ان حسن الثقة بك يؤنسني يا فرونسكي ، وها انذا ارضى بما صار اليه امري ، وسانتقل من بيته مهما كلفني الامر ... » .

وصمتت بغتة ثم هتفت بصوت المتذكر المتألم : ليتني مت ! ليتني مت ! »

قال : « حنانيك يا انا ! لم كل هذا التقلب من حال الى حال ؟ لم تسلمين نفسك الى الموت من غير ضرورة تدعوك الى ذلك » ؟

قالت : « لقد فقدت الصواب يا حبيبي ، ولم اعد ادري في اي وقت ينبغي لي ان اتكلم او اصمت .. لم اعد ادري متى يخلق بي ان احزن ، ومتى يجب علي ان اجذل ! انني مجنونة .. » وهمرت الدموع من عينيها ، وضمها فرونسكي الى صدره ، وقبلها مرارا ..

رجع فرونسكي الى منزله ، فكتب يرفض المنصب الجديد ، ولم يابه لما يسببه رفضه من اضرار ، وكان همه نيل مبتغاه !

وغادرت انا بيتها .. هجرت زوجها .. هجرت ابنها .. هجرت سعادتها ..

هكذا افترقت انا عن زوجها وذهبت مع فرونسكي الى اوروبا ، وانتهى بها المطاف في ايطاليا حيث صرفا شهورا ثلاثة زارا خلالها المدن الايطالية الشهيرة كروما ونابولي ، والبندقية وغيرها .

ولم يلبثا ان اتخذا لهما مسكنا في مدينة صغيرة هادئة وعاشا في نعيم من الحياة.

كان نهارهما يبدأ بالسعادة وينتهي بالهناء .. كان نهارهما تشرق في سمائه شمس الاتفاق والصفاء والمحبة .

وما ذكرت انا في الايام الاولى شيئا عن كارنين او عن ابنها سيرج .. كانت تخشى الذكريات ، كانت تخافها ولا تود ان تفكر . ثم ان السعادة التي قطفت ثمراتها اليانعة كانت عميقة، فاضت حتى غمر قلبها واحساسها وعاطفتها كان الماضي في رايها حلما مفزعا .. وكانت الذكريات اضغاث احلام ..

وقد استيقظت الآن فالفت نفسها تعيش في كنف فرونسكي ، وتنعم معه بالحب والوجد والصبابة .

واعترفت فيما بينها وبين نفسها ذات يوم انها مصدر شقاء لزوجها . ولكنها هزت منكبيها وقالت : « وما نفع التندم ! ألست مصيبة في قراري منه ؟ ألم اوثر عليه ضعف ما فيه من أسى » !؟

وناجت عقلها في يوم آخر بقولها : « ومع انه فقد الكثير ، الا ان خسارتي أجسم واعظم .. لقد خسرت ولدي .. ثم خسرت شرفي وكرامتي»!

واستعاضت بحب ابنتها من فرونسكي على حبها لسيرج ، فتعلقت بالطفلة تعلقا اشبه بالسعادة .

وذهبت معه الى اوروبا . واقام الاثنان في ايطاليا . ولم يطلقها زوجها ..

فقد رفضت هي الطلاق حتى لا تشعر بأنها مدينة له !

ونظر الزوج « الكسيس كارنين » فيما حوله ، وآله مصيره ومصير ابنه ـ آله مصير المراة التي احب ، ناجى نفسه في اول ليلة علم فيها برحيل انا بقوله : « تبا لي من ابله ! »

كانت تعجب لقده وبنيته القوية ، ونظرته الواثقة وقد تبدل احساسها شيئا فشيئا حتى اضحت عبادتها له مصدر شعور بالنقص مع انها من اجمل النساء !

فهل كان فرونسكي سعيدا هو الآخر ؟ هل قربه من حبيبة قلبه جلب ما يشتهي من راحة وهناء ؟

كلا .. لقد كان يفكر دائما بآلامه كان يفكر بعزة نفسه وبمستقبله المحطم . وكان يقارن بين ما استحوذ عليه وما تخلى عنه ، فيرتاع ، ولكنه يكتم ما اعتلجه ويسدل ستارا على ما اختمر في فؤاده ..

وايقن وهو يقلب الفكر في احدى خلواته ، ان الانسان يخطىء حينما يتراءى له ان في تحقيق المنى سعادة الرجل او المراة .. فثمة امور اخرى لا يتم هناء الانسان الا بها ، لا يهتدي اليها بعد تأمل وتفكر ..

فهل مثلا سر في اول الامر لفصم علاقته بالجيش ، ولكنه ما كاد يبتعد عنه حتى احس بفراغ في حياته لا سبيل الى ملئه .

وهو جلد ساعة خيل اليه ان الراحة من العمل قد تهيات له ، ولكن تقاعده عن كل نشاط انقلب في ردح وجيز الى عذاب وجعل يقرأ ، وجعل يتبع اخبار السياسة ، وجعل يرسم ..

ورسم صورة للحاضنة الصبية التي جلبتها انا لرعاية الطفلة ـ وكانت الفتاة مليحة على جانب كبير من القسامة .. فحركت الغيرة في قلب انا انهماك فرونسكي في رسم صورتها ..

وكانت غيرتها سحابة في سماء سعادتها ، وكانت سحابة ما عتمت ان اتسعت وكبرت وتضخمت !

واصبح في ديدنه في تلك الشهور ـ تقلب وتبدل وقلق داخلي ـ فسرعان ما سئم ما اخذ به نفسه من الرسم والتصوير !

وانتهى به الامر الى شعوره بالملل الشديد في هذه المدينة الايطالية .. ولما افضى لانا بما خامره صدره ، شاطرته هي شعوره بالملل . واتفق الاثنان على الرجوع الى بطرسبرج .

تقلب كارنين في احضان الحيرة ساعة تاكد مما شاهده وسمعه ان المطلوب منه ان يطلق سراح زوجته ويعطيها كامل حريتها .

واستولت عليه الحيرة :

لقد مضت انا في سبيلها ، غادرته مع خليلها ، ذهبت بعيدا .. فلم ينبس فقد تجمد احساسه ، وتوقف ذهنه عن الحركة !

ولكنه عاد الى طبيعته ، والى حياته ، والى افكاره القاتمة السوداء عندما استوضحت المربية منه عما يجب ان يرتدي سيرج من الملابس ، وعما يستحسن ان ياكله ويشربه .

لقد تعقد الموقف ، وتراكمت المحن على راسه فاحنى هامته واحنى كاهله ، ولبث ينتظر مستسلما للضربات التالية :

ما اكثر ما استغرق في الفكر بعد ان عاد اليه رشده ، وما اكثر ما عجب لشذوذه ـ فكيف ياول صفحه ونقمته ؟ كيف ياول شفقته وقسوته؟ ثم .. كيف يفسر حبه الشديد لابنة زوجته النغلة !

وبذل كارنين جهد الجبابرة لكي يظهر امام الجميع بمظهر اللامبالاة . ففي البيت كان يتصرف امام الخدم بهدوء وثقة كان شيئا لم يحدث . وفي مكتب الوزارة كان هذا الوزير يدبر امور وزارته بجد ودقة .

الا ان النفس البشرية لا تتحمل اكثر من طاقتها . وكارنين انسان كغيره من الناس ، له في نفسه نواح قوية ونواح ضعيفة ..

كارنين القوي الارادة ، تحمل المصيبة ، غير ان صانع ثياب جاء مرة الى بيته يطالب باثمان ملابس زوجته فحطم مجيئه مقاومة كارنين فانهار الرجل ، واستحوذ الضعف على هذا الانسان . وامتنع عن الجميع ولم يعد

يقابل احدا وود من وراء ذلك ان يتفادى ما خيل اليه انه يراه متجسما في عيون الناظرين اليه من نظرات الاحتقار والاستهجان .

كان شهيرا يحترمه الناس بقدر ما يخافونه وبقدر ما يحسدونه . ولكنه طفق يرى ان خوف الناس منه انقلب الى شماتة ، وحسدهم استحال الى سخرية ..

وتلفت حوله فما وجد الصديق الذي يأتمنه على سر ويشركه في هم .

ومع انه امر الا يدخلوا احدا الى بيته الا ان الكونتس ليديا ايفانوفنا ضربت عرض الحائط باحتجاجات الخدم وهرعت اليه في حجرته ذات يوم او في ذلك اليوم الذي كان يتخبط الناءه في افكاره ويتضور من آلامه .

ولما رفع اليها راسه ونظر مغضبا صاحت بصوت متهدج :

« علام كل هذا الاحتجاب ؟ او انت الرجل الوحيد الذي يصاب بالكارثة ؟ »

فاجابها بجفاء : « انني لست محتجبا عن احد بل اريد الخلوة استشفاءا من وعكة طارئة ! »

فهزت راسها وتمتمت بصوت مهموس : « يا لك من رجل مغبون ! كان الاولى بك ان ترعى مركزك ومكانتك وانسانيتك » .

وخالسها كارنين النظر فراى فايقن انها صادقة في شعورها معه ، وانها تكاد تستسلم للبكاء واستانفت المراة حديثها قائلة ويخلق بك يا صديقي ان تتجمل بالصبر والايمان ، فلا ترخ العنان لاشجانك .. لا انكر ان رزاك باهظ لا يحتمل ، على ان لكل داء دواء » .

ولان الرجل وهتف بصوت حزين : « حطمتني الكارثة يا عزيزتي فامسيت شبح رجل ! انني الآن اخاف من كل شيء بل من نفسي فما العمل ؟ »

« سؤال لا جواب له .. استعر ، تكلم ، ففي الكلام تفريج ، وفيه سلوى القانط المكروب » .

وتاكدي يا عزيزتي انني لا آسف على شيء فقدته ، لان ما فقدت لا وجود له في رأيي واحساسي ! الا ان ما يكظني هو نظرات الناس وهمساتهم .. قد يكون فيما أتخيله ظن لا صحة له بل وهم ورجم بالغيب ، على اني لا املك نفسي من الاعتقاد ان الناس لا يعتنون اليوم بشيء قدر اعتنائهم باخباري ؟ »

« على رسلك يا كارنين ، ان الناس في شغل عن حوادث غيرهم ، وثق ان كل من سمع بقصتك ، واحاط بما ابديته من شهامة وترفع وشجاعة ، لا يسعه الا الثناء عليك واظهار اعجابه بك وبرجولتك » .

ولوح كارنين بيده في وجه المراة ، كأنه يأمرها بالسكوت ، فلما قطعت حديثها قال محتدما :

« مالي ولهذا الكلام ايتها الكونتس .. على اني اود ان اطلعك على مدى شقائي وتعاستي . وهل يمكن المخلوق ان يتحمل اكثر من طاقته ؟ هل يمكن له ان يصمد تحت وطأة هم ثقيل ثقل الجبال ؟ الا فاعلمي ان الآمي جسيمة واني ملزم برعاية شؤون بيتي ، والنظر في اعمال الخدم ، ومربية سيرج ، ان سيرج غلام رزين محتشم ، ولكنه رقيق مرهف الحس ملهم العاطفة يتألم فيكتم » ويحزن فيبكي في الخفاء !

فقالت المراة وهي تتأوه : « ترفق بنفسك ، ارحم هذه النفس يا الكسيس لا تسرف في يأسك فلك اصدقاء كثيرون ، وانا اولهم فانزع من فكرك امور المنزل وتدبيره واترك الامر لي انا ، قال : « اجل لا بد لمنزلي من امراة تقوم على شئونه ، فهل تفعلين ذلك ؟ »

قلت : « حبا وكرامة ، ساكون شقيقتك المخلصة » .

ونهض كارنين من مكانه فصافحها ولمس جبينها بشفتيه اعرابا لها عن شكره وتقديره .

شبت هذه المراة العريقة في الحسب الكريمة المحتد ، على مخافة الله ، كانت تقية ورعة .

وبعلت على مثر شاب ، ذاق من الحياة ما زهده بالمراة المستقيمة . وقد راى في زوجته ما نفره منها ، وهجرها ولم ينقض على زواجه منها اكثر من شهرين !

ولم تعرف لهجران زوجها سببا .. وتلبثت تنتظر عودته .. فلما اخلف الفتى ظنها ، طوت نفسها على نفسها ، وطمست صورته التي حفرها الحب في قلبها الفتي ، واتجهت بابصارها الى عالم آخر .

وما لبثت ان خصت احدى المؤسسات الخيرية بنشاطها وخدماتها ، وكان ذلك نذيرا بتحويل خطير في حياتها وفي ضياعها ـ فقد علقت بالعائلات النبيلة ، وكلفت نفسها بالاختلاط بافراد هذه الاسر ، واصبح المرء يجدها في كل حين في بيت من هذه البيوت !

وكان كارنين اكثر من حومت حوله المراة الفاشلة في حياة الزواج ، ولا عجب ، فكارنين وزير خطير يتمنى كل انسان ان يحظى بقربه ، ويفوز بنظرة من عينيه . وقد احبته ايضا لتمسكه بحبل التقوى . فلما اصيب بما ادمى قلبه وحطم شعوره رجحت في قراراتها كفة السرور على كفة الاشفاق ، فهي تستطيع الآن ان توثق الاواصر .. وقد فعلت ذلك ونجحت فيما اقدمت عليه كما رأينا .

وتناهى اليها بعد حين خبر اوبة انا وعشيقها الى بطرسبرج ، فطارت نفسها شعاعا ، وخافت ان يكون رجوعهما ابدانا بابتعادها عن الرجل الحزين الكسيس كارنين لهذا عزمت عزما اكيدا ان لا تألو جهدا في الحؤول بين كارنين وبين امراته .

وطفقت منذ حلا في المدينة تراقبهما وتحصي كل حركة يقومان بها .. طفقت تسجل كل ما تراه وتسمعه من اعمالهما .. ولما درت انهما يزمعان مغادرة المدينة الى مزرعة فرونسكي في الريف ، سكن خوفها ، وانفثأ اضطرابها ، وقرت عينها ـ لقد احتفظت بكارنين ، ولا تريد شيئا آخر ! كما ان الحق والانصاف يملي على كل انسان ان يعترف لها بأن قلقها كان ايضا بسبب اشفاقها على الرجل من ان يزيد وجود امراته الفاجرة في المدينة من حرجه وشقائه !

ومضت الايام والكونتس ليديا ايفانوفنا تدير شؤون البيت .

ولكنها فوجئت في صباح يوم مشؤوم بكتاب يصلها من آنا كارنينا ، فلما فضته وقرأته .

عزيزتي الكونتيس ايفانوفنا :

« لولا ما المسه فيك من الاخلاص ومخافة الله ، والتفاني في خدمة الانسانية المعذبة ، لما تجاسرت الى الاتصال بك .. »

ان ابني سيرج يعيش في كنف ابيه كما تعلمين .. وانا ام يا سيدتي ، وانت امراة ، والمراة تقدر شعور الام المحرومة من رؤية ابنها ، لهذا ابتهل اليك ان تأذني لي برؤيته ـ مرة واحدة فقط .. ومن بعد ، سابتعد عنه ، وعن المدينة ، وعن الناس قاطبة .

كان في وسعي لو شئت ، الظفر باربي باتصالي بالكسيس ، بيد اني وددت ان اجنبه العذاب والآلام ، فاخترتك انت . واملي وطيد ان لا تردديني خائبة فتضطريني الى الاتجاه اليه مباشرة . والرجاء ان تنبئيني عن الكيفية التي امكن بها من الاجتماع بابني ـ هل آتي ؟ ام ترسلينه الي ؟ ام ترتأين مكانا آخر ؟

لا اتوقع رفضك يا سيدتي ، واثق ان كارنين لن يبخل على بهذا الملتمس فهو كما اعهده دوما ، كبير القلب كريم النفس .

« هذا ، واني انتظر ردك على احر من الجمر » .

« انا »

تأملت المراة في معاني الرسالة ، وفكرت مليا ثم اندفعت الى كارنين

في غرفته . فلما ابصر بها قادمة ، وقرأ في صفحة وجهها ما انباه بخطورة المسألة ، فقال :

« تكلمي يا عزيزتي ، ماذا جاء بك ؟ »

قالت : شر .. قد تراه كبيرا ، وقد تستصغره ان كنت حليما .. ويعلم الله اني لا اتوخى الا خيرك وراحتك ، كما اتمنى دوما ان ابعدك عن كل ما يذكرك بمصيبتك ، على ان غيري من الناس لا ينشد الا رعاجك

وصمتت المراة وتأملت في الوجه المقطب لترى تأثير كلماتها في صاحبها. ثم استتلت : « وانني اليوم استلمت رسالة من انا .. لقد اتت المدينة . وهي تطلب .. »

ولم يدعها كارنين تتم ، بل اختطف الورقة من يدها وهو يرتجف ، ولونه يمتقع ، وتلاها وقال بصوت حزين :

« كنت انتظر كل شيء يا كونتيس ، كنت انتظر هذا » .

وران الصمت على الاثنين . وعاد كارنين فقال : « وليس من حقي ان اردها .. ليس من الانسانية في شيء ان ادراها عن ابنها ! »

قالت : « ما اعلم نفسك ايها الصديق ؟ ما اتقى قلبك واصفى حسك ! الا تجد للشر اثرا في القلوب ؟ الا ترى النواحي المظلمة في النفوس ؟ سقيا لك ، سقيا لك ! »

قال : « .. اخطات .. فالشر كامن في كل قلب ، واني اراه والمه غير اني لا اقابله بالمثل ، بل اسحقه بالتسامح ، وعلى هذا فلست ارى من العدل في شيء ان .. ان .. »

وتوقف ذهنه بغتة ، وانحبس الكلام في حلقه .. ورمق محدثته بنظرة استغاثة ، قالت هي على اثرها :

« ان كلامك عجيب .. وفي رايي انا ان للصفح حدودا ، وللنسيان مدى لا يتجاوز .. لقد تهتكت انا وارتمت في حمأة فاجرة .. على انها لم تر رحمتك بقدر ما تعشقت في نفسها قسوتها .. لقد قابلت الكرم بالغدر ، .. وها هي تؤم بطرسبرج لتذكر الناس بحبها، وخيانتها.. فلماذا رجعت، التسرف في ايلامك ؟

وهز كارنين راسه ، وبادل المراة نظرات الحيرة والتساؤل ، ثم اجاب:

« كلامك حكمة وصواب ، على اني غفرت وعفوت ، ولن ارجمها بالحجر الاول ، دعها سواي يفعل هذا ، ولتات الى البيت ، لتات فتجتمع بابنها » .

قالت : « امتاكد انت من اخلاصها لابنها ؟ .. فماذا يقول الغلام ساعة يرى امه ؟ الم تقل له انها ماتت ؟

قال : « ما اصعب الامر ! اجل ، كيف ! »

قالت : « فعلام عولت الآن ! فكر مليا » .

قال : « لا استطيع ان افكر ، فراسي متعب ! »

قالت : « ارى ان تردها ، وتفهمها انك لا ترغب في تحقيق امنيتها.. فهي امراة فقدت القيم الانسانية ، حتى انهارت في قراراتها، المحبة السامية .. ابعث اليها بمن يخبرها بقرارك ، وجنب نفسك ، وجنب طفلك كل هذه الآلام والاحزان .. وذرني ، ذرني اكتب اليها ! »

قال : « اكتبي .. اكتبي .. »

وسارعت المراة بتسويد رقعة صغيرة . فلما قراها كارنين لم يعترض، بل تجلد طاقته ، وامر بارسالها .

★ ★ ★

رفض كارنين رجاء زوجته ، وكان يعرف ان ردها خائبة هو بمثابة طعنها في صميم قلبها ، والعجيب في امر الرجل انه شعر بكثير من الندم لما قام به ، وطافت في مخيلته صور من الماضي ، ورأى زوجته ، ورأى نفسه، واحصى اخطاءه وزلاته ، واخذ على نفسه جموده وشذوذه ، واعترف فيما بينه وبين هذه النفس الحائرة انه حثها بسلوكه على الانحراف والوقوع..

كما تذكر ، تصرفاته المذهلة بعد تكشف الحقيقة .. ولقد جاءت انا الى بطرسبرج وجاء معها فرونسكي . جاء بعد غيبة طويلة في فندق عظيم، فاحتل فرونسكي حجرة خاصة له ، وخصص انا وطفلته والمربية بجناح قائم بذاته .

وما ان ارتاح فرونسكي من عناء السفر حتى قصد منزل شقيقه فالقى هناك والدته .

وقد سرت امه كثيرا عندما رأته مقبلا .

ولما خاطبه شقيقه لم يرع شعوره بل فاتحه دون مواربة بما عرفه الجميع من علاقته بانا . وقطب فرونسكي حاجبيه ورمق آخاه بنظرة قاسية واجاب :

« لا ترع يا اخي ، فهي بمثابة الزوج ، ولن اعتم ان ابني عليها في القريب العاجل .. اما الآن فانا اطلب اليك ان تشرح الامر لوالدتي ولزوجك»

فقال شقيقه : « على اني اتهيب الموقف ولا اود ان اثير الاضطراب في بيتي ، فوالدتك تابى لك ما يضير بك ! »

فقاطعه فرونسكي محتدما : « لا احفل الناس اذا كنت واثقا من صواب عملي . بيد اني استهنت بالناس فلن ارضى للدوي ان يصمروا لي

ولها خدودهم . واعلم انى احتم عليكم جميعا ان تعاملوها معاملتكم لزوجتي، والا فسينتهي ما بيننا بالقطيعة » .

واستمع الاخ الاكبر مبهوتا ، واثر الصمت ، ولعله صمت مكرها حتى يبقى على صحبة اخيه ، فهو يعطف عليه ويحبه .

وعندما رجع فرونسكي من ايطاليا كان ينظر بشوق الى اليوم الذي يستعيد فيه مركزه في الحكومة ومكانته في المجتمع ..

ولكن الابواب التي كانت مفتحة المصاريع اغلقت دونه الان ، وان المنازل التي كان صحابها يهشون في وجهه لم تعد ترضى بمقدمه . وايقن انه طمس اسمه بعمله ، كما طمست انا اسمها .

ولم يحتف به احتفاء صادقا الا الاميرة بتسي ـ وقد رحبت به ايما ترحيب ، واعربت له عن سرورها بمقدم انا ، ولكنها لما درت ان الطلاق لم يتم بين الزوجين ، انتحلت شتى الاعذار لتذهب في سبيلها .

بيد ان هذه الاميرة ألمت بالفندق بعد بضعة ايام واجتمعت الى انا ، وجاذبتها اطرافا من الحديث المتكلف . ولم تنس بتسي ان تنوه بفضلها وبشجاعتها ، وباقدامها دون مبالاة على زيارة انا .

كما انها حرصت على التحدث عن الطلاق ، فقالت :

« لا تظني بي الظنون يا انا ، فانا لست بالمراة التي تتقيد بمثل هذه الترهات ، غير ان الناس تختلف يا عزيزتي ، وانا واثقة ان جميع صديقاتك سينجنبن زيارتك ولن تعود المياه الى مجراها قبل وقوع الطلاق ، وحدوث يضفي على علاقتك بفرونسكي صفة قانونية »

وقد اصغى متفكرا متمنعا ، وادرك ان كل محاولة يبذلها لادخال انا في المجتمعات سيكون مآلها الفشل والاخفاق . وبالرغم عن ذلك راى ان يبذل وسعه ، وان يشرع في اقناع ذويه واهليه بتقبل انا .

وبدا فرونسكي محاولاته بزوجة اخيه ، فقد جاءها ذات يوم وابتدرها بما خالج صدره ففكرت المراة ثم ردت عليه وجهها يتضرج :

« لست في شك قط من انك تحبني وتحترمني كما وانك تعلم مدى تعلقي بك ومحبتي اليك . فاعلم اذن اني ما اعترضت على علاقتك بانا ، وما حاولت التنكر لك او اسداء النصح او زجرك بكلام معسول ! »

وصمتت المراة وتنهدت منفعلة ، ثم تابعت تقول :

« انا يا عزيزي اقدرك واعجب بك . وانا ايضا لا ادخر وسعا في ارضائك . ولكني لا استطيع ان ابي طلبك هذا . لا استطيع ان اصادق انا فازورها وتزورني ، وآخذ بيدها فاقودها الى اندية الطبقة الراقية ..

انني ام ولي ثلاث فتيات ، ولفتياتي مستقبل ، ولا ندحة لي من درء كل ما يشين ، عني وعنهن » .

وهب فرونسكي واقفا وصاح وهو يصرف باسنانه :

« تبا لك ! تبا للنساء جميعا ! اكلكن نقيات نقيات : اكلكن طاهرات ورعات أ او ليست هي افضل من اكثركن ؟ »

فقالت فاليا لاهثة : « حنانك يا الكسي ، لا تغضب ، لا تنقم علي »

قال :

« لست بغاضب عليك بل انا حانق على نفسي وعلى هذا المجتمع الزائف الناهش المتربص .. انا حانق على كل من يدعي النبل والشرف ، لان كل مدع منهم لا تمت بصلة الى هذه الصفات .. انني ذاهب الآن الى غير رجعة ولن ارى احدا منكم بعد اليوم » .

راى الشاب كل شيء ، وايقن بعد اخفاقه انه لن يثني احدا عن موقفه ، وان انا لفظتها المجتمعات ، وانه هو نفسه امسى منبوذا .

سرعان ما استسلم لليأس والقنوط ، عندما زادت انا نفسها من آلامه ، بما شاب طباعها واعمالها في الآونة الاخيرة من تبدل عجيب مذهل .

وشك وارتاب ، فهي تحنو عليه ، حتى لكأنها خلاصة الحب وجوهره ، وهي تربأ بنفسها ، وتمتنع عنه ، وتزور ، حتى لكأنها كرهته وعاقته .. ثم انها تبدو احيانا مهمومة مستغرقة في فكر حزين ممض .. فماذا يعتمل في صدرها يا ترى ؟ أترى هي ما جرى ؟ ام هي تحلم بامر آخر ؟

وتساءل الفتى ، الا انه لم يهتد الى جواب .

انا امراة وام ..

وما رجعت الى بطرسبرج الا بحافز من شوقها الى ولدها .. لقد نسيته وقتا في غمرة فرحتها بفرونسكي .. ونسيته او تناسته اندفاعا وراء عاطفتها الجديدة ـ عاطفة الامومة التي اذكتها المولودة الطفلة .

ولكنها امراة وام ..

وكانت كلما اقتربت من بطرسبرج ازدادت انفعالا وتهيجا .. وكانت تترنم باسم سيرج ، تهمس به وكأنه موجود بقربها .

ودنا القطار من مشارف المدينة ، فتطلعت كأنها تتوقع ان تجده في استقبالها ؟

على انه لم يدر في خلدها انها قد ترد خائبة متى طلبت رؤية الغلام .. ومضى يوم ، يومان وثلاثة ايام وايقنت مما شاهدت وسمعت ، انها امراة نبذت كما تنبذ النواة .

وروادتها نفسها على الذهاب الى منزلها ولكنها تهيبت الموقف وآثرت الانتظار والترقب .. فمن يعلم قد تصادف زوجها قد يقصيها الخدم ، اتكتب له رقعة تتضرع اليه فيها ان يشفق عليها ؟ اتلازم الطريق حتى ترى سيرج صدفة ؟ وهل يجديها ذلك نفعا ؟ وماذا يقول سيرج متى فعلت ذلك ؟

وتناهى اليها خبر الكونتس ايفانوفنا، وادركت انها المراة التي يتسنى لها مساعدتها ، فبعثت اليها بتلك الرسالة ، رضيت ان تستعطف امراة غريبة في امر لا يعني سواها لكي تتمكن من رؤية ابنها .. فماذا كانت النتيجة ؟

لقد جاءها جواب المراة الجاف ، جاءها فحطم قلبها .. انهم يدفعونها دفعا عن ابنها .. فمن اين لهم الحق ؟

وتألمت لوحدتها ، تألمت دون ان يشركها احد في المها .. انهم يدفعونها دفعا عن ابنها .. فمن اين لهم الحق ؟ من اين ؟

ولم يكن حبيبها يدري شيئا من محاولتها ، فقد كتمت عنه الخبر خيفة ان يبدر منه ما يخدش احساسها ويضاعف في عذاب نفسها .

كانت تحب فرونسكي ، ولكنها ادركت وهي تشق طريقها الى بطرسبرج ان حبها لسيرج يربو كثيرا من حبها لفرونسكي ، كما ايقنت وهي تستعبر ان الفرق بين الحبين هو الطهر ــ حب طاهر .. وحب فاجر .. واشفقت على نفسها ان هو سخر منها ومن حبها لولدها ان ينقلب هواها الى كراهية. لهذا آثرت الكتمان .

* * *

بكت انا ساعة تلت رد الكونتس ورفضها ، ولكنها لم تلبث ان نقمت نقمة شديدة ، وجعلت تتساءل متورمة الصدر عن قحة المراة الداخلية وجرأتها ...

ثم جعلت تحدث نفسها وتقول :

« اما كفاني ما لقيت ؟ ... انهم يبحثون عما يقهر سيرج ويعذبه .. ولكني ام وسأناوم ، وسأقهر هذه المراة الشيطانة ! »

وصادف بعد يومين عيد ميلاد سيرج ، فاستيقظت في ساعة مبكرة ، وخرجت الى المدينة فابتاعت ما يحبه سيرج وما يطلب اقتناءه . ثم رجعت ادراجها الى الفندق فتناولت طعام الافطار ، واسدلت على محياها نقابا اسود ، واستقلت العربة متوجهة الى منزل زوجها .

واخذت تضرع الى الله ان تصل في ساعة يكون فيها زوجها مستغرقا في النوم ، ويكون الخدم منهمكين في غرف اخرى ، حتى لا تضطر الى شراء

ضمائرهم بالمال ، او ان تكذب فتزعم ـ دون أن ترفع النقاب الذي تلثمت به ـ انها امرأة موفدة كرسول في امر من الامور ، وان هذا الامر يتعلق بسيرج ابن سيدهم وبعيده السعيد !

ووصلت قرعت باب الحديقة ، فجاءها البواب ، فحيته بكلمة لطيفة واسقطت في يده قطعة من الفضة . ونظر الرجل مشدوها ثم حنى رأسه ، وفتح الباب ..

ولما دخلت سألها عن بغيتها ، فهزت كتفيها وانفلتت في الممر مسرعة مهرولة ..واقتحمت الباب، فواجهها الخادم الشيخ وكان يحبها ويحترمها ـ ولكنه لم يعرفها ، بل سألها مستفهما : « الك حاجة يا سيدتي ؟ »

فأجابت وهي تحاول ان تبدل من صوتها وتغير نبرتها :

« انني موفدة من قبل الامير سكاروف ، او من قبل ابنه الغلام، لأقدم لسيرج هدايا العيد السعيد ! »

قال : « بيد ان سيرج لا يزال نائما ، فهل لك في الانتظار ؟ انتظريه ريثما يتنبه من رقاده ؟ »

فهزت رأسها موافقة .

وتلبث الخادم الشيخ يختلس اليها نظرات المتشكك المرتاب ..

.. كان كل شيء باق على ما هو عليه .. كانت الارائك والمناضد والصور في مكانها المعهود .. وكان بيتها . الا انها نزلت عنه بمحض ارادتها .. فهل هي نادمة ؟ هل تولتها في تلك الوهلة موجة من ندم على ما انحرفت عنه ؟

لا احد يعلم .

ولكن الدموع تحجرت في مآقيها ! وسها عن بالها ما جاءت من اجله ، وغاب عنها انها متنكرة ، وانها يجب ان تبقى كذلك حتى تتمكن من رؤية ولدها ..

وطلبت من الخادم دون وعي منها ، ان يعينها ، على خلع معطفها .. فانحنى لها الخادم باحترام ومد يده فتناول المعطف الذي نفضته عنها بسرعة ، ووضعه في مكان من الردهة الكبيرة ، ثم انثنى يردد :

« الرجاء ان تنتظري بضع دقائق .. »

وحملق فيها ، واجفل ، ونكص الى الوراء ـ وكأنه يرى شبحا !

لقد عرفها الرجل من حركاتها ، لقد عاش طويلا في هذا البيت ، عاش فيه قبل ان تقدم اليه عروسا لسيده !.

وانحنى منبهر الانفاس ، وخاطبها بصوت متهدج : « انا طوع امرك يا

سيدتي ، لِمَ لم تكشفي لي عن شخصك ؟ لِمَ لم تطلعيني على رغبتك ؟ ولكن » .

وظنت انا ان الرجل فطن بعد ان رحب بها واعتذر ، الى اوامر سيده ، والى اوامر سيدته الجديدة ـ الكونتس ـ ظنت ذلك ، وحاولت ان تقول شيئا ، ولكنها انثنت بسرعة البرق ، وانشات تعدو ، ثم صعدت في الدرج المفضي الى غرفة ابنها .

وتعقب الخادم خطاها منبهر الانفاس يلهث من نير السنين .. تبعها وهو يقول : « على رسلك يا سيدتي ، انتظري قليلا ، انتظري ، ريثما انبه سيدي الصغير الى مقدمك .. »

استمرت تعدو مهرولة ، وهي تصيح :

« لا .. لا .. لن تمنعني ، لن يمنعني انسان ، ولن يجرؤ على ذلك احد ! »

دلفت الى المخدع ، وكانت لمحة ، لمحة هائلة !.

رات ابنها . يفرك عينيه بيديه الصغيرتين .

ففاض قلبها بالعاطفة الحبيسة ، فاض كلمة واحدة :

« سيرج .. »

ورددت الكلمة : « سيرج .. »

كان صوتها خافتا لم يسمعه احد ..

وقالت للمرة الثالثة : « سيرج .. »

وتضاءل فرونسكي في عينها ..

لم يبق الا سيرج .

يا للأم ..

ولكن العاطفة مذبذبة ، النبض لم ينضب معينها .. فهل يبقى كذلك بعد ساعة ؟!

وخاطبت نفسها : « انه نحيل شاحب .. فماذا اصابه ؟ لم حل به الهزال ؟ هل يعذبونه ؟ هل يضطهدونه ؟ ولكنه سيرج ، اليس هو ؟ » .

ولاحت من سيرج التفاتة فابصر والدته ، وندت من صدره صرخة تعجب ..

لقد تبين فيها المراة التي رامته وحديت عليه، ولكنه حملق مشدوها..

انها هنا ، وما قيل له عن موتها فكذب ..

ودنت منه انا ، وقالت وهي تنشج : « ولداه .. »

وقال الغلام « اماه .. »

واحتضنت طفلها بشدة ، وانكمش هو في احضانها مسرورا سعيدا .
وهتف ثانية : « اماه .. »
وقبلها : واغمضت هي عينيها !
ونبر الصبي يقول بعد لحظات : « اماه .. » واقبل عليها يتحسس وجهها ويتمتم :
« ان اليوم عيد ميلادي ، وكنت متأكدا من مجيئك .. »
ولبثت تنظر الى الوجه الملائكي نظرة منهومة .. واستخرطت في البكاء .
فهتف يقول منزعجا : « ماذا يبكيك يا امي ؟ ماذا ؟ »
فقالت وقد زادها قلقا : « انني ابكي من سروري بهذا اللقاء ، فلا تبتئس يا سيرج ، لا تشك بي ، فانا امك ، افديك بروحي .. »
دعني اساعدك في ارتداء ثيابك .. من يساعدك الآن من من الناس ؟ »
وخنقتها عبرة ، فأمسكت .
واقبل سيرج عليها ، وجعل يتكلم بمرح ، ويضحك ويقرر ، وقد بان في اساريره نور هو ولا شك نور الهناء والسعادة لظفره بأمه !.
وقالت انا : « وماذا قالوا لك عني ؟ هل اخبروك اني مت ؟ »
قال : « لم اصدق كلامهم ، بل انتظرتك طويلا » .
قالت : « احقا كنت تنتظرني ؟ »
قال : « نعم ، وكنت متأكدا من مجيئك يا امي » .
وجاء في تلك اللحظة الخادم الشيخ ففتح الباب بهدوء ورأى الام تحضن ابنها ، فدمعت عيناه وقال :
« لا ، لا استطيع . وسأرجع بعد قليل ! »
وكان جميع الخدم قد سمعوا بمجيء الام ، فتولاهم الاضطراب والخوف ، واشفقوا ان تبقى الام ، فيراها سيدهم في الساعة التاسعة . عندما يلم بغرفة ابنه .
وما كان من المربية الا ان اندفعت الى حجرة سيرج ، وكان الغلام عندما دخلت يروي لامه حكايات عما يفلعه ، وكيف يمضي وقته .. وكانت تصغي اليه .
على انها كانت تفكر بالساعة الرهيبة ، ساعة انصرافها ـ وكانت تشعر بانها ستموت حسرة متى ذهبت دونه ..
ولما دهمتها المربية لم ترفع بصرها ، بل لم تشعر بوجودها الا عندما قبلت المرأة ذراعها ، ورحبت بها حامدة الله على سلامتها .
وحاولت ان تقول كلمة اخرى ان تقول ـ وداعا ـ ولكنها لم تستطع

.. على ان الطفل قرأ الكلمة منطبعة مع الالم على اساريرها .. فعبس قليلا واغرورقت عيناه بالدموع ..

وقالت بعد ان استجمعت قوتها : « اذكرني دائما يا سيرج ، اذكرني .. »

« كلا .. كلا .. لا تذهبي بل امكثي معي ! »

« كلا اني مضطرة يا حبيبي الى الذهاب » .

« لا ، لا تذهبي فابي لن يأتي الآن ، ثقي من ذلك .. »

« سيرج .. هو ابوك ، فاحبه احبه كثيرا ، لانه خير مني ، وافضل واحسن ، فأنا اسأت اليه واضررت به ، اما هو ، فقد كان نبيلا كريما ، وسوف تعلم ذلك بعد ان تكبر وتبلغ طور الشباب » .

فهتف سيرج معارضا : « هذا لغو ، وهل هناك من يفوقك يا اماه .. هل هناك من يفوقك في حبه لي .. »

ونشج الطفل والقى راسه الجميل على كتفها ، فذابت حشائشها وتمتمت متلوعة : « حبيبي .. حبيبي .. حبيبي .. »

وقبلته مرارا . « وفتح الباب ، ووقف كارنين على عتبته ، وهو لا ينظر ولا يسمع .. وجمد الطفل مأخوذا ومشت انا بتؤدة ، حتى اذا ما مرت قريبا من زوجها ، أحنى راسه ببطء ووقار ..

وشعرت بالنفور الشديد ، وعجبت كيف طاوعها على قلبها توصية ابنها بوجوب محضر ابيه كل حبه ووداده .

وانفلتت من الباب بعد ان اختطفت من الارض رزمة الالعاب والهدايا التي احضرتها معها لسيرج .. وقد حملت الرزمة بيدها ، وهي لا تدري من امر حركتها هذه شيئا .. وقفلت راجعة الى الفندق ..

* * *

رغبت انا عن شوق في رؤية ابنها ، وسعت الى بطرسبرج ، وفي قلبها حنين عظيم اليه ، ولكنها لم تقدر ما سيصيبها عقب ذلك ، لم تتكهن بذلك التأثير المخيف الذي سيطرأ على احساسها ساعة تفارق ولدها للمرة الاخيرة.

وطفقت تحدث نفسها وتقول :

« يا لشوقي ! لقد ذهب مني ، لم اعد أم ، لم اعد له أم .. لقد انتهى كل شيء ، ورجعت الى عاري .. انني الآن وحيدة كما كنت قبلا ! »

وجاءتها المربية بطفلتها ، وقبلت انا ابنتها بحنان ، ولكنها ايقنت ان حبها لسيرج يفوق كثيرا حبها لهذه الطفلة .

لقد كرهت اب سيرج ، بيد ان حبها لسيرج تضاعف حتى ملأ عليها حياتها ..

وفوق ذلك فالملابسات التي جاءت فيها هذه الطفلة الى الحياة تختلف كل الاختلاف ...

وفطنت ، والفكر يطوف بعقلها في افق فسيح ، الى محفظة الصور ، فاستخرجتها وجعلت تقلب الصور المثبتة داخلها ، وتتأمل في وجه ابنها .

ووقع طرفها على صورة لفرونسكي ، فتناولتها وحدقت عينيها فيها وفكرت ، اليس هو السبب فيما حصل ؟. في كل ما حصل ؟. ؟

ولكنها ملت الطرف في تقاطيعه ونظرته التي تنم عن شهامة ورجولة. وشعرت بحب جارف لم تشعر بمثله منذ حين .

وتساءلت عن مكانه ، وتساءلت عما عسى ان يفعل متى رجع ، وعما هو فاعل الآن . وحدثت نفسها وعقارب الشك تلسعها في قلبها فقالت :

« ترى أين هو ؟ وكيف يرضى ان يتركني لوحدي ؟ »

ولكنها نسيت في غمرة تفكيرها ان فرونسكي لم يبارح حجرته ..

فلما تذكرت ذلك ارسلت من يستدعيه اليها . فرد عليها بان لديه ضيفاً عزيزاً هو الامير ياشفين ، وانه لن يلبث ان يلم بها في جناحها مع الضيف الكريم ان سمحت واذنت ..

فقطبت انا ، وخيل اليها ان فرونسكي يتحاشى الخلوة معها حتى لا تحرجه باسئلتها .. وداخل روعها انه كف عن حبها ، وانه لا يلازمها الا مجاملة واشفاقا . واستعرضت مخيلتها جميع ما مر بها في خلال الايام القليلة المنصرمة .

وتراءى لها ان جميع الحوادث التي وقعت تؤيد شكوكها ، وان فرونسكي طفق في الايام الاخيرة يجنح الى الكذب والمراوغة ، وانه جعل يتهرب منها .

لقد غزا رأسها فكر قاتم قلب الشك يقينا ، فصاحت متسخطة :

« ويله ، أجدر به ان يميط لي اللثام عن حبه ، حتى لا يسرف في تعذيبي .. اجدر به ان يرفق بي فلا يتناهى في ايلامي » .

وتساءلت عما يخلق بها عمله ان تحققت الظنون وهجرها فرونسكي .. ولما استحوذت عليها الحيرة ، طار صوابها ، فقرعت الجرس بشدة . ولم تنتظر مجيء المربية بل اسرعت الى المرآة تتزين وتضفر شعرها . وما عتمت ان تلفعت بأبهى حللها ، وكأنها تزمع ان توقعه في حبائلها من جديد !

ورجعت بعد قليل الى ردهة الاستقبال وجلست تفكر . وما هو الا قليل حتى قرع الجرس فهبت واقفة ، وفتحت الباب وقلبها يخفق بشدة .. ودلف الى القاعدة رجلان ، كان اولهما الامير ياشفين ، وكان الثاني فرونسكي .

فهشت انا في وجه الضيف ورحبت به اجمل ترحيب . ولما جلست معه اختلست النظر الى فرونسكي فالفته منهمكا في تأمل صور سيرج التي نسيتها مبعثرة على المائدة .

ولم يلبث فرونسكي ان اتخذ له مجلسا بجانبهما ، وخاض معهما في حديث السباق ، ثم في حديث الحل والترحال ، ثم جالوا وصالوا في كلام كثير عن اوروبا ، وحواضرها ، ومدنها وملاهيها .

وكان فرونسكي طيلة ذلك ينظر الى ساعته . ولما تأهب الضيف ليذهب ، دعته انا الى الرجوع في المساء لتناول طعام العشاء معهما .

وقد قبل الامير دعوتهما مسرورا ، ومضى في سبيله ، وهو ينظر الى فرونسكي متسائلا . وقال له الشاب قبل ان يخرج من الباب :

« اسبقني يا عزيزي ، وسالحق بك سريعا » .

ولما غاب شبح الامير عن ناظريها ، تقدمت انا من فرونسكي ، وامسكته من يده ، ونظرت الى عينيه باحثة عن شيء ، وفكرت .. فكرت كثيرا !

واخيرا قالت باغراء وتوسل :

« ابق ، ابق قليلا يا حبيبي .. هل اسأت صنعا في دعوته الى العشاء ؟

قال : « كلا ، بل انك احسنت بلفتتك ولباقتك » .

ومال اليها ووجهه يطفح بشرا . وضغطت انا على يده وقالت وهي تدني وجهها من وجهه :

« اي حبيبي فرونسكي ! اباق انت على عهدك ؟ اني برمة بحياتي ، ولا يزيل سأمي الا ثغتي بحنانك وحبك .. فمتى تسافر ؟ » .

فرمقها بعين مستشفعة واجاب : « لن تمكث هنا طويلا . فلا ترتاعي يا انا » .

وابتعد عنها ..

فارتاعت ، الا انها كتمت شعورها ، وادارت له ظهرها ، وهي تقول بجفاء :

« فاذهب اذن .. ان صاحبك في انتظارك . اذهب .. لا تتاخر ! » .

ودارت على حين غرة وحدجته بنظرة غريبة . لم يملك فرونسكي من شدتها ان ارتعش وارتعد .

ولكنه احنى هامته قليلا ، ومضى لا يلوي . .

* * *

رجع فرونسكي بعد ساعات الى الفندق فلم يجد انا ، بل قيل له ان سأل عنها انها غادرت المكان مع سيدة المت بها بعد ذهابه .

فدهش وتساءل من هذا الشذوذ الذي لاحظه في حركات انا وتصرفاتها في الاونة الاخيرة ، وعجب من خروجها وتأخرها ثم فطن الى تلك النظرة المريبة التي حدجته بها .

وقر رايه بعد اعمال الفكر على مجابهتها بظنونه فلزم قاعة الاستقبال الصغيرة وقد آلى ان ينتظرها حتى يفصل في المسالة .

ورجعت انا بعد ساعة طويلة ، ولكنها لم تكن وحيدة بل كان برفقتها عمتها العانس الطاعنة في السن الاميرة اوبلنسكي . وكانت هذه المراة هي التي قدمت الفندق بعد ذهابه .

وتجاهلت انا ربكة فرونسكي واضطرابه ، وجعلت تثرثر بحديث فكه وفرح ، وتصف ما قامت به عمتها في ذلك اليوم .

ولم يخف عن فرنسكي انفعال انا وتهيجها ، فايقن انها تبطن سرا دفينا . فحاول ان يخلو اليها ، وحاول ان يستدعيها الى مخدع نومها ، لكنها تجنبته طاقتها ولم تحفل اشارته او ايماءته . .

وعبل صبره وضاق صدره . وتفاقم الخطب في نظره ، وعظمت ريبته ، وخيل اليه في تلك الدقيقة انه لا يعرفها الا في تلك الدقيقة ، وانه لم يحبها منذ زمان ، بل احبها وفني فيها في تلك الدقيقة ايضا !

فيا للغيرة ! كيف تحيل موات العاطفة حياة للعاطفة !

يا للغيرة ! كيف تلهف النيران في قلب الرجل ، وكيف تذكي بذلك عاطفة حبه .

لقد جن جنون فرونسكي ، وكاد لولا بقية عقل ان يرتكب خطا بحضور الاميرة العجوز ، فهو يبغي المعرفة ، وهو يود ان يحيط علما بحقيقة ما فعلته انا في ذلك اليوم ، وكانه لم يصدق ، او كان ريبته التي علمها مرح انا قد حثته على وجوب التاكد من انها لم ترتكب امرا اذا !

احبها في الماضي واحبته . .

وقل حبه لها في الحاضر ، ونما حبها له .

عليه هذا الجمال ، وخيل اليه انه لم ير مثله من قبل .

نهاية حبه بل نهاية حياتها ، توسلت بالدهاء ـ الدهاء الغريزي ـ الدهاء الذي استعاضت به المراة عن الضعف ـ ورمت انا سهمها فاصاب .

وجاء في تلك اللحظة رسول للاميرة بتسي يعتذر بالنيابة عن سيدته لاضطرارها الى التخلف وعدم الحضور ، ويرجو من انا ان توافيها الى بيتها :

وها هو يتحرق لكشف الاسرار !

غير ان انا اعتذرت للرسول وبينت له من الحجج ما اقنعه ، فأجابها وهو ينحني باحترام :

« فان شئت وشاء اصدقاؤك ان تشهدوا الليلة « باتي » في دار الاوبرا فباستطاعتي ان اتدبر لكم مقصورة خاصة » .

فقالت انا وعيناها تلمعان : « ان من دواعي سروري ان اذهب . واني الان اود ان استبقيك لتناول الطعام معنا ! » .

فحملق فرونسكي بعينيه غير مصدق اذنيه ـ ماذا الم بها فجعلها تلح على رسول بتسي بالبقاء وتناول العشاء ؟ ثم ماذا الم بها وحداها على قبول الدعوة الى الاوبرا ، وهي تعلم عن يقين بانها ستلتقي بالطبقة العليا التي تجاهلتها وتجنبتها ولم تحفل بمقدمها الى بطرسبرج ..

ورات الحيرة مرتسمة في عينيه ولمع بريق عينيها ونظرت اليه بتحد نظرة تجمع فيها مرح وقنوط ، كما انبثق منها شرر عجيب اخافه واذهله في وقت واحد ! وانقذ الموقف حضور الامير ياشفين . ولم يعتم الجميع ان احاطوا بمائدة الطعام واقبلوا على الاكل يلتهمونه وعلى الخمر يرشفونه ..

وعبت انا مقدارا كبيرا ، وطفقت ترنو الى الامير ياشفين بنظرات مدلة مغرية ، ولم تبخل على الرسول بمثل تلك النظرات .

وكتم فرونسكي ما في قلبه من غل ما لبث بعد فراغهم من تناول الطعام ان اصطحب الامير الى حجرته حيث جلسا يدخنان ويتحادثان .

وصعد بعد حين فألفى انا متلفعة بفستان قشيب صنع في باريس خصيصا لها . كما انها زينت راسها الجميل بقطعة من الحرير المطعم . وآثر ان يسألها قائلا : وهل ترمعين الذهاب الى دار الاوبرا ؟

قالت : « نعم اني ذاهبة . فماذا يخيفك ؟ » .

قال : « لست بخائف بل متعجب ! »

فأغضت من تهكمه وغضبه وقالت : « انني مصممة على الذهاب فقد مضى علينا زمن ونحن نحيا في عزلة » .

فهتف وصوته يكاد ان يكون اقرب الى صوت زوجها يوم اهاب بها ان ترعوي ، قال : « انا ! فكري .. ماذا اصابك ؟ » .

قالت : « اجدر بي ان اطرح عليك هذا السؤال » .

قال : « ولم تتجاهلين متعمدة الحقيقة الجلية ؟ الا تبصرين ما ينطوي عليه ذهابك الى الاوبرا من خرق واف ؟ » .

قالت : « انني ذاهبة مع الاميرة ! »

فلوح بيده واستتلى وكأنه لم يسمع كلماتها : « تعقلي يا انا ، فأنت .. انت .. » .

فعارضته محتدمة ، وصاحت : « كفى ، كفى ، واعلم اني لا اتردد عن اتيان ما اتيت لو الفيت نفسي منجرفة بذلك التيار الكريه الذي جرفتني به الحياة مع زوجي لسنين وسنين ! » .

ونظرت اليه ، ونظر اليها ، وتابعت بصوت عميق :

« اي الكسي فرونسكي .. ان الامر الذي يعنينا بالدرجة الاولى هو هل يشج بيننا حب ؟ هل تصل بين قلبينا عاطفة ؟ هل يربط روحينا اخلاص حياتنا الان ، هذا هو الهواء الذي تتنفس ، والضياء الذي تبصر الدنيا من خلاله ، اما الناس الذين يتبعون المادية ، مادية السفسطة والهذر وقلة الحذر في ما يقولون وفي ما يفعلون ، فلسنا نقيم لهم وزنا ! وسابقى معك لاني اهواك » .

وصعد فيها طرفه الماخوذ ـ انها بارعة الجمال ، ان كل جزء في قدها يسبح حمدا لمن سكبها في هذا القالب ، ولكنه كان متاثرا من شذوذها ، فقال بامتعاضة :

« وهل لي حاجة الى اثبات صدقي ومحبتي ، الست الان عاشقا يضرع الى محبوبته ان تعدل عما وطدت النفس عليه فلا تذهب الى الاوبرا ؟ » .

فقالت : « انت غامض الليلة يا فرونسكي ، ولست ارى في ذهابي ماخذا او سبب .. فالامير ياشفين صديق امين ، والاميرة العجوز افضل من سواها ، فماذا في ذهابي معهما ؟ » .

وذهبوا الى دار الاوبرا ، ذهبت انا بصحبة الامير ياشفين ورسول الاميرة بتسي ، وتبعهم فرونسكي بعد ساعة . فلما غشي المكان كانت الانوار تشع متوهجة . وكان الجميع يصفقون بحماس منقطع النظير للممثلة المغنية .

واجال فرونسكي طرفه في الحشد فشاهد وجوها جميلة يعرفها ورأى رجالا كثيرين كانوا فيما مضى يخطبون وده . ولاحظ ان الكثيرين والكثيرات يتجهون ابصارهم الى احدى المقصورات ، فايقن انها مقصورة انا ، فصوب اليها نظره من وراء المنظار المكبر ، ورآها .. رأى رأسها الصغير الجميل ، وتبين افتراراتها الساحرة العذبة ، واستطاع ان يلمح الشعلة التي انبثقت من وجهها ، وكذلك الهالة الساطعة التي احاطت ذلك الوجه الفاتن .

ومع ذلك فقد خبل اليه ان جمالها فقد كثيرا من رونقه السابق .

فجأة استرعى انتباهه حركة غير عادية في المقصورة المجاورة لمقصورة انا ، فركز منظاره عليها ، وتعرف على من فيها ـ وكان فيها عائلة من العائلات الوثيقة الصلة بانا ، وكانت ربة تلك العائلة قد همت بمعطفها ترتديه بعصبية

ظاهرة ، بينما وقف زوجها ، وهو يحاول ان يهدىء من ثائرتها .. وخرجت المرأة ، وتلكأ الزوج وجعل يختلس النظرات الى وجه انا في ضراعة واستجداء . ولكنها تجاهلته لبثت تجاذب اصحابها اطراف الحديث ، وان بدا جليا انها ومن معها كانوا قد اصابهم قلق واضطراب لما حدث في المقصورة المجاورة .

وعجب فرونسكي ولم يفهم ما حدث ، بيد انه ايقن ان المرأة التي تجلس في تلك المقصورة تعمدت ان تلحق الاهانة بانا .

وشاء ان يعرف الحقيقة ، فسارع الى مقصورة شقيقه ، فالتقى زوجته على باب المقصورة ، فصافحها ووقف يحادثها .

وقالت فاريا : « يا للمرأة الوقحة ، لقد ارتكبت امرا دنيئا .. » .

قال : « وماذا حدث ؟ »

قالت : « اما سمعت ؟ »

قال : « كلا ، لم اسمع ، فماذا جرى ؟ »

قالت : « كانت انا كارنينا تتجاذب اطراف الحديث مع السيد كارناسوف ، عندما هبت زوجة الامير واقفة وتفوهت بعبارة نابية ، ووصمت انا بالنقيصة ، ثم غادرت المكان .. » .

ففكر فرونسكي مليا ، وبينما هو ينصت الى فاريا ، دنا منه شخص وطلب اليه ان يلم بأمه فهي ترغب في رؤيته .

فمشى دون ان ينطق بكلمة ، ودخل على امه فحياها وسألها عن حالها ، فقالت وهي تنظر اليه نظرات ذات معان :

« اراك مبتعدا عنها ، فلم لا تذهب اليها ؟ اما ترى جمالها الفاتن ؟ اما تراه يزري بجمال المغنية الاولى ؟ ! » .

فقال محتدا : « اقصري ، اقصري .. »

قالت : « هذا لسان حال الجميع ، وانا اردد كلمات الناس ، ليس الا ! » فتلفت فرونسكي حوله ، ثم غادر امه وهو يكاد ينفجر من الغيظ .. وقد نقم على انا مجيئها الاوبرا ، وسخط كثيرا لرعونتها .

وسارع متجها الى مقصورتها ووقف تلقاءها . فلما رأته قالت ساخرة:

« ها انت قد جئت اخيرا ، ولكن .. ولكن » ..

واطفئت الانوار ، فعاد من حيث اتى ..

وحانت منه التفاتة بعد حين فألفى مقصورة انا خالية فنهض من مكانه وغادر الدار مسرعا ، وانطلق الى الفندق وقلبه يفيض الما وحسرة .

ودخل قاعة الاستقبال الملحقة بجناح انا ، فرآها تجلس على الاريكة

بملابس السهرة ، وقد شخصت الى الامام بطرف شارد يائس .

ورآته انا فتلملمت . وهتف هو بصوت شديد : « انا .. » .

ووثبت من مكانها قائلة : « فرونسكي ؟ انت السبب .. » .

قال : « بل انت .. انت مجنونة .. الم ابتهل اليك ان لا تذهبي ؟ الم اضرع ان تمكثي معي هنا ؟ » .

قالت : « اواه ! ما ابشع كلام هذه المراة الوقحة .. لقد قالت لزوجها : ابتعد .. ابتعد .. لا تجلس قريبا من هذه المخلوقة الملطخة ! »

قال : « او تقيمين وزنا لثرثرة بلهاء ؟ »

قالت : « اني اكرهك .. اكره برودك وجمودك ! » قال « برودي وجمودي ؟ »

قالت : اجل .. لو كنت تحبني لما ذهبت الليلة الى دار الاوبرا » ..

ورنت اليه بطرف مخضل ، فكاد دمعه يسيل من عينيه وشعر بالتعاسة ، ورثى لها ، وجعل يلقي على مسامعها كلمات الحب .

وهدات انا ، فدنت منه وقبلته .. ونامت في تلك الليلة قريرة العين ناعمة البال .

* * *

كانت داريا واولادها الصغار قد توجهوا الى قرية ليفين زوج كاترين ليقضوا مع الزوجين جانبا من فصل الصيف . وهناك بلغهم نبا رجوع فرونسكي وانا الى مزرعته . فازمعت داريا ان تزور انا . ومع انها كانت تعلم بقصة فرونسكي وشقيقتها ، وما تبع تعرف الشاب بانا من حوادث صرفته صرفا عن شقيقتها ، الا انها لم تر في كل ذلك ما يعيقها عن زيارتها .

ووصلت داريا بعد مسيرة نهار كامل في العربة ، فاستقبلتها انا اجمل استقبال وقبلتها وهي تقول :

« ربما عجبت يا عزيزتي لما اظهره من سعادة وهناء ، وبالرغم مما لحق بي من متاعب .. الا فالي ان العصا السحرية قد اصابت قلبي . فنجوت من حياة مرهقة ممضة مقيتة ، لاظفر بحياة هانئة سعيدة » .

واختلست الى ضيفتها نظرة متاملة . وقالت :

« وهذا يملأ قلبي سرورا يا انا . بيد اني طالما تساءلت ان سبب امتناعك عن الكتابة الي ، فلماذا يا ترى لم تكتبي ؟ » .

قالت : « تسالينني لماذا ؟ اعلمي اني لم اجرؤ على الكتابة » .

قالت : « لم تجرؤي ! وهل تخافين مني ؟ »

قالت : « وكيف تنظرين الى حالتي ؟ وماذا تظنين اني جديرة بفعله ؟ »

« لا اريد ان ابدي رايا ، اني احبك وقد احببتك دائما ..

وترقرقت الدموع في مقلتي انا ، فنكست راسها وظهر عليها التردد ، وما لبثت ان قالت : « مهما رايت في فانا جد مغتبطة لقدومك » .

ورات داريا دموع صديقتها ، فتاثرت كثيرا ومدت يدها فربتت على صدرها وهي تقول : خففي عنك يا انا ، اصبري ولا تستسلمي لليأس » .

فابتسمت انا وقالت : « الا تستطيعين ان تمكثي معي بعض الوقت ؟»

« كلا يا عزيزتي ، فاني لا يمكنني ترك اطفالي لوحدهم » .

فامسكتها انا من يدها ومشت معها الى ردهة الاستقبال ثم جلست بجانبها على اريكة وثيرة وجعلت تحدثها وتسالها عن شؤونها . وما لبثت داريا ان حدثتها عن بنيها وبناتها ، وعن توبة زوجها ـ شقيق انا ـ وطفقت بعد ذلك تسالها عن حياتها في الريف وعن مدى شوقها الى ابنها سيرج .

وشاءت انا ان تحول دفة الحديث فقالت : « لكم كنت اتمنى لو دعوتكم الى قضاء بضعة ايام معنا في مزرعة فرونسكي » ..

وتصاعد الدم بغتة الى وجهها لدى ذكرها اسم عشيقها .

واجابت داريا بلسان متلعثم دل على حيرتها :

« هذا جميل ولكن .. ولكن .. » .

وسارعت انا تقول : « انني اعذي ، واردد اقوالا لا تتحقق ، ولعل زيارتك المفاجئة جعلتني اتخلى عن وقاري . اما ما اود ان ابينه لك ، فهو انني امراة اختارت ما راته مناسبا لها حتى تقضي ايامها في عيش حلو » .

وجاء فرونسكي فاصطحب المراتين الى الحديقة ، ثم استقلوا زورقا صغيرا رادوا به النهر . وقد سرت داريا من المناظر الخلابة التي شاهدتها ، كما ان فرونسكي وشخصيته الجذابة ساهما كثيرا في مضاعفة سرورها .

ولم تملك وهي تتامل في الشاب ، ان ناجت نفسها بقولها : « انه نعم الشاب جميل ، ولا شك ان انا معذورة في تعلقها به » .

ورجعوا من النهر فجلسوا في الحديقة ثم جلسوا خلالها وانتهز فرونسكي فرصة ابتعاد انا عنهما فانشا يحدث داريا ويقول : « انك كما اثق صديقة مخلصة لانا ، وتقدرين مصاعبها ، كما تقدرين موقفها الحرج بالنسبة للمجتمع » .

فقالت داريا : « اجل انني صديقة ومحبة ، ولكن .. »

فقاطعها قائلا : « واشعر انى المسؤول عن كل ما لحق انا من مكروه ، وهذا يضاعف همي ويضيف الى حملي اثقالا كثيرة » .

« لا تكن مسرفا في التشاؤم يا صديقي ، انك شهم ، بيد ان غلوك في تحمل المسؤولية خطا لا يبرره شيء .

« كلا ، بل انا الملوم .. واعلمي ان انا تعيش في جحيم من الفكر » .

بيد انكما غادرتما بطرسبرج وخلصتما من تلك الهمسات المجرمة التي فتحت كلوم انا ونكأت جروحها ، وان انتما تقليتما عن المجتمع دون ان تاسفا على ذلك ، حزتما الراحة النفسية والهدوء والاستقرار » .

« اصبت يا داريا ، واصدقك ان انا قد تغيرت كثيرا منذ مجيئنا ، وهي تبدو الان منشرحة مغتبطة .. فهل تدوم سعادتها ؟ وهل يتركنا الناس وشأننا ؟ لم ، هل نستطيع نحن ان نستمر وان نتجب الاطفال دون ان نثير ضجة حولنا ؟ وكيف لنا ان فعلنا ان نكسو اطفالنا بالصفة الرسمية ، الصفة التي تبعد عنهم العار والشنار ؟ - والقانون يا داريا ، القانون عقبة لا يسعنا تخطيه : ان لي ابنة من انا ولكنها في نظر القانون ابنة الكسيس كارنين ! وان انجبنا غدا ولدا اخر ، فهو ايضا ابن الكسيس كارنين ، وهو على ذلك لا يحمل اسمي بعد موتي ولا يرث مالي » .

« وانا لو اتينا من الهناء اكمله ، فسينقصنا دائما امر ، سنفتقر الى الصلة الرسمية التي اوجبتها التقاليد ، واحالت منها حقيقة معترفا بها في كل مكان » ..

وتاوه فرونسكي وصمت ، ثم استتلى :

« انت ولا شك تقدرين هذه الوضعية .. واني كلما فاتحت انا بهذه المسالة ، يتاجج نار غضبها ، فتثور ثائرتها .. فانا لا تود ان ترى الحقيقة .. وانا احبها ، ولكن الحب ليس كل شيء ينبغي لرجل ان يعني به في حياته .

واجابت داريا : « اصبت ، واني اقرك على كل ما ابديت ، ولكني لا اجد الوسيلة الكفيلة بوضع الامور في نصابها » فماذا تستطيع ان تفعل بربك ؟ قل ، الديك رأي ؟ » .

صمت الشاب وبان الحزن في تقاطيعه .

قال : « اجل ، علي انا ان اتدبر الامر ، عليها ان تحصل على الطلاق، قبل ان ارفع الى القيصر رجائي باقرار شرعية ابنتي والحاقها بعائلتي بصفة رسمية .. ولا يتطلب هذا الامر جهودا كثيرة ، فكارنين مستعد لتنفيذ الطلاق ، ويتحتم على انا ان تطلب اليه ذلك في خطاب ترسله في القريب العاجل .. قد اتجنى عليها ان طالبتها باتباع هذه الخطة ، ولكن لا بد مما ليس منه بد ، ان لك دالة الصداقة عليها ، فاختلي بها وكلميها ! » .

قالت : « سافعل ذلك ، لن اتأخر » .

قال : « اشكر لك عطفك واخلاصك يا سيدتي » .

* * *

في تلك الليلة وقبل ان تلوذ داريا بفراشها جاءت انا الى حجرتها بملابس النوم وجلست بجانبها . وكانت قد اعربت لها قبل ذلك عن رغبتها في التحدث اليها في ساعة يخلوان فيها الى بعضهما البعض .

فلما جاءت في تلك الهدأة من الليل ، احتارت في امرها ولم تدر من اين تبدأ الحديث . كان رأسها مفعما بالافكار التي ازمعت ان تفضي بها الى داريا . على انها ما كادت تخلو حتى لجم لسانها واختلط تفكيرها ، فجعلت تحدق امامها وتحاول جاهدة ان تركز تفكيرها على نقطة واحدة .

ورات اخيرا ان تبدأ بالسؤال عن كاترين شقيقة داريا ، فتساءلت ان كانت كاترين غاضبة منها ، وان كانت تكن لها الكراهية والاحتقار .

وقد اجابتها قائلة : « انها لا تكرهك ، غير ان مثل هذه الامور لا تنسى بسرعة ، ويتعذر على الانسان ان يغتفرها بسهولة » .

قالت : « اصبت ، على اني لا الام على ما حصل ، ولا ادري من هو الملوم .. ولا ادري ايضا ان كان من الواجب ان نلوم احدا .

قالت : « قد تكوني محقة في تفسيرك ولكن الانسان ضعيف لا يتسنى له معالجة الامور بمثل هذه الطريقة الفلسفية » .

« وكيف تعيش كاترين مع زوجها ؟ اسعيدة هي معه ، اموفقة في زواجها منه ؟ » انها سعيدة كل السعادة واخال ليغين انبل رجل عرفته في حياتي .

« وهذا من دواعي سروري يا عزيزتي ، فكاترين حسناء جميلة تستحق كل خير » .

« دعينا من حديث لا طائل تحته ، واخبريني عن نفسك ، فقد تحدثت مليا مع فرونسكي اليوم ، وطرقنا موضوعا حساسا يتصل بك » .

« وما رايك في ؟ ماذا ترين في حياتي ؟ »

« وهل استطيع ان اشرح هذا الموضوع الشائك بسهولة وارتجال ؟ »

« لا تهابي ولا تفرقي ،وقولي رايك الصريح بايجاز » .

« وفري علي يا انا ما احب ان اخوض فيه ، ودعيني انبئك بحديثي مع فرونسكي ؟ » .

طلب ان احقق الطلاق .. وهل تظنينني لا اطمح ببصري الى بلوغ هذه النتيجة ، هل يخيل اليك اني اطيق مواصلة هذه الحياة الشاذة بعد الذي امتحنت به في بطرسبرج ؟ لقد تجنبني الجميع هناك ووصل الامر ببتسي نفسها ـ وهي احط مخلوق على وجه الارض ـ الى تجنبي والتهرب مني » .

« ان فرونسكي يا عزيزتي متوجس وهو يبغي استكمال سعادته

بزواجه منك طمعا في استرداد اعتبارك ورغبتك في تعزيز وضعية ابنتك » .

« علي اني اكثر من خضع لسه النساء ، فماذا يبغي اكثر من ذلك ؟ » .

ان فرونسكي شريف مخلص وهو يربأ بنفسه عن ان ترضى لك بالامتهان والشقاء ، وفوق ذلك فهو ، شأنه في ذلك شأن كل اب ، ينظر الى المستقبل، ويعمل لخير اولاده ، اليست الفتاة ابنته ؟ ثم الا يأمل في مزيد من الاولاد ؟ » .

« كلا ، كلا ، فهذا امر دونه خرق القتاد الن انجب اطفالا اخرين لقد قال لي الطبيب ذلك واكده » .

« فما رأيك بشأن الطلاق اذن ؟ » .

« ارجوك يا داريا ان تكفي على التلفظ بهذه الكلمة » .

« ولم ذلك ؟ اتؤلمك الصراحة ؟ » .

« كلا ، ولكني لا ارى لمشكلتي مخرجا ، اني كالغريق لا تنفعه قطعة من خشب » .

« اي ! ابك وعكة ! ام هل انحرف تفكيرك الى اتجاه اخر : الا تطلبين الزواج من حبيبك ؟ الا ترغبين في ذلك » .

« انها الحقيقة الخالدة في نفسي ، واني افكر في هذا الامر اثناء الليل واطراف النهار ، ولا استطيع للنوم سبيلا الا متى تعاطيت المخدر .. وفوق ذلك لقي ان كارنين قد عدل عن منح الطلاق وذلك بتأثير تلك المرأة التي هيمنت عليه وعلى منزله في الاشهر الاخيرة » .

ففكرت داريا قليلا وقالت : « على ان هذا الاحتمال لا يمنعه من المحاولة » .

قالت : « ان كل محاولة من هذا النوع ترجع علي بالمذلة انني متى اكتب له ، اكتب كارهة مرغمة واكون بمثابة المرأة التي تعترف بذنبها .. ولو سلمنا جدلا انه لم يرفض بل لبى طلبي بداع من الشهامة والشفقة ، فاين اكون من ابني ساحرم منه ، سيحال بيني وبينه ، وسيراض على احتقاري وذمي.. اني احب سيرج واحب فرونسكي ! » .

وانتصبت واقفة وجعلت تذرع الغرفة بخطوات سريعة تدل على انفعالها . ولم تلبث ان تمهلت امام داريا وقالت وهي تحدجها بنظرة براقة :

« انهما الشخصان اللذان احبهما واؤثرهما .. انهما الشخصان اللذان افكر فيهما .. وكل واحد منهما يحاول ان يقصي الاخر عن حياتي .. وانا اعلم علم اليقين انه يتعذر على نيلهما معا والحصول عليهما في آن واحد .. وما دامت هذه الامنية بعيدة كل البعد عني فلم يعد لي في حياتي هدف او مطمح ، وليجر ما يجري . فلست ابالي ! » .

« انا ... »

« انك طاهرة القلب يا داريا صافية الاحساس ، ومن المحال ان تفهمي ما اقاسيه ، من المحال ان تدركي ما اعانيه » .

وعادت فجلست بجانب داريا ، وتناولت يدها بلطف ، وقبلت وجهها وانشأت تقول :

« انت مستغرقة في الفكر ، فكرك عميق الغور .. واخشى ان يكون احتقارك لي قد تضاعف .. فلا تفعلي ، ولا تحتقريني ، فانا تاعسة عاثرة ، انا شقية لاغية .. انا امراة وجدت لاشقى ، وما وجدت الا لاموت شقية ! » .

واجهشت انا ، ثم استخرطت في البكاء . واندفعت خارجة ، وولجت غرفتها فجرعت دواءها المشتمل على المورفين ، وما لبثت ان استلقت على فراشها واستسلمت للرقاد .

وقفلت داريا في اليوم التالي راجعة من حيث اتت .. رجعت الى بيت ليفين وهي تحمل في ذهنها من الذكريات ما لا يزول او يمحى .

* * *

تعاقبت الايام ، وولى الصيف ، وانقضى جانب من الشتاء وما برح فرونسكي وانا يقيمان في الريف ، كما كانا يعيشان منذ اشهر ، دون ان يتخذا الخطوة الحاسمة التي تقرر مصيرهما .

وفي نوفمبر من ذلك العام عين موعد الانتخابات المحلية في ولاية كازنسي حيث تنتشر املاك ليفين وفرونسكي واوبلنسكي وسواهم .

وقد اهتم الجميع لهذا الحدث وتوافد الناس الى الولاية من المدن الكبرى . وشاء فرونسكي ان يشترك في المعمعة مؤيدا احد المرشحين ، وهو صديق حميم له . وافضى لانا بما عول عليه . غير انها عارضته بشدة ولم ترضخ له ، وحصلت بين الاثنين مشادة عنيفة كان لها اسوا الاثر على فرونسكي .

واصر فرونسكي على الذهاب ولما سافر ودعته انا بهدوء لم ينتظره . ولم ترد على كلمات الوداع الى سؤالا لبقا عن موعد اوبته .

فتجاهل السؤال وتمنى لها ان لا تضجر من الوحدة اثناء غيبته .

وذهب فرونسكي وهو يحدث نفسه ويقول :

« لا ، لا ، كل شيء الا هذا .. اني اقدم لها ما تريد ، واضحي من اجلها باكثر مما تريد ، خلا حريتي ! »

الا انه كان يعلم علم اليقين ان اشتراكه في معركة الانتخاب كان في الحقيقة بحافز من المثل الذي شاب حياته في الريف وكذلك بدافع من رغبته في الظهور امام نفسه وامام انا بمظهر الرجل الحريص على حريته واستقلاله .

وبينما هو في اليوم السادس منهمك في الاحتفال بفوز صديقه ، وقد احتشد قوم كثيرون في قاعة كبرى ، اذ برسول من قبل آنا يأتيه ويعطيه كتابا منها .

وعلم فرونسكي قبل ان يقرأ الكتاب ان آنا تعنفه فيه على امتداد غيبته وتطلب اليه الرجوع دون ابطاء .

وقال يخاطب نفسه : « طفلتي في خطر الموت ، وانا مهتاجة تود ان تقيم الدنيا وتقعدها بحثا عني .. وانا محتار .. فالى اين المصير ؟ وما هي النتيجة ؟ » .

وناء كاهله بهذا العبء ، وبرم برما شديدا ، ولكنه رأى انه مكره على العودة دون ابطاء . وهكذا استقل القطار في طريق العودة .

* * *

قبل ان يذهب فرونسكي في سبيله مغضبا ، عقب المخاصمة التي شجرت بينهما ، شعرت آنا انها ان استمرت تخلق المتاعب كلما اعرب عن رغبته في السفر ، فسيأتي ذلك الوقت الذي تفقده فيه الى الأبد ولهذا عزمت عزما اكيدا على ضبط مشاعرها وكبح جماح غيرتها .

بيد انه ما كاد يغادرها في ذلك اليوم ويودعها بتلك اللهجة الجافةوينظر اليها تلك النظرة القاسية حتى استعر نار جفونها ، فلم تقو على كتمان ما بها بل ذرفت دموعا غزيرة .

وايقنت ان نظرته كانت صرخة تمرد ــ فهو يسترد حريته ، وهو يصر على استعادتها .. وله ملء الحق فيها :

واستعرضت في مخيلتها ما جرى بينهما ، وما وقع ؟ ثم مرت بتفكيرها على كل صغيرة وكبيرة من تصرفاته معها في الاونة الاخيرة ، ان حبه لها قد ذاب .

وشغلت نفسها بامور كثيرة حتى لايمضها التفكير ، وتعاطت كميات كبيرة من المورفين المخدر اثناء الليل حتى يخف المها تحت تأثير هذا العقار اقر رأيها اخيرا ان تفعل المستحيل للحصول على الطلاق من زوجها ، فهذا اسلم سبيل .

ومضت الايام ولم يرجع فرونسكي ، وانقضت ستة ايام ، فطارت نفسها ولما اصابت طفلتها الحمى انهمكت في العناية بها ، بيد ان ذلك لم يشغلها عن قلقها وتوجسها .. وما عتمت ان كتبت له رسالتها المقتضبة

ولما جاءها الرد في اليوم التالي ، وفيه اعتذار رقيق ، واسباباوجبت تأخره ، خالجها شعور بالندم شديد واشفقت ان يقذفها لدى اوبته بتلك النظرة المخيفة التي رمقها بها يوم سفره .

واحست انا وحزنها بتكالب انها امست حملا ثقيلا على عاتق فرونسكي بل كابوسا شديدا يضغط على صدره باستمرار .

بيد انها لم تقم وزنا كبيرا لهذا الامر . بل جلست في تلك الليلة الموعودة وقد تزينت بابهى حللها واقبلت على كتاب تقرا فيه ، وهي تصغي لادنى حس ويخيل اليها كلما حرك الريح بابا ان فرونسكي قد وصل ، فتهب واقفة ، ويتصاعد الدم الى وجهها !

وجاء اخيرا ، فارتعد بدنها ، وانبهر نفسها ، وخافت من لقائه ، كما خافت من فراقه .. ونقمت في قراراتها على الطفلة ، فقد استرجعت صحتها بسرعة ، وربما ادخل ابلالها الريبة الى قلبه ، فنسب اليها انتحال الاكاذيب لحثه على العودة فلما سمعت صوته يحدث الخادم ، زايلها شعور اخر الا شعور الحب والشوق ، فهرولت اليه ، وهتفت باسمه محتفية .

وسالها قبل ان تدنو منه عن الطفلة ، فصدمها السؤال ، فقد كانت تود من صميم فؤادها ان يسالها قبل كل شيء عن نفسها وعن حبها .

ولحظ هو خيبة الامل التي ارتسمت على اماراتها ، فتدارك الامر وسالها عن حالها . فانبسطت اساريرها ، وتناولت يده ووضعتها على قلبها .. فادرك ما تعنيه ، وابتسم وقال :

« هذه من دواعي جذلي يا انا ، ان قلبك يخفق لي ! » .

ورمقها بنظرة متاملة متفحصة ، فخيل اليها ان في عينيه للجا ... واقشعر جلدها ، وارتعدت فريصتها .

ولم ير هو ما اصابها ، بل مضى ينظر الى صغيرتها ، ووجهها وهندامها ولم يسعه الا الاعتراف بانها اجمل النساء واكثرهن فتنة .. ولكن ، الم يملها ؟ الم يبرم بالحياة معها ؟

على انه اعترف فيما بينه وبين نفسه انه لا يزال كلفا بها مولعا بشخصها .. ولهذا استجاب لداعي المتعة ، فقضى معها هزيعا من الليل .

وسر فرونسكي ، ورجع اليه كثير من حبه لانا ! بيد انها حطمت في لحظة ما بنته في ساعة ، فقد سالته عن وقع كتابها على نفسه وهل اغضبه فيه لهجة صارمة او كلمة نابية !

وقطب فرونسكي ساعة حدثته انا بمثل هذا الكلام ، واعترف بانه اشمأز من الكتاب ، وانه اعجب للتناقض الوارد فيه ، فهي تهيب به في اوله ان يرجع لان ابنته مريضة ، ثم تخطره في نهايته بانها قادمة للبحث عنه ان تخلف !

وشعرت انا بالكآبة ـ انه لم يصغ عنها ـ وعجلت تقرر : « ولكن الطفلة كانت مريضة » .

قال : « ولا شك في هذا ابدا ! »

قالت : « بل ترتاب وتظن بي الظنون ! »

قال : « كلا .. كلا .. انما انا احيانا آخذ عليك تشبثك بامور صعبة التحقيق ـ فثمة واجبات تقتضي التفرغ لها ولكنك لا ترغبين في ان اقوم بواجباتي ! غير اني ارى ان نقصر الان ونكف عن هذا الكلام ! »

ولماذا نفعل هذا ؟ لماذا لا نتحدث فنفهم ما استعصى علي الفهم ؟ » .

وقد اضطر الى السفر الى موسكو ، فاذا حصل ذلك ثارت ثائرتك .

فلم ذلك لماذا لا تكبحين جماح انفعالك ؟ الا استطيع ان اتمتع بحريتي ؟ » .

« اراك سئمت الحياة معي ، وها انتدا تنسج على منوال غيرك ، فتنتحل الاعذار لتسافر ! » .

« اشرعت من جديد تلصقين التهم بي انا ؟ »

« واعلم اني مرافقتك الى موسكو ان حدثتك نفسك بالسفر ! »

« في هذا سروري كله .. بيد ان علينا قبل كل شيء ان نسوي الامر .. نسويه بحيث ... » .

فقاطعته : بحيث تستقيم الحياة اليس كذلك ؟ ساسعى الى تحقيق الارب الاكبر ، ساكتب الى كارنين في امر الطلاق .. اما الان فثق اني ذاهبة معك الى موسكو ! » .

« ولم التهديد ، الا تعلمين اني اكثر منك رغبة في ذلك ؟ »

وابتسم والتمعت عيناه .. ولم تكن نظرته جامدة في هذه المرة بل انطوت على شيء يفوق الجمود والبرود ، شيء يتعداهما ويبدهما .. انطوت على كراهية انسان لآخر ـ كراهية منشؤها الاضطهاد والاسراف في الاضطهاد .. بل منشؤها التنكيل بالمشاعر والاحاسيس !

ورات عينيه ، رات ما انبثق منهما ، فالتاعت وارتاعت .. وفهمت ان الحظ ولى الى غير رجعة .

ولكنها كتبت الى زوجها تطلب الطلاق .

وفي اخر نوفمبر سافرت مع فرونسكي الى موسكو .. وعلقت تنتظر رد زوجها بفارغ الصبر .

وعاشا في منزل صغير في موسكو ولبثت انا تمني النفس وتعللها بالفرج القريب .

علقت تحصى الساعات والايام . علقت تحلم في اليقظة كالمنام .

ورات نفسها زوجة لفرونسكي . ورات نفسها كما كانت من قبل .

معززة مكرمة مبجلة !

شاء القدر كما علمنا ان يعقد ليغين على كارين .. ومع ان الفتاة

اغرمت بفرونسكي ، الا ان هذا القدر العجيب ابى في اخر لحظة أن يجمع بين فرونسكي وانا ، فمهد بذلك لليفين طريق السعادة والتوفيق .

وحملت كاترين وحان وقت الوضع ، فغادرت المزرعة مع زوجها الى موسكو لتكون قريبة من امها ، وليشرف عليها طبيبها الخاص .

والتقت ذات ليلة بفتى احلامها الاول ـ فرونسكي ـ في بيت صديقة لها ... فلم يبدر منها ما ينم عن انفعالها ، بل حيته وصافحته بهدوء وثقة كما لو انها صادفته لاول مرة في حياتها ..

وشاءت الصدف ان تجمع في ليلة اخرى بين فرونسكي وليفين وستيفان اوبلنسكي شقيق انا . وكان ليفين في تلك الليلة كريما سمحا .

وقد اقبل ستيفان يحدث فرونسكي ويساله عن شقيقته ، ثم عطف على ليفين يقول متسائلا : « او لم تجتمع بعد الى شقيقتي انا ؟ الم تحدثها في حياتك ؟ » . فاجاب ليفين : « كلا ، وهذا لسوء حظي » .

ونهض فرونسكي وهو يقول : « فلنذهب اليها اذن ، ستسر بمقدمنا » .

ولكن ليفين احس ببعض الندم عندما استقل العربة مع صاحبيه ، وتساءل عن وقع هذه الزيارة على زوجته ، وتساءل ان كانت زوجته تقره على عمله متى اخبرها بذلك ..

وكان اوبلنسكي فطن الى ما اعتمل في قلب ليفين فسارع يقول حتى يصرفه عن هواجسه : « ان من دواعي فخري ان تجتمع الى شقيقتي انا ، وما اكثر ما طلبت داريا مني ان اجمعك بها ، انها امراة مدهشة ، ذكية ، جميلة ولا شك في انك ستعجب بها بالرغم من آلامها واسقامها ، وبنوع خاص في هذه الايام ! « ماذا تعني بقولك ؟ »

« اعني انها تكابد الامرين في السعي وراء غايتها وبلوغ وطرها واقناع زوجها بمنحها حريتها .. لقد وافق كارنين ، الى ان العقبة الكاداء القائمة الان هي ابنها سيرج .. وما من سبيل كما ارى الى تمهيد الطريق ، وحل العقدة العسيرة .. ان انا لن تعتم ان تتزوج من فرونسكي متى صودق على طلاقهما ، ولكن هذا امر يطول ، فالاجراءات مضنية هنا ، وتتمطط .. بل اكاد اقول انها تتثاءب مع الزمن .. على ان الامور ستستقيم عقب انتهائنا من هذه الاجراءات » .

« انها تنتظر الطلاق وتعمل من اجله كما قلت ، فماذا يرمضها اذن ، وماذا يثقل عليها ويكظها ؟ » .

« الناس يا صديقي .. فالانسان مداهن متانق ، ولق ان اعز صديقة لها قد تخلت عنها في محنتها .. ولهذا آثرت انا الاحتجاب والانزواء » ..

« وما قولك بطفلتها ، اهي متفرغة لها ؟ » .

« كل التفرغ ، ترعاها رعاية حسنة وتنشئها افضل تنشئة .. ثم اعلم انها اديبة وفنانة ، وهي منكبة في هذه الايام على تاليف بحث ضاف عن الطفل والعناية به .. » .

ونظر اوبلنسكي مليا الى ليفين ، واستانف :

« لا تسخر من قولي ، لقد قدمت نسخة مما كتبته الى اشهر اديب في موسكو ، الى « فوركيف » فابدى اعجابه ، وحث آنا على اتمام الكتاب في اسرع وقت مستطاع .. لقد اخبرني هذا الاديب ان انا امراة ذات قلب كبير ، واعقب يقول : ان القلب الكبير عماد الادب والفن ! » .

« وهل تبغي انا المضي في طريق الكتابة والتاليف ؟ » .

« اراك مسرفا في عدم التصديق ، الا فاعلم ان كل كلمة قلتها لك هي الحقيقة» . وبلغت العربة الدار فترجلوا . وسال ليفين نفسه مرة اخرى وهو يعبر الدهليز ان كان مجيئه عملا لا غبار عليه .

ونظر في مرآة كبيرة الى وجهه ، فبهت مما رآه من احمراره .. وتقدم في الدهليز ثم انثنى وراء اوبلنسكي وفرونسكي فصعد في درج عريض فرش بالبسط . ولما وصلوا قاعة استقبال متوسطة الحجم ، سال فرونسكي عن انا فاخبره الخادم انها منهمكة بالحديث مع « فوركيف » ناشر كتابها .

وتوجه الثلاثة الى المكتبة . ولكن ليفين لم يدخل وراء فرونسكي وستيفان اوبلنسكي ، بل جمد في مكانه ساعة لمح رسما كبيرا معلقا على الحائط ..

نظر ليفين مشدوها الى الصورة الزيتية الرائعة ، وكانت لانا ، وقد ادرك ذلك .. وكان احد فناني ايطاليا قد رسمها اثناء اقامتها هناك . وعلق ليفين طرفه في الصورة ولبث يحدق فيها ، وكان جاذبا ممتعا تيه لحظه ..

وكانت الصورة تنطق وكانها شخص من لحم ودم .. كانت الصورة لسانا يتكلم ويشرح .. وكانت كأن الحياة تنبعث منها .. ونقل ليفين طرفه من الوجه الى العنق الى الذراعين .. وآمن ساعتئذ انها اجمل من وجد من النساء ، ان كانت نسخة صادقة عن صاحبتها ..

وطرقت سمعه ضحكة خافتة ، فاجفل وانثنى ينظر .. وراى في تلك الوهلة صاحبة الصورة ، راى الحقيقة متجسمة في جسد حي ـ فيا للفتنة! انها فاتنة حقا . واحنى لها هامته باحترام وتبجيل ، وآمن انه لم يرتكب خطأ بقدومه !

ومدت انا له يدا ناعمة رخصة ، وصافحته بلباقة ، ثم تكلمت معه بضع كلمات .. وما لبثت ان قدمته لصديقها الكاتب .

وايقن ليفين مما لاحظه من حركتها واشارتها ،انها خير امراة تستطيع ان تتصرف وتتكلم ، انها مثال رفيع لطراز ارفع من النساء !

وسمعها تقول بصوتها الحلو الموسيقي الجرس . « هذا شرف عظيم.. قدومك افرحني ، فاهلا بك وسهلا .. لشد ما انا مغتبطة ! واصدقك انني سمعت بك وعرفت شخصيتك منذ فترة من الزمن » .

* * *

وكانت انا اثناء ذلك تنظر الى ليفين تتحول بناظريها الى اوبلنسكي وفرونسكي . واصغى ليفين ، وزالت هيبته ، وشعر كانه يعرف المراة الفاتنة منذ سنين وسنين ... وانبسطت اساريره فاصاح لها معجبا منشرحا .

وقال اوبلنسكي موجها الحديث الى ليفين :

« وما رايك في هذا الرسم الزيتي يا صديقي ؟ »

فالتفت ليفين اليه ، ثم حدد طرفه ثانية في الصورة ، وما ابطا ان قال:

« الحق يقال انها لوحة قلما وجد مثلها في ارتفاعها وروعتها وطول باع راسمها .. لا سيما والشبه عظيم الى درجة مذهلة بينها وبين الاصل !».

واستدار نحو انا وجعل يحدق في محياها وكانه يود ان يلتهم هذا المحيا بعينيه ! وتشعب الحديث . ودهشت انا ، واعجبت بالرجل ، وبان ميلها بوضوح في اساريرها . .

وغاب عن ليفين ما كان يخشاه ، ولم يعد يذكر الا شيئا واحدا — لم يعد يذكر الا وجوده مع هذه الالهة ..

واستاذنتهم انا في الخلوة بعض الوقت بشقيقها فدلفوا الى القاعة ، وذهبت هي مع ستيفان الى مكان اخر . .

وتساءل ليفين عما يتحدث الشقيق مع شقيقته . اترى تحدثه عنه ؟ ام عن فرونسكي حبيبها ؟

ثم اجتمع شملهم ثانية ، وتناولوا سوية شراب الشاي الساخن ،وكان ليفين طيلة الوقت يتامل في انا ولا يود ان يرفع عينيه عنها ..

وقد لام نفسه على ما تهور فيه قبل اليوم من اصدار الحكم القاسي على هذه المراة الراجحة العقل وجعل يبرر عملها في باطنه ويخلق لها المعاذير بل انه احس بالشفقة عليها، وود من صميم قلبه لو استطاع ان يعد لها يد المساعدة.

وذهب الاصدقاء بعد ساعة . وصافح ليفين انا فاستبقت راحته في يدها، وضغطت عليها قليلا، ثم اطلقتها وقالت وعيناها تنطلقان بما يخالج صدرها:

« لقد ادخلت على قلبي المسرة والامل يا سيدي ، واصدقك ان قدومك كان كقطر الندى ! وارجو منك ان تصف لزوجتك العزيزة حبي وتقديري واعجابي .. بلغها رايي فيها ، واخبرها ان لم تجد في نفسها المقدرة على

نسيان ذنبي وزلتي ، فلن الح عليها بوجوب ذلك .. لان الانسان ما لم يمر بظروف قاسية كالتي عرضت لي في حياتي ، فلن يقدر قيمة المغفرة ، ولن يعلم انه يتحتم عليه ان يغفر ! » فطأطأ ليغين راسه واجاب بصوت رقيق

« لن انسى قولك ، وساتقل كلماته اليها يا سيدتي ! » .

واستمع فرونسكي ولاذ بالصمت .. واستمع وراى ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، وكان يفكر ، وكان يمعن في الفكر ، وكان يحدق ، وكان يطيل التحديق .. ولم يعلم احد ما كان يجول في ذهنه ، وما كان يراه بعينه !

ولما خرج ليغين واوبلنسكي ، صحبهما فرونسكي دون ان يعا بنظرة انا الغضبى المتسائلة !

* * *

استقل ليغين عربة بمفرده وتوجه الى بيته .. وشخص الى الامام ، وكانه يرى في ظهر الحوذي امورا كثيرة !

وطفق يردد وهو يفكر : سقيا لها ... « انها امراة رائعة ، بل انها ضوء باهر ! نادرة المثال ـ جوهرة فريدة يتيمة ! » .

واستعاد ما قالته ، وافمض عينيه وجعل يتذكر صوتها العذب ويقارن بينه وبين لحن موسيقي يضربه فنان على الوتر ! واشفق عليها .. لقد لامها فيما سبق ، اما اليوم فهو يحنو عليها ويرثي لحالتها .

وترجل من العربة امام بيته . ولما دخل اجفل مما رآه من اضطراب زوجته وقلقها . وقد اخبرته وهي مطبقة منفعلة انها انتظرت حضوره طويلا دون جدوى .. وتفرست امائره ، فرابها فيها انبساط عجيب ، كما رابها من نظرته ومضة خاطفة تائي وتذهب ، وكانها الفكر الطارىء يلم بالفعل على دفعات ! وما عتمت ان قالت : « واين كنت ؟ اين قضيت هذا الوقت ؟ » .

وصمتت حتى لا تخيفه ، ثم ابتسمت مشجعة ، وكانها تطمئنه وتحثه على الاعتراف ! ولم يكن منه الا ان اطلعها على اجتماعه بفرونسكي ، وما تبادلاه من حديث ، ثم اجتماعه باوبلنسكي ، والحاح الاخير عليه بالذهاب معه الى منزل انا .. وتصاعد الدم الى وجهه عنا ذكر الاسم ، وايقن في تلك اللحظة انه ارتكب خطأ فاحشا بذهابه الى ذلك المنزل .

وجحظت عينا كاترين ، وحدجته بنظرة نارية ـ لقد ذهب اذن الى منزل انا كرنينا .. واستعادت المراة الادبية رباطة جاشها في صدرها ، ورمقته بنظرة هادئة وكانها تقول : « استمر .. استمر .. قل كل شيء ! »

واستطرد ليغين : « وانا اذ لبيت رجاء ستيفان اوبلنسكي ، كنت على يقين من انك لن تغضبي ، لوثوقي من رجاحة تفكيرك واعتزازي بركونك الى والى حرصي وشرفي وحبي .. » . قالت : « وكيف الفيتها ؟ » .

قال : « انها على جانب كبير من الحسن والدماثة .. انها شقية وارثي لها من كل قلبي » .

واقاض في شرح المقابلة ، ثم حدثها عن الصورة الرائعة ، وعن الشبه العظيم بين الاصل والتقليد .. وما لبث ان نقل اليها كلمات انا لها ..

وقالت كاترين بعد فراغه من حديثه : « اجل .. انها امراة طيبة ، ولكنها كما قلت ، تستحق الرثاء والشفقة ! »

ولما اركن ليغين الى عودة المياه الى مجاريها ورأى من زوجته اتزانا ، قبلها في جبينها ودخل الى مخدعه ، فخلع ثيابه واستبدلها بملابس النوم.

وعاد ادراجه فدنا منها . ولكنه اجفل مما رآه في عينيها . فتريث وحاول ان يتكلم ، غير انها تململت في مكانها ، وبكت !

ولهفت نفس ليغين ، فاقبل عليها يقول :

« على رسلك يا كاترين .. ما الم بك ؟ لم تبكين ؟.. »

فاجابته وهي لا تزال تشرق بمدامعها :

لقد وقعت في حبالها .. في حبائل انا ـ تلك المراة الشيطان .. تلك الانثى التي خلعت العذار وارتكبت المعاصي !

فصاح ليغين بصوت متوهج .. اقلعي .. اقلعي .. بالله عليك ان تكفي عن كلام لا طائل تحته ! » قالت : « اجل ، لقد كلفت بها وشغفت ، واني اقرا ذلك في عينيك ، اني ارى كل شيء .. ولا اجد مندوحة من السفر ، سأسافر غدا ، سأرجع من حيث اتيت » !

ومضت الساعات ، وعادت المياه الى مجاريها بين الزوجين ، ونامت كاترين قريرة العين مطمئنة الى زوجها واخلاصه . ونام هو دون ان يفكر بشيء ..

اما في الصباح ، فاستفاقت كاترين وقد جاءها المخاض . ووضعت مولودا ذكرا وطارت نفس ليغين فرحا ، ونسي انا ، ونسي كل شيء يتعلق بها ، وما عاد يفكر الا بوليده ، بابنه ..

* * *

ابتسمت انا ساعة انفردت بنفسها ، فقد فهمت من نظرات ليغين وكلماته انه وقع في حبائلها ، فسرت واغتبطت ـ فهي اذن ساحرة كما كانت في كل حين ، والا لما تسنى لها التأثير على ليغين والسيطرة على حواسه ومشاعره .

فلما ذهب نسيت امره ! ونشأت تناجي نفسها وتقول : « ما دمت مالكة فتنتي وسحري ، وما دمت متمكنة من قوة تأثيري على الرجال ، سواء منهم العزاب والمتزوجون ، فلماذا اشعر بفرونسكي يتحرر ـ رويدا رويدا من قبضتي ! انه يحبني ، ولا اشك في حبه قط . »

ودمعت عيناها . ولكن قرع الباب ارجع اليها نفسها الشاردة ..

لقد قفل فرونسكي راجعا ـ وجففت دمعها على عجل ، وتصنعت

الانكباب على القراءة ، حتى لا يلحظ شيئا من حيرتها وحزنها ، وحتى لا يفطن الى حقيقة مشاعرها . وبعد ان حياها ابتدرها بالسؤال عن رايها في ليفين ثم اقبل عليها يحدثها عن مغامرة الامير ياشفين في النادي .

فانقبضت اساريره واجاب : « انا حر في ما افعل يا انا ، فلا تحاولي المكث معه الكي تتاخر عن الاوبة ! الكي تتركني وحيدة لا يؤنس وحدتي انسان ! »

فانقبضت اساريره واجاب : « انا حر في ما افعل يا انا ، فلا تحاولي ان تقيدي حريتي ! »

وراجع نفسه فابتسم ، وكانه ينبغي وضع حد للمشاجرة التي بدت طلائعها فمد لها يده ، ودنا منها .. فسرتها حركته ، ولكنها انكمشت على نفسها متجهمة ، وكان نفسها ظمئت الى الشجار ، او كانها ارتضت على تبادل التهم وتاجيج نيران الخصام !

ولما رأى ازورارها انثنى الى ناحية بنظره وجسده ، حتى لا ترى ما كسا وجهه . وعادت انا تقول بنفس اللهجة العاتية العاذلة :

« انت حر ، لا شبهة في ذلك ، ولكنك اخذت في المدة الاخيرة تنتهز كل فرصة لتذكيري بحقك في حريتك ! »

وصمتت وكانها تستعيد درسا ، واستانفت بعد قليل : « انت عنيد ، وهذا ما يعكر صفو الجو بيننا .. »

واخفت وجهها في راحتيها وهي تنتحب .. وثار شجنه ، وتلمح حزنه ، فهم بها يتودد اليها ويربت على ظهرها ، ويقبلها . وما عتم ان قال:

« انني لك محب صادق ، ولا ارغب في مغادرة المنزل ، تفي معا اقول يا انا ، واطمئني الى حبي ! »

قالت : « لست في شك من اخلاصك ، غير ان هنالك اشياء اخرى .. »

فهتف متبرما مللا : « استحلفك بالله ان تطلعيني على كل شيء .. اطلعيني على ما يخلق بي عمله ، اطلعيني على ما تسكن له نفسك وتقر روحك .. اني على تمام الاهبة للقيام باي عمل تكمن فيه سعادتك وهناؤك .. ويكون فيه خلاص لك من بلبلتك وقلقك ! »

قالت : « ارجوك ان لا تضطرب ، فانا مخطئة بتسرعي ، وقد اثرت علي حياة الوحدة والانفراد .

وتناهى شعور انا بالحزن .. انه اضحى اكثر برودا وجمودا من ذي قبل ، انه يتكلم معها ويفكر بامر آخر .. لقد افلت من قبضتها ، وتلاشى حبه ، وخسرته .. خسرته .. وايقنت والاسى يحز في صدرها ان النهاية بدات منذ الليلة ، لقد بدات نهاية حبها ، ولعل حياتها قد ازفت ايضا !

* * *

الشقية المعذبة .. بدات تتذوق ثمرات خيانتها لزوجها .

التاعسة العاثرة الحظ .. طفقت ترمض على اوار .. انا كارنينا المراة الفاتنة .. رات الآن انها تنحدر ..

وتدهورت حالة ستيفان شقيق انا ، واصبح على شفا الافلاس . ان مرتبه كبير يسيل له اللعاب ، ولكنه لا يكفيه ويكفي عائلته .. والغاية التي يملكها لم تعد تدر عليه المال الكافي ايضا ، فقد اصرت داريا زوجته على اخذ حصتها من الريع . لهذا لم يبق له مخرجا من مازقه الا الترجه الى بطرسبرج والسعي لدى اولي الامر ، عله يظفر بزيادة في مرتبه تسد تلك الثغرة التي لم تفتا تتسع على مر الايام .

واصغى بعد ذلك بصبر وجلد الى تقرير معلول تلاه كارنين على مسمع منه عن الازمة الخانقة التي استفحل امرها في البلاد واستشرى شرها .

وما عتم ان انتهز فرصة انقطاع كارنين عن الكلام حتى بادره قائلا :

« ثمة مسالة اود ان احدثك عنها ، وانت تعرفها ، انها بخصوص انا اختي » :

وصمت ستيفان وتامل كارنين ، فشاهد ما شابه من الشدل العجيب ساعة طرق سمعه اسم زوجته .. شاهد الحياة تفر من وجهه شاهد اماثره تختلج ثم تجمد ، وكانها تموت .

وقال الزوج الملهوف بصوت عميق حزين :

« وماذا تريد مني ؟ قل ماذا تريد ؟ »

اريد تسوية فاصلة باتة ، تسوية تضع الامور في موضعها ، واني اضرع اليك لا بصفتك سياسيا ووزيرا خطيرا ، بل كرجل طيب القلب ، كمسيحي لا يخلو قلبه من كلمة المغفرة والصفح .. كرجل يشفق على امراة خاطئة ، ويساعدها . »

« وباي طريقة يمد لها مساعدا ؟ »

« لو شاهدتها ، لرثيت لها ، ولبكيت حزنا عليها .. انها معذبة ، معذبة يا صديقي . »

« خيل الي انها تنعم في احسن حال من العيش ، افلم تنل ما صبت اليه نفسها افلم تظفر بمبتغاها ؟ »

« اقصر يا كارنين ، وجنبنا كلاما لا طائل تحته ، جنبنا التقاذف بالتهم فما مضى قد انقضى ، وانت ادرى من سواك بما تنشده انا وتبغيه ، انت تعلم انها تريد الطلاق ، فامنحها وطرها ، انلها ما تصبو اليه نفسها ، لا تقف حجر عثرة في طريق سعادتها ! »

ان انا كما اعتقدت ابت الطلاق ورفضته ، ورفضها سبب عن اصراري على الاحتفاظ يا بني ، وهذا ينهي المسالة . »

وتحرك في مكانه حانقا مغيظا .. وسارع ستيفان يقول :

« لا .. لا .. ارجوك ان تتذرع بالحلم يا صاح، فالمسالة لم تنته بعد، واذا اصخت لي اطلعتك على الحقيقة وعلى رأيي .. لقد انفصلتما عن بعضكما البعض واظهرت انت رغبتك في الطلاق ، واحتفظت هي لك في قلبها بالشكر والثناء بل ان علو نفسك آذاها في شعورها بانخفاض نفسها فانكفأت وعاشت في معزل عن الخلق . بيد ان الايام ، والخبرة اظهرا جليا ان حالتها لا تطاق . »

فرد عليه كارنين بجفاء واقتضاب :

« لا ابه لها .. لا احفلها فحياتها ـ حياة انا شقيقتك لا تعنيني في قليل او كثير ، حياة انا لا قيمة لها في نظري ! »

قال : « ذرني اصارحك بعدم تصديقك .. اني لا اصدق قولك ! ان حالتها لا تطاق انها بالعلقم ، وشقاؤها لا يفيد احدا . هي تستحق كل ذلك وتعلم انها تعاقب على ما جنحت اليه ، ولذلك لا تطالبك بشيء ، وتجهر بانها لا تجسر على مطالبتك باي امر من الامور .. ولكن.. انا كلنا .. جميع ذوي قرابتها .. محبوبها .. فلا تتركها لوحدها وافعل ما من شأنه ان يخفف عنها عبء خطيئتها ! »

فقاطعه كارنين قائلا : « يتراءى لي انك تعمل بموجب خطة حتى تشعرني باني المخطأ المذنب ! »

فهتف الآخر : « اواه ! كلا ، كلا .. اني لا افعل ذلك ، وحاشا ان افعل ! فافهمني ، ارجو ان تستوعب كلامي ـ ان ما ابغي ايضاحه لك هو ان حالتها امست ميئوسا منها ، وانك الانسان الوحيد الذي يسعه ابعاد الموت عنها ، ولن تفقد شيئا ان فعلت ، وانك لن تضار ان عمدت الى انقاذها من براثن الاسى واليأس . »

فقال كارنين : « لا انكر ما ابرمت على نفسي ، بيد ان ذلك جرى منذ مدة طويلة ، وكنت اظن ان مسالة ابني قد قررت الامر وبتت فيه .. وبجانب ذلك كنت اظن ايضا ان انا سمحة كريمة ... »

وصمت كارنين بغتة ، وتقلصت عضلات وجهه ، وعض على شفته .

وقال ستيفان : « انها تترك الامر لكرمك انت ، انها تفوض مستقبلها اليك .. اي الكسيس كارنين : انت نبيل كريم ، انت انسان تحتفظ بقلبك، فضع نفسك في مكانها لحظة واحدة ـ ان مسالة الطلاق بالنسبة اليها ، هي مسالة حياة او موت .. ولو انك لم تبد استعدادك لحلها من رباط الزوجية، لما قفلت راجعة الى المدينة ، ولظلت في الريف .. ولكنك وعدتها ، وقد بعثت اليك برسالة ثم جاءت الى موسكو . وها هي الآن تعيش هناك ، وتنتظر على احر من الجمر كتابا منك يضع حدا لاسقاطها ..

ومثل انا في حياتها ، كمثل محكوم بالموت ، وضع الحبل في عنقه منذ ستة شهور ، ولا يزال موضوعا .. وهو لا يعلم مصيره ، يقولون له : لقد عفونا .. ثم يقولون : لا .. سوف تموت موتا ابديا ! فكن رحيما يا الكسيس اشفق على هذه المحكومة ، وثق من مقدرتي على وضع الامور في مواضعها ! »

وقال الكسيس كارنين باشمئزاز : « دعك من هذا الكلام .. ولعلي وعدت بما لا يحق لي ان اعد به ! »

« قال فانت تنكث بالوعد اذن .. انت تتراجع منكصا ! »

قال « لم ارفض مطلقا ان افعل كل ما هو جائز ممكن ، بيد اني اود ان افكر واقلب الراي ! »

فوثب ستيفان من مكانه ، وهتف : « كلا .. لا اصدق انك انت الذي تتكلم ! انها شقية ، كاشقى ما تكون عليه امراة تاعسة ، ولا يسعك الرفض، لا .. »

قال : « لن ارفض بقدر طاقتي ؛ ولكني كمؤمن يخاف الله ويهتدي في حياته بتعاليم الدين ، لا استطيع ان انهج نهجا مناوئا للدين معارضا لتعاليم الانجيل ، منافيا لحكمة السماء ! »

« بيد ان مجتمعنا يوافق على الطلاق ، كما ان الكنيسة ترى احيانا ان الموافقة خير من المعارضة ! »

« ان الطلاق مقرر ، ولكن ليس بالمعنى .. ليس بالمدى .. »

اف ! انت غيرك اليوم ! الم تكن انت الذي عفوت وغفرت ؟ الم تحمد فيك هذه الخلة ، وتكبر علو نفسك وشهامتها ! الم تعرب عن استعدادك للتضحية بكل شيء في سبيلها ؟ الم تقل وانت تخفض راسك احتراما ومهابة: ـ اذا اخذ انسان سترتك ، اعطه عباءتك ؟ والآن .. »

فعارضه كارنين بسرعة وقال : « ارجو .. ارجو منك ان تكف عن هذا القول .. » وانتصب واقفا ووجهه ينضح بالالم الهائل والم :

« ارجوك ان تنهي هذا الكلام .. فانا لا اتحمل المزيد .. لا »

وهتف الآخر ، وقد اخافته حالة كارنين : اواه ! اصفح عني اتكات جراحات قلبك .. »

ومد يده اليه متوسلا واستتلى : « اني رسول .. مجرد رسول .. وما علي الرسول الى التبليغ ! ولا مندوحة لي من اطلاعك على كل شيء ، حتى تكون على بينة من امرك ، وحتى تفعل الواجب »

وصافحه الكسيس كارنين ، وتردد هنيهة وقال : سافكر في الامر ، وساحاول ان اجد الهدى والرشاد .. وبعد غد اعطيك قراري الاخير ! »

ثم بنس ستيفان اوبلنسكي واجبات نفسه حين انهمك في بطرسبرج في مشاغله الخاصة ، وفي مسالة طلاق شقيقته من زوجها ..

لم ينس ان لجسمه حقا عليه ، لهذا اسلم نفسه بعد ان انتهى من مقابلة كارنين للخمر ، فعاقرها ، ثم ذهب مع بعض الاصدقاء الى حانة يجتمع فيها رهط من العشاق ، فجلسوا واستمروا يشربون ويقصفون الى ساعة متأخرة .

وقضى سحابة النهار التالي وهو يتنقل بين منازل معارفه ، فيتكلم معهم تارة عن انا ومشكلتها ، وتارة اخرى عن مشاكله ومطالبه ان توسم في اهل المنزل الذي يزور ، المقدرة على اسداء العون !

ولم يسأم حديثه احد ، فهو لطيف دمث ، وهو محدث ذلق اللسان، وهو يعرف من اين تؤكل الكتف .. وفضلا عن ذلك فالجميع يعرفونه ، ومعظمهم ينتمي اليه بوشيجة من القرابة ..

* * *

لكي تسير حياة زوجين نحو الاتفاق التام او الفرقة الدائمة ، يجب ان يكون هناك اما انقسام كلي بين الزوج وزوجته او انسجام واتفاق وئام ..

وكثير من العائلات تبقى لسنين عديدة ملازمة لوضعية واحدة مع ان الرجل وزوجته يشعران بأن العلاقة بينهما يجب ان تنحل ..

ولقد احس فرونسكي وانا بان الحياة في موسكو شر لا يطاق في فصل الصيف ، لان الحر خانق ، والغبار يملأ الدنيا والهواء فاسد ، ثمن ، ولكنهما رغم شعورهما بجحيم موسكو لم يرتحلا عنها ، بل لازماها ، ومكثا فيها ، وما مكثهما وبقائهما الا لاتساع شقة الخلاف بينهما ، وتصدع بناء الالفة ، وانهيار اسس المودة والمحبة ! اما المرارة المتبادلة بين احاسيسهما، والتي مزقت شمل حبهما ، فلم يكن لها اي سبب ظاهر ، وكل سعي بذل احدهما لاحلال التفاهم محل التنازع باء بالفشل .

كانت انا ترى ان فرونسكي كله ـ برمته ـ بعاداته ، وآرائه وافكاره، ورغباته ومزاجه الروحي والنفسي والجسدي ـ يمثل شيئا واحدا فحسب ـ حبه للنساء ، وان هذا الحب يجب ان يتركز فيها هي وحدها .. اما وحبه يضعف وينضاءل ، اما وغرامه تخمد جذوته ، وتنطفىء وقدته ، فهذا ولا جرم عائدا الى تقسيم قلبه ، ومنح جزء من حبه لغيرها من النساء !

واستمر اوار الغيرة في قلبها ـ ولم تنشأ غيرتها من امراة معينة ، بل كانت غيرتها من تناقض حبه لها .. ولانها تركز غيرتها على شيء معين ، فقد كانت تتمسك بكل شيء لتنتقل بغيرتها اليه .. فكانت كلمة واحدة تكفي لتحويل اتجاه غيرتها من اليمين الى الشمال !

فمرة نقمت على النساء الوضيعات اللاتي كان يقضي معهن بعض

اوقات الفراغ قبل تعلقه بها .. ومرة نقمت على نساء المجتمع اللاتي قد يلتقيهن .. وانها توصيه دائما بالتوجه بفؤاده ناحية الاميرة الحسناء « سوروكين » !

ونعق البوم في اعماقها ايذانا بحلول النكبة ، واوحت اليها الارواح الشريرة نيات الاستسلام الى الالم واليأس. وجردتها غيرتها من كل صبر .

واخذت تضع على عاتقه المسئولية كلها ، فهو المسؤول عن قلقها واضطرابها ، وهو المسؤول عن تأخر اجراءات الطلاق .. هو ، هو .. انه المسؤول عن كل شيء ! ـ عن عزلتها وبرمها .. عن تمنع زوجها وتردده.. عن ضيقها بموسكو .. فلو احبها كما احبها قبلا ، لشعر معها وحنا عليها ، وساعدها وانقذها .

ثم .. انه مسؤول عن بعدها عن ابنها سيرج ـ ابنها الذي اخذت كفة حبها له ترجح على كفة حبها لفرونسكي !

ووصل بها الامر الى حد جعلها ترى في لمحات حنانه القصار نوعا من الغش والرياء .. ولم تقلل هذه اللحظات التي كان حبهما فيه ينتعش بعد مرات من انفعالها وعصبيتها ، فهي ترى من خلال عطفه ومحبته ، ظلا من اعتداده ومرحه وثقته بنفسه ، لم تعهدها فيه من قبل واخذت الآن تحز في صدرها وتعفث في قلبها .

* * *

انتظرت انا عودته من حفلة اقامها له زملاء واصدقاء .. وكان الغسق يضرج الافق بنوره الارجواني ، والريح راكدة دافئة واريج الورود يعبق في الحديقة ويفعم رائحته الصدور .

انتظرت اوبته في حجرة مكتبه . وكانت تزرع ارض الغرفة جيئة وذهابا وتفكر بمشاجرتها الاخيرة التي وقعت بينهما في اليوم الماضي ، وتستعيد الى مخيلتها دقائقها واسبابها .. وايقنت لدى استعراضها للاسباب ، ان الموجبات تافهة لا تستحق الالتفاف .

ولما عاد بعد ساعات طويلة ، تجنب اثارة الموضوع من جديد .

وها هي اليوم تشعر بوحدة قاتلة ، لقد غادرها ومضى . رجع في ساعة الظهيرة . ثم لم يلبث ان انصرف ثانية ، بعد ان حياها مودعا تحية جافة لا تخلو من لهجة سخرية !

وشعرت بانها الملومة على ما حصل ، وكانت على نفسها ان تفعل المستحيل حتى تعود بينهما المياه الى مجاريها الطبيعية ..

وانشأت تحدث نفسها وتقول : « انا وحدي الملومة .. فانا منفعلة، عصبية ، حادة الطبع .. انا ذات مزاج ناري.. انا غيورة.. ولكني سائلاني

الامر ، وسنرحل سوية الى الريف ، فهناك استطيع ان احيا بسلام وسكينة ! »

واستعادت بغتة كلماته لها ، واتهامه اياها بالشذوذ وغرابة الاطوار ، وانشات تغمغم وهي تحرق على الارض :

انني اعرف ما يعني ، هو يعني اني اؤثر طفل غيره على طفلته ـ فماذا يعلم هذا الرجل من حب الام للطفل ؟ وماذا يعلم عن حبي لسيرج الذي ضحيت به على مذبح حبي له ـ لهذا الرجل انه لا يرغب الا في قهري وطعن قلبي !

« امستحيل علي الركون الى الهدوء ؟ اافلت زمام ارادتي من يدي ؟»

واغمضت عينيها « انه صادق ، انه شريف انه يحبني ، وانا احبه وقريبا يتم الطلاق . فماذا اروم غير ذلك ؟ بيد اني لا ابغي الا هدوء الفكر والوثوق من اخلاصه . هذا كل ما اطلبه ، وبعد ذلك لن الوم الا نفسي على كل حادث وكل شجار وخصام .. اجل يخلق بي لدى عودته ان اعترف له بذنبي ، ولو كنت غير مذنبة ، ثم اقنعه بالسفر غدا ، بالرحيل من هذه المدينة ! »

ولكي تهرب من افكارها ، امرت باعداد الحقائب تأهبا للسفر الى الريف .

ورجع فرونسكي في الساعة العاشرة .

واستقبلته انا بوجه طلق واسارير منبسطة . فتألقت عيناه بشرا ، فهو يحب ان يراها منشرحة ، وهو يخاف من الشجار ، ويمقت سوء التفاهم . ولما لمح الحقائب هتف محبورا : « ماذا ارى ؟ هيا ، هيا ، هذا جميل ! »

« وقالت ؟ نعم ، يجب ان تذهب ، اهناك ما يعيقك عن السفر ؟ »

قال : « انها امنيتي الوحيدة ، انتظريني ريثما استبدل ثيابي ، وسنبت في الامر . اامري الخادم ان يجلب لنا الشاي ! »

وغادرها الى حجرته .

وعندما استتب بهما المقام في القاعة الصغيرة ، طفقت تقص عليه حوادث يومها وكيف هبط عليها وحي السفر فابتاعت الحقائب ، واعدت العدة واتخذت الاهبة .. وستانفت جادة : «ولم الانتظار هنا ؟ لم الانتظار ؟ الا يتحقق الطلاق ونحن في القرية ؟ اني لا ارغب ان اسمع المزيد عنه، وليجر ما يجري ، فان تحقق الطلاق ، فنعم الخاتمة ، وان تعرقل ، فلا يحلق بنا ان نحني هامتينا استسلاما ويأسا .. الا توافقني ؟ »

قال : « اجل .. »

وتفرس في وجهها مضطربا قلقا ، وما عتم ان سألها عن موعد السفر.

فأجابت بسرعة : « متى .. متى .. غدا .. كلا ، بل بعد يومين ، فبعد غد تكون قد اكملنا الاهبة . »

قال : « لا بأس .. ولكن ، علي ان ازور امي بعد غد ، فقد وعدتها ان اعرج عليها يوم الاحد »

واصفر وجهه قليلا ، فقد ادرك ان انا ستثور الآن وتعكر صفوه . وكان قلقه الشعلة التي الهبت شكها . فتضرج وجهها وابتعدت عنه .. وفكرت بالاميرة سوروكين ، فكرت فيها وفي امه ، فهي تعلم انهما يقيمان سويا في ضاحية من ضواحي موسكو المتطرفة .

ولكنها كتمت ما خالجها وقالت متسائلة :

« الا يمكنك التعجيل بزيارة امك ؟ الا يمكنك الذهاب اليها غدا ؟

قال : « كلا ! فالاعمال التي كلفتني بها أمي لا تنتهي اليوم »

★ ★ ★

قالت : « فلن ترحل الى الريف اذن ! » قال : « لماذا ؟ »

« لن ارحل .. فان اردت ، فليكن ذلك يوم الاثنين ، والا .. »

« ماذا دهاك ! وما معنى هذا الكلام ! »

« لا معنى له في نظرك لانك لا تأبه لي ولا تحفل بمشاعري .. لانك لا تكترث بحياتي ، ولا تود ان تفهمني ! »

واحست بغلطتها الشنيعة .

وضاق صدر فرونسكي فقاطعها بصوت اجش : « هذا لا يطاق .. »

وانتصب واقفا ودنا منها ، فحدجها بنظرات صارمة صاعقة ؟ واردف يقول :

« علام تفعلين كل هذا ! لماذا تثقلين على قوة الصبر والايمان في قلبي ان لكل شيء حدود ، وللصبر والايمان ايضا حدود وسدود ! »

فهتفت مزمجرة : « وماذا تعني بكلامك ؟ »

ونظرت الى الكراهية الساخرة التي بدت في عينيه ، نظرة رعب وهلع

قال : « أعني ، أود ان اقول .. »

وتوقف وانه عدل عن فكرة وما لبث ان قال :

« ينبغي سؤالك عن شيء .. ماذا تريدين مني ؟ افصحي ، ابيني ! »

فقالت : « ماذا اريد ؟ او ما استطيع ان اريد ؟ لا اريد الا شيئا واحد ان لا تهجرني كما تراودك نفسك ، اما ما لا اريد فهو امر ثانوي .. اريد الحب وهذا قد نغاص .. واذن لم يبق ما يستحق الالتفات ؟ »

واستدارت نحو الباب وصافحت فرونسكي : قفي .. قفي !

وامسك بها من يدها .

واستطرد « لم كل هذا الغضب والتشاجر والتناحر ، الاني ازمع ان

اؤخر السفر ليوم او يومين آخرين ؟ اقلت كذبا ؟ الخلف بشرفي ؟ ؟
قالت : « اجل ، لقد فعلت .. والرجل الذي يعيرني بانه ضحى كل شيء في سبيل ، هو ولا غرو احط من الرجل لفاقد شرفه ! »
فاجاب وهو يندفع خارجا :
« لقد نفد الصبر ، ولم يعد في قوس الحلم منزع .. اواه ..!.. »
وخرجت انا في اثره وهي تتمتم والهة :
« انه يكرهني .. ويحب امرأة غيري .. اني اشد الحب ولكن لا اجده .. لقد انتهى كل شيء اذن .. انتهى كل شيء ! »
وعرجت على حجرتها ونظرت الى المرآة ، وتساءلت :
« يجب ان ينتهي كل شيء .. فكيف ؟ كيف ينتهي ؟ »
ودخل فرونسكي ، فتقدم منها ، وامسك يدها بلطف وقال :
« انا ، لنذهب بعد غد ، لقد وافقت »
فلم ترد عليه .. وسألها : « فما رأيك الآن ؟ »
ورفعت اليه وجها خضيبا بالدموع ، وما لبثت ان زفرت زفرة محرقة ، وقالت وهي تكاد تغص بريقها :
« اهجرني.. اتركني.. فانا امرأة ساقطة.. سارحل غدا ، وسافعل اكثر من الرحيل .. ولن اجرك معي الى الهوة، بل ازمع ان احررك، فاذهب في سبيلك .. انت لا تحبني ، اذهب .. انت تحب سواي ! » وتضرع اليها فرونسكي ان تهدأ ، واكد لها ان غيرتها لا اساس لها من الواقع ، وانه يحبها ، ولن يبرح يحبها ، وان حبه لها تضاعف في الآونة الاخيرة !
وقبل يدها ، واستطرد وهو يضمها اليه :
« انا ، لماذا لا تثيرين ما يرمض نفسينا ؟ »
واتجهت اليه ببصرها الطامح ، فرأت الرقة تنبثق من عينيه ، وخيل اليها انه يبكي ، وشعرت بيدها تبللها دموعه .. وتبدلت انا في مثل لمح البصر من الغيرة الهوجاء الى الرقة والحب ..
واحاطت عنقه بذراعها ، وغمرت وجهه الجميل بقبلاتها .. قبلته في وجهه ، ثم نقلت شفتيها الى عنقه ورأسه ، وقالت :
« حبيبي .. حبيبي اواه !.. »
شعرت انا بتجدد في نشاطها ، وانبعاث جديد في حياتها ، فبكرت بالنهوض في صباح اليوم التالي ، واقبلت على امتعتها وملابسها تنضدها في الحقائب . ودخل عليها فرونسكي ، وقال بعد ان حياها :
سأذهب على التو لأرى امي ، وانهي جميع الامور المعلقة معها . »
ولكنها كتمت ما خالجها ، ودلفت معه الى غرفة الطعام . ولما جلسا الى المائدة ليتناولا طعام الافطار ، قالت انا وهي تزوي بين حاجبيها :

« لكم اصبحت هذه الغرف مقيتة لدي ! ولهذا تراني اتشوق الابصار الى مغادرتها غدا .. »

وتغيرت نظرتها بغتة ، فطبقت .. وكان ذلك لان الخادم دخل في تلك الدقيقة يطلب الى فرونسكي ان يوقع على ايصال برقية وصلته من بطرسبرج! ولما ذهب الخادم سألته مشككة :

« ومن البرقية ؟ من اخيك . »

« وما منعك عن اطلاعي عليها ؟ »

فدعا فرونسكي الخادم وامره ان يأتي بالبرقية . ثم التفت الى انا وقال : « رغبت في كتم خبرها ، حتى لا اخدش مشاعرك . » « اهي بصدد الطلاق ؟ »

« نعم . » وتناولت انا البرقية بيد مرتعشة ، وقرات الكلمات المخيبة لأملها . وما ابطأت ان قالت بصوت عميق ثابت :

« انهيت لك البارحة ان الطلاق لا يعنيني في قليل او كثير . »

« ولكنه امر لا بد لنا منه يا انا ، فما بالك لا تكترثين به ؟ الا يصيب اولادنا العار الابدي ان لم نقترن وان لم نعش سوية كزوجين صالحين عاديين ؟ كسائر ازواج ؟ »

فقلت محتدمة : « لن انجب المزيد من الاطفال ! » « وهذا امر يؤسف له »

« انت تريد الطلاق من اجل الاطفال ، ولا تبغيه من اجلي انا .. »

« من اجلنا جميعا .. لقي من قولي .. آمني بي .. ماذا اصابك ؟ »

ونظر الى اصابعها المنقبضة على فنجان القهوة ـ ورات في عينيه اشمئزازا ونفورا ، فسارعت تقول :

« لا ابالي راي امك ، ولا الفتاة التي تعد العدة لزفها اليك ! »

فقال مشدوها : « ولكننا لم نطرق هذا الموضوع ! »

« بل اننا كنا نتحدث في هذا الصدد ، واعلم اني لا احفل امك ولا احترمها »

« انا احذري .. ارجوك .. لا تستهيني بأمي امامي .. »

« المراة التي لا يقول لها قلبها ابن سعادة ولدها ، لا قلب لها »

وحدجها بنظرة ثاقبة ارتجفت لها اوصالها .. وافترق الاثنان .. غادر هو المنزل ولم يرجع ..

ولما قفل راجعا في هزيع متاخر من الليل ، قالت له الخادمة ان سيدتها تشكو الصداع ، وترغب في الا يزعجها احد ..

وفي المساء ، وقبل ان تلوذ بحجرتها طلبت الى الخادمة ان تقول لسيدها متى عاد الى البيت انها نالت من وجع الراس ، وترغب الا يوقظها

احد من نومها .. وقالت لنفسها ساعة استلقت على فراشها : « ان هو ضرب عرض الحائط بكلام الخادمة ، واقتحم على المخدع ، يكون في قلبه حب اكيد لي .. اما اذا لم يفعل ، فمعنى ذلك انه فقد كل حب لي ، ومعناه ايضا انه يتحتم علي ان اتدبر الامر على ضوء الحقيقة الممضة المرمضة ! »

واصغت الى صوت عجلته وهي تقف لدى الباب ، فخفق قلبها خفقة الترقب . واصاخت الى خطاه وهو يصعد في السلالم ، ثم ارهفت السمع الى ما دار بينه وبين الخادم والخادمة .. وعلمت ونفسها تطير شعاعا انه حمل كلام الخادمة محمل الجد والصدق ، فكل شيء اذن انمحى حلم ليلة .. كل شيء غدا اضغاثا تعقبها صحبة محزنة ! وتجسم في ناظريها الموت كوسيلة لاسترداد محبته ، ولمعاقبته على قسوته وغدره ، ولم تعد تكترث بشيء آخر .. فالسفر الى القرية وعدمه سيان .. والظلام وعدمه لا يؤثران .. اما العقاب ، فامر لازم .. يجب ان تعاقبه ، يجب ان تموت حتى تحل به اللعنة ..

ولما جرعت قطرات الافيون لتهجع ، فكرت في سهولة الموت .. فهل تشرب ما في القارورة ؟ ان فعلت فلن يأتي عليها صباح آخر ترى شمسه..

واستلقت مفتحة العينين ، تشخص الى السقف وتحدث ، وتفكر افكارها المجنونة . وعلمت في الصباح ان الاميرة سوروكين وامها عرجتا على الدار واجتمعتا بفرونسكي ..

وتوجهت الى حجرته ودخلت.. فاخبرها مسرعا بقدوم الفتاة وامها، ثم قال وهو يتفادى نظرات اليأس التي رمته بها : « وسنسافر غدا ، غدا .. » قالت : « انت ، انت فقط ! »

قال : « دعينا من هذا يا انا » . « انت .. انت تسافر ، اما انا فلا .. »

« انا .. » ـ وستندم ، ستندم .. ولاذت ساعة ندامة .. »

واندفعت خارجة وصاح : « انا .. »

وعرج وراءها . ولكنه توقف ونكص ، وصرف باسنانه .. وانشأ يحدث نفسه : « انها تهددني .. ما عدا ؟ ما هذا الا الجحيم بعينه ! لقد بذلت ما في وسعي ، ولكنها لا تود ان تفهم ، والشيء الوحيد الباقي هو الانصياع » وغادر البيت . وسمعت انا صوت الباب يصفق وراءه ، وهدير العربة وهي تبتعد به . ونظرت من النافذة ، فرات رأسه الحمبل المتعالي، وطوحت بنفسها الى الارض معولة ، وصاحت بصوت يدب الجلمود :

« يا الهي .. لقد ذهب .. يا الهي .. لقد انتهى كل شيء ! »

★ ★ ★

ونهضت الى النافذة ثانية ، ثم اندفعت خارجة وصاحت بملء فيها

تستدعي الخادم . فلما هرول اليها ، جلست الى مائدة صغيرة ، وكتبت :

« اخطأت في حقك ، فارجع ، ارجع ، فلدي ما ابثه لك .. ارجع بحق السماء ، فانا خائفة .. » ثم ناولتها للرجل وامرته ان يتعقب عجلة فرونسكي ويقدم له الرقعة .

ورجع الرجل بعد ساعة مطاطىء الراس ، واعاد الورقة وهو يعتذر ، فقد اخفق في مهمته ، ولم يستطع ان يكتشف المكان الذي قصد اليه سيده.

وراودتها فكرة الموت ثانية . ونقمت على نفسها لضعفها وخنوعها ، وقالت : ـ « انا الملومة ، لقد تطامنت كثيرا واستخذيت ! »

وفكرت بغتة بفرونسكي ـ انه مقيت ، انه كريه .. وعجبت كيف هواه قلبها .. ولكنها فكرت ايضا بالانتقام منه .

وصاحت بالحوذي ان ينثني الى طريق محطة القطارات الحديدية . فهي تكاد توقن انه ذهب لزيارة امه في الضواحي ، وستذهب وراءه ، ستجتمع اليه لآخر مرة لتطلعه على كل شيء ، ولتطلعه ايضا على قرارها !

وعادت بعد قليل فأمرت الحوذي ان يعرج على البيت .. فقد يأتي قبل حلول الظلام .. وعولت ان تنفذ خطتها في الليل ان لم يعد .. عولت ان تأخذ قطار الثامنة الراجع الى القرية التي تقطنها امه !

وكانت تعلم ان هذا القطار يصل موسكو ثم يرجع من حيث اتى، ولعل فرونسكي يأتي فيه . ووضعت بعض الملابس في حقيبة صغيرة ، ودلفت الى غرفة المائدة ، ولكن رائحة الطعام كانت كافية لجعلها تشمئز من جميع المأكولات ..

وطفقت تتنقل في الغرف الاخرى ، وهبطت بعد ذلك الى الحديقة فجاست خلالها ، وهي مستغرقة في الفكر . ولكن فكرها كان لا معنى له..

وكانت تنتظر .. تنتظر شيئا . وكانت لا تعلم ما هي في انتظاره .

وكانت لا تود ان تعلم .. لقد اسلمت امرها الى القدر .

ولم يعد لها في الوجود وجود ..

خبت الخيل الطهمة ، وانسابت العربة وراءها بتمايل ورجحان .

ولو كان للقنوط وزن ، لعجزت الخيل عن السير ، ولتحطمت العربة شر تحطيم من كثرة ما جلبته انا معها من يأس ومن قنوط ..

انسابت العربة المحملة يأسا ، وطفقت الوالهة المضناة تهجس وتقول.

« بم فكرت منذ ساعة ؟ بالمزين ؟ بشعري ؟ بالخادم؟ فرونسكي؟ بماذا فكرت ؟ » ولمحت شرطيا يجر رجلا عملا ، فقالت :

انه ابرع منا .. لقد اكتشف العلاج ، اما انا والكونت فرونسكي فلم نهتد الى السعادة التي اهتدى اليها الرجل .. »

وتأملت في علاقتها به منذ البدء ـ ماذا طلب ؟ والى اي شيء سعى ؟.

تساءلت : « اجل ماذا اراد مني ؟ لم يرد الحب بقدر ما اراد اشباع الغرور . » اجل ان نظرته كانت تشي به ، كان ينظر نظرة الرجل المنتصر الذي ظفر بأمنيته .. لقد احبني ، ولكن غروره كان اعظم من غرامه .. وقد طالما فخر بعلاقته بي .. ولما انطفأت جذوة حماسه ، لم يعد هناك ما يفخر به ، بل ما يندي له جبينه خجلا .. لقد اخذ مني اقصى ما يستطيع اخذه ، حتى اصبحت الآن عديمة النفع له .. لقد سئمني ، ولكنه يبذل وسعه حتى لا يفضح ملله امامي ، فكبدرني ويشقيني ..

وزفرت زفرة محرقة ، ومضت في مناجاتها البائسة .

« وحبي .. حبي يزداد مع الايام لهيبا ، اما حبه فيتعثر ويترنح ويلفظ انفاسه ! انني اريد .. اريده لي وحدي .. وهو يذهب ويبتعد ويزول ، اواه ! ولو فرضنا ان زوجي اطلق لي حريتي ، فتزوجت من فرونسكي . لو سلمنا جدلا اني تزوجته فهل تتغير نظرة الناس الي ؟ هل يتبدل احتقارهم الى احترام ، وزرايتهم الى اجلال . كلا .. كلا .. كل شيء سيظل على ما هو ، كل شيء حتى شجاري مع فرونسكي ، لا حتى غيرتي من امراة تتعرض طريقي ! »

وتنبهت الى صوت الحوذي ينبئها بالوصول الى المحطة ، فترجلت مسرعة ، وتلفتت حولها ، ثم ابتاعت بطاقة ودلفت الى القطار .

وسرعان ما نسيت انها تجلس مع آخرين ، ولم تعد تشعر بوجود احد ، وحلقت ثانية في فضاء الفكر .

وقالت امراة لرفيقتها : ولهذا السبب اعطى الانسان عقلا اعطى العقل ليتدبر به امره ، وليعالج شئونه ، وليعمل عنده ! »

وشدهت آنا هل استبطنت المراة بدخلتها ، فاحبت ان ترد على فكرها ؟ وهزت راسها ، وغمغمت : « لا مندوحة لي من الفرار .. من شيء مميت » .

* * *

ووصل القطار الى القرية وخفت سرعته . فنهضت آنا ومشت مسرعة ، ثم ترجلت ، وابتعدت عن الزحمة ، كأنها تبتعد عن قوم حل بهم الوباء ..

وتذكرت بغتة انها ذاهبة لترى فرونسكي في منزل امه ، فاستوقفت حمالا وقالت تسأله :

« الم يات احد من لدن الكونت فرونسكي ـ رسول ، خادم ، يحمل رقعة لي ؟ »

فاجابها الرجل وهو يصعد فيها طرفه .

« الكونت فرونسكي ؟ لقد ارسل منذ لحظات عربته للاقاة الاميرة سوروكين وكريمتها » .

فقالت : «من جاء بالعربة ؟ من الحوذي ؟ اتعرفه ؟ »
واسودت الدنيا في عينيها ، وغام نظرها ، واقشعر جسدها، وقالت:
« لن ادعك تستمر في تعذيبي .. لن اسمح لك ان تواصل التنكيل بي ..
وراتها خادمتان فتلفتتا وحدقتا في ملابسها .. وقالت واحدة للاخرى :
« بارعة الجمال .. انها حسناء انيقة ، ولم يتركها الرجال بسلام..»
ودنا منها ناظر المحطة وسألها مستفسرا عن وجهتها ..
وركض نحوها صبي قباعها شيئا .
وهتفت بمرارة : « يا الهي .. الى اين ؟ الى اين اذهب ؟ »
واستمرت تمشي الى الامام ، واستمرت تتقدم وتوقفت في نهاية الرصيف . وحدق فيها قوم من المسافرين ، وتهامسوا . فسارعت مبتعدة ولم تلتفت وسمعت صوت قطار آت من بعيد ، وعلمت من هدير آلته انه قطار البضائع المتجه الى موسكو .
وطفقت تنظر الى الجزء المنخفض من العربات ، وتتامل في المسامير والسلاسل ، وتحدق في العجلات الحديدية المقتربة ببطء ، وكأنها تحاول ان تقيس بنظرها المسافة بين العجلة والعجلة ! وهتفت : « هناك .. هناك .. في الوسط . النهاية في الوسط سأعاقبه .. ساطعنه الطعنة النجلاء التي لم يحدسها .. سأفر من الجميع .. سأفر من نفسي ! » وتطلعت الى السماء ثم الى الارض ، وانت .
وحاولت ان تثني بنفسها تحت عجلات العربة الاولى ، ولكن حقيبتها اعاقتها ، فطوحت بها غاضبة وانتظرت مرور العربة الثانية.. وانتابها شعور عجيب ـ شعرت به يوم اقدمت على القفز من على شاهق الى اليم في يوم مضى ، ورفعت يدها فرسمت على وجهها علامة الصليب .. وارجعتها هذه الحركة سنين الى الوراء فرات نفسها طفلة لعوبا .. وتمزق فجاة ستار الظلام الكثيف الذي حجب عنها كل شيء ، وسطعت لها الحياة بغتة بكل مباهجها ومتعها .. بيد انها ظلت تحدق في العجلات المقتربة . وما كادت العجلات تصل الى محاذاتها ، وما كادت تبصر بالفراغ الذي يفصل بين العجلة الاولى وما يليها ، حتى غيبت عنقها في كتفيها وارتمت على يدها تحت العربة.
وفي نفس اللحظة الخاطفة تلك اصابها رعب رهيب مما اقدمت عليه..
« اين انا ؟ » « وماذا افعل هذا ؟ » وحاولت ان تتراجع وحاولت ان تتفادى امرا . الا ان شيئا ضخما لا يرحم صدمها في راسها وألقاها على ظهرها ..
وشعرت بعقم المحاولة شعرت بالنهاية . فصاحت : « رب اغفر لي .. اغفر لي .. » . وتوهج النور الذي فرت من خلاله اسطر الحياة، ساطعا باهرا.. توهج النور المفعم بالمتاعب ، والزيف ، والاحزان ، والشرور ، وتوهج هذا النور ، كما لم يتوهج من قبل واضاء لها جميع ما اكتنفه الظلام ، وما عتم ان اختلج اختلاجة الموت ، وتضاءل حتى خمد الى الابد ... .

ـ انتهى ـ